

رحلات في الجزيرة العربية

الجزء الأول

جي. آر. ويلستد

ترجمة: د. محمد درويش

تقديم ومراجعة: د. أحمد عبدالرحمن السقاف

رحلات في شبه الجزيرة العربية



رحلات في شبه الجزيرة العربية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

رحلات في الجزيرة العربية

الجزء الأول

تأليف

جي. آر. ويلستد

ترجمة

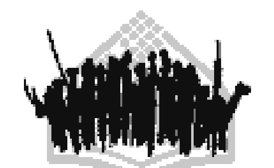
د. محمد درويش

تقديم ومراجعة

د. أحمد عبدالرحمن السقاف

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

DS207 b.w4512 2009
Wellsted, Raymond James, 1842-
رحلات في الجزيرة العربية/ تأليف جي. أر. ويلستد؛ ترجمة محمد درويش، ماجد النجار؛ تقديم ومراجعة أحمد عبد الرحمن السقاف.-ط1- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي، 2009.
240 ص، 24x17 سم.
المحتويات: ج1 : عمان ونقب الحجر.
ج2: رحلات في الجزيرة العربية.
ترجمة كتاب: Travels in Arabia
ت د م ك : 978-9948-01-302-0
1 - شبه الجزيرة العربية- وصف ورحلات.
أ. درويش، محمد، مترجم. ب. النجار، ماجد، مترجم.
ج. السقاف، أحمد عبد الرحمن، مراجع.
2- العنوان



الطبعة الأولى 1430هـ 2009م

أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380 ، هاتف: 300 6215 2 971 +

publication@cultural.org.ae
www.adach.ae

تقديم

د. أحمد عبدالرحمن السقاف

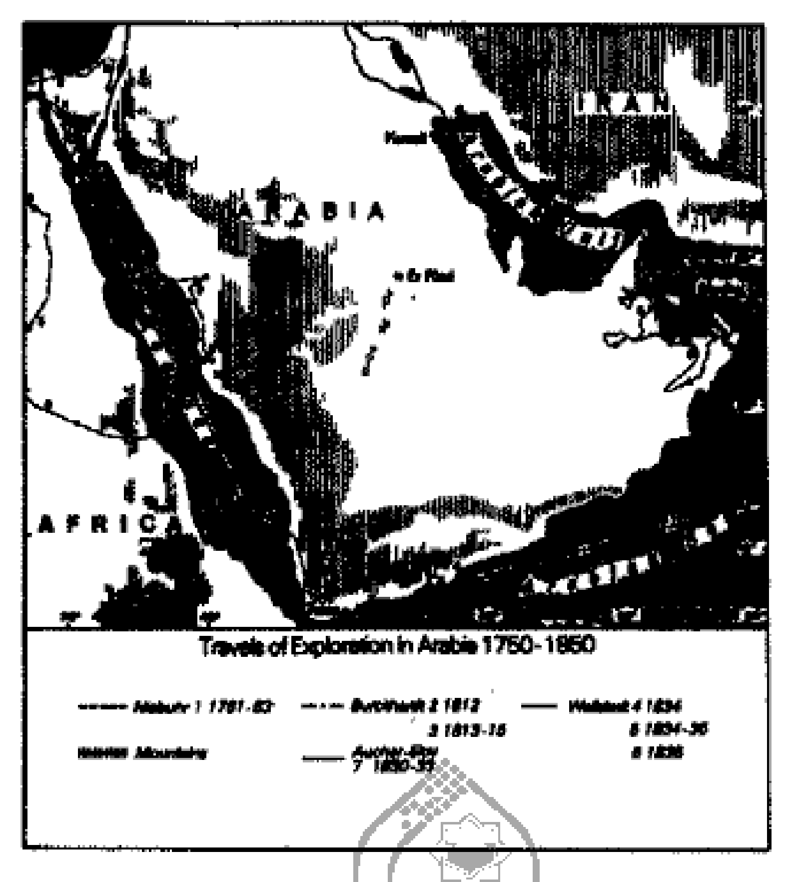
يندرج هذا الكتاب ضمن سلسلة الرحلات الغربية الإستكشافية التي حاولت التوغل داخل شبه الجزيرة العربية والتعريف بما يعتبر بالنسبة للغرب آنذاك، أي ثلاثينيات القرن التاسع عشر الميلادي، أصقاعاً مجهولة من بلاد العرب. وكان من أهم تلك البقاع المجهولة صحراء الربع الخالي والأجزاء الداخلية من حضرموت وعمان وأنحاء من نجد والأفلاج.

أما مؤلف الكتاب الملازم أول ج. آر ويلستد (1805-1842م) الشاب الإنجليزي الطموح فقد كان يأمل في أن يحالفه الحظ في اختراق جزيرة العرب المجهولة من خلال مخططين اثنين رسمهما لنفسه. الأول كان الإنطلاق من مسقط والتوجه داخل جزيرة العرب حتى (الدرعية) قاعدة نجد. والمخطط الثاني كان من خلال مرافقة جيش محمد علي في بلاد عسير عام 1835م ثم التوجه نحو بلاد حضرموت الداخلية وواديها الشهير والمحرّم دخوله على الأجانب في ذلك الوقت. وعلى الرغم من اخفاق المؤلف في تحقيق أي من مخططيه بالكامل: إذ أنه لم يتمكن في انطلاقته من مسقط نحو الدرعية من تجاوز ما هو أبعد من بلدة (عبري)، كما لم ينجح في مسعاه الثاني بسبب تعثر حملة محمد علي في بلاد عسير. وعلى الرغم من كل ذلك إلا أن ما قدمه من وصف ومعلومات عن المناطق التي تجول بها داخل عمان وعلى السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية وعلى امتداد الساحل الشرقي للبحر الأحمر تضمن الكثير من الإستكشافات الجديدة في عصره وبالتحديد فيما يخص مناطق عمان الداخلية وكذلك اكتشاف الكتابات الحميرية في منطقة نقب الهجر وميناء حصن الغراب في بلاد الواحدي الواقعة غربي حضرموت. وقد خصص المؤلف الجزء الأول من كتابه لتلك الاستكشافات الجديدة ويوميات رحلاته داخل عمان وتجواله في السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية وقصة اكتشافه للكتابات الحميرية.

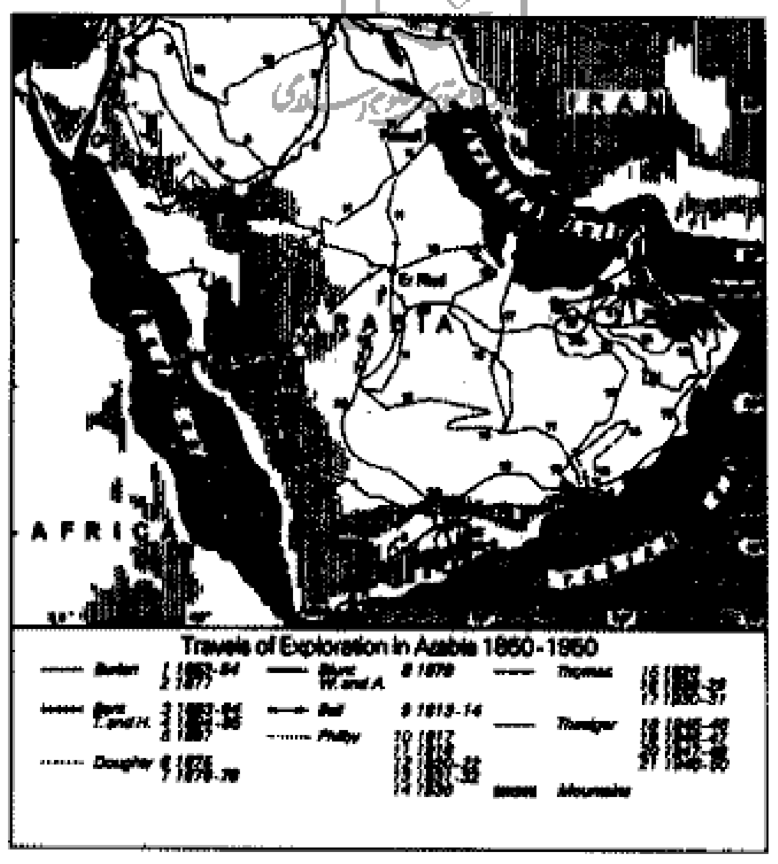
أما الجزء الثاني من كتابه فقد تناول فيه وصفاً تفصيلياً لمسوحاته لسواحل البحر الأحمر بوجه عام وساحله الشرقي بوجه خاص بدءاً من السويس والطور وخليج العقبة وانتهاءً بباب المندب. ثم عرّج المؤلف في الفصول الأخيرة من كتابه على السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية فوصف عدن وبلاد الفضلي وساحل شقرة وأحور ثم حصن الغراب والمكلا والشحر وقشن ومرباط وأورد بعض المعلومات المضطربة عن مدن واحدي حضرموت.

والكتاب في مجمله يحتوي على معلومات مَسْحية وجغرافية وآثارية مهمة وجديدة بالنسبة لعصر المؤلف وقد حاول المؤلف أن يعطي لقرائه الإنطباع بأنه باحث متعمق في كل جوانب الدراسات المتعلقة ببلاد العرب والشرق عموماً من خلال عدم اكتفائه بتناول الوصف الجغرافي والسكاني فحسب بل الخوض في مسائل العقائد والمذاهب والعادات والتقاليد والتاريخ والأنساب غير أن جهله بمرتكزاتها وخلفياتها قاده إلى ارتكاب أخطاء جسيمة وجعله عرضة لنقد عنيف من رفاقه ومعاصريه ولاحقيه. فقد كانت معرفته باللغة العربية ضعيفة كما كان حاد الطبع وشديد البخل في تعامله مع مرافقي رحلاته من المحليين. كما اتهّم بنسبة إسهامات رفاقه مثل وايتلوك وهلتون وكرتندن إلى نفسه وغمط مشاركاتهم في انجاز بعض المسوحات والاستكشافات. وهذا لا يعني أنه لم يقدم شيئاً يستحق الثناء لكنه رغم تهيؤ الظروف له بشكل استثنائي وحصوله على الدعم الكبير من سلطان عمان إلا أن ما أنجزه لا يجعله في مرتبة سابقيه مثل نيبور وبوركهات وسيتزن، فقد جاء المؤلف إلى جزيرة العرب حاملاً في رأسه صورة نمطية مترسخة في عقله ترسم العربي كبدوي يسكن الخيام ويجوب الصحراء على ظهر جمله، بدائي في تفكيره وسلوكه وجاهل في عقيدته مقارنة بالغربي المتحضر والمستنير.

وعموماً فالرحالة الغربي خلال تجواله في بلاد العرب قد ينجح في التنكر والتخفي من حيث الاسم واللبس والمظهر واللغة والديانة إلا أنه غالباً ما يفشل في فهم واستيعاب وتقبل الآخر وحضارته وعقديته، ويصعب عليه النظر إلى ذلك الآخر دون اختزاله أو التقليل من شأنه.



Travels of Exploration in Arabia 1750-1850



Travels of Exploration in Arabia 1850-1950



الفصل الأول

الوصول إلى مسقط

قورنت شبه الجزيرة العربية مقارنة مناسبة بطبقة إفريز محاطة بالذهب لأن البقاع الخصبة أو التي يمكن زراعتها تقع ضمن حدودها، أما الأراضي الوسطى فهي أراض قاحلة ورملية.

ودُرست معظم حدودها السورية أو الشمالية. فقد وصف بركهاردت، من خلال ملاحظاته الشخصية الأماكن القريبة من مكة والمدينة في الحجاز، ووصف (نيبور)، جزءاً صغيراً من اليمن، في حين ظل كل من إقليم حضرموت وإقليم عُمان والجانب الغربي الذي يحد الخليج العربي مجهولاً لم يكشف عنه شيء بعد(*).

وفي أثناء عملي قبل بضع سنوات في إجراء المسوحات على سواحل شبه الجزيرة العربية الجنوبية والغربية، كان اهتمامي يتجه دوماً إلى الحصول على معلومات عن الأقاليم المجاورة لها. إلا أن الفرصة لم تسنح لي آنذاك في التغلغل داخل البلاد – التي قدمت فرصة طيبة للمنجاح – حتى بداية سنة 1835 عندما اضطر محمد علي بفعل مزاجه الذي لا يعرف السكينة ولا حدوداً للطمع إلى إرسال قوة من مصر للاستيلاء على بلاد القهوة. وسرعان ما حظي اقتراحي بمرافقة جيشه إلى هذه النقطة ومن ثم محاولة الوصول إلى حضرموت بموافقة الحكومة الهندية. ولكن قبل وصول الموافقة إليّ وصلت أنباء تفيد أن جيش الباشا اضطر إلى دخول ممر ضيق في إقليم عسير وألحقت به هزيمة منكرة، ولم تصل إلاّ ثلة بائسة إلى ساحل البحر.

وبسبب من إحباطي في هذا الجزء، وجهّت اهتمامي، لدى عودتي إلى بومباي، صوب عُمان التي تحظى بسمعة ليست أقل إثارة للاهتمام من بقية الأقاليم، إلا أن الذي كان يردعني

(*) يعتبر المؤلف وزميله وايتلوك F. WHITELOCK من أوائل الرحالة الأوروبيين الذين تمكنوا من التوغل داخل عمان في عامي 1835 و 1836 تلاهما عالم النبات الفرنسي ريمي اوشرايلوي عام 1838. أما بالنسبة لحضرموت فقد قام المؤلف وزميلان له هما كرتندن وهلتن باستكشاف ساحل حضرموت ولم يتوغلوا إلى الداخل حيث وادي حضرموت بمدنه الشهيرة مثل شبام وتريم وسيوُن.

في هذا الشأن هو طبيعة مناخها المعروف بأنه غير صحي والطبيعة العدوانية المفترضة في سكانها وأن أي رحالة أوروبي لم يسبق له حتى اليوم دخولها وأن شعبها والبلاد التي يسكنها ظلوا مجهولين تماماً بالنسبة لنا. وفي متابعة هذا الموضوع اضطررت إلى أن أتمنى أن تظل العلاقات السياسية بين حاكمها الليبرالي المتنور وحكومتنا ذات طبيعة لا تترك إلا قليلاً من الشك في أنه سيوفر كل التسهيلات القادر عليها لهدف هذه البعثة. وبعد الحصول على الإذن الضروري لهذا الغرض، قضيت بضعة أيام في الحصول على الرسائل[1] اللازمة والهدايا الضرورية. وفي التاسع من نوفمبر / تشرين الأول 1835 اعتليت ظهر السفينة (Cyrene) قاصداً (مسقط) ذلك الميناء الذي وصلنا إليه بعد رحلة جميلة في الحادي والعشرين من الشهر نفسه. وبعد وصول السفينة ورسوها على الشاطئ خرجت منها واتجهت ناحية الساحل وقمت بزيارة الإمام. ولكني لما وجدت ديوانه ممتلئاً بالناس، استأذنت في طلب رخصة لزيارته زيارة خاصة صباح اليوم التالي، فأجيب طلبي على الفور.

الثاني والعشرون من نوفمبر / تشرين الثاني: لم أجد أحداً في صحبة سموه(*) هذا الصباح سوى ابنه. وبعد تقديم الهدايا، كانت بضع كلمات كافية لتوضيح أهداف رحلتي المقترحة. ولما كنت أدرك حرية (السيد سعيد) المميزة في الموافقة على هذه الأهداف، فإنني دهشت أيضاً كلَّ الدهشة لما أبداه من رغبة في تعزيز آرائي وقال: «إن مناسبات كهذه هي التي تمنحني متعة حقيقية طالما أنها تساعدني – من خلال تلبيتي رغبات حكومتك – في أن أثبت شدة ولائي لها». ثم أضاف بلهجة تنم عن الأخلاق التي لا يرقى إليها أي شك: «ليس

(1) فيما يلي صورة لإحدى هذه الوثائق الرسمية:

القسم الفارسي، رقم 17 سنة 1835.

بهذا نشهد بأن الملازم (ولستد) يتنقل بموافقة الحاكم الشريف في مجلس بومباي في مختلف أرجاء شبة الجزيرة العربية وأن كلَّ من يرغب في الاحتفاظ بأواصر الصداقة مع الحكومة البريطانية مطالب بإظهار كلَّ الاهتمام والاحترام له.

بأمر من الحاكم الشريف في المجلس دبليو. اتش. واتن الوزير في الحكومة

قلعة بومباي

7 نوفمبر 1835.

(*) سعيد بن سلطان بن أحمد بن سعيد البوسعيدي حكم في الفترة (1219 – 1273هـ 1804 – 1856م) من أبرز الشخصيات في أسرة البوسعيد ويعتبر عهده الذي امتد قرابة نصف قرن من بين أكثر العصور إزدهاراً لعمان.

هذا كلام اللسان، بل هو كلام القلب». وبعد محادثة ليست بالقصيرة تلقيت فيها كلّ عون من خلال معرفته التامة بالبلاد، اتخذت الإجراءات على أساس أن أتوجه أولاً إلى (صور) طالما أنه لا توجد إلاّ طريق واحد يؤدي إلى الجنوب – مما جعلني أشعر بعدم وجود أي رغبة لدي في السير فيه مجدداً – وبعد الوصول إليها أتقدم صوب (بني بو علي) وبهذا أعبر خطاً يوازي ساحل البحر نحو (الجبل الأخضر) الذي يوصف بأنه مرتفع كثيف السكان وكثير الفاكهة. وبعد ذلك أُنهي ذلك الجزء الخاص من (عُمان) ومن هناك أتوجه إلى عاصمة الوهابيين (الدرعية)[1] إذا كان الطريق سالكاً. ثم نوقشت بعض الموضوعات الثانوية الأخرى وتم إعدادها ومن ثم استأذنت بالانصراف مسروراً جداً بآفاق النجاح الذي ينتظرني.

الثالث والعشرون من نوفمبر/ تشرين الثاني: تلقيت هذا الصباح من سموه جواداً نجدياً ممتازاً للقيام برحلتي علاوة على زوج من كلاب القنص وسيف مذهب وتصريح رسمي يؤكد أن أفضل ما تنتجه البلاد ينبغي أن يكون ملكاً لي طالما أنا في (عُمان)، وأن كلّ النفقات المصروفة على الابل والأدلاء وغيرها سيتحملها هو شخصياً، وأن هناك رسائل يتم إعدادها بتوجيه مباشر منه موجهة إلى زعماء مختلف المناطق التي سأضطر إلى اجتيازها طالباً منهم فيها استقبالي بكل حفاوة ممكنة. وإذا وضعنا جانباً كلّ احتمال يمكن أن يكون قد دفع هذا الأمير إلى تعزيز ما كان يظن أنه يمثل آراء حكومتي ومن ثم يقوم بخدمتي، فقد كان أسلوبه ومزاجه اللذان أظهرهما في هذه المناسبة ينطويان على روح تتفق كلّ الاتفاق مع الأخلاق النبيلة الحقة التي كان يتمتع بها.

يبلغ (السيد سعيد) الثانية والخمسين من العمر ومضى على حكمه سبعة وعشرون عاماً. وهو طويل القامة، ذو شكل مهيب، ملامحه هادئة، لكنها آسرة. أما أسلوبه في الحديث وخصاله فكانت دمثة وحيية ومبجلة. واحتفظ الإمام بعاداته الشخصية وببساطة جذوره البدوية. وهو مقتصد غير مسرف، لا يتزين بالمجوهرات في حين لم يكن ملبسه بأفضل من ملابس الشخصيات المهمة إلاّ من حيث نعومة القماش. ولم تكن خدمته محاطة بأي أبهة أو خيلاء. وقد لاحظ العرب – كمثال على حرارة عواطفه – أنه يزور أمه يومياً وكانت

(1) وتقع في وادي بني حنيفة وهو أحد الممرات الضيقة التي لا يمكن إلا بوساطتها دخول نجد.

لا تزال على قيد الحياة وينفذ رغباتها في جميع الأمور. أما في علاقته بالأوروبيين، فكان يظهر دوماً كلَّ الاهتمام والعطف. وإذا كان من الممكن أن يطلق على أي أمير من الأمراء المحليين صفة صديق الإنكليز حقاً، فإن مثل هذا الأمير هو إمام مسقط. وحتى من جانبنا، فإن الارتباط السياسي به يبدو منطوياً على عنصر الإخلاص على نحو أكبر مما هو متوقع.

تمتاز حكومة هذا الأمير بغياب كلِّ الضرائب الثقيلة الوطأة وكل العقوبات العشوائية كما تمتاز بإعطاء الأمير كل الاهتمام للتجار من أي بلد كان، ممن يأتون للإقامة في مسقط؛ وكذلك بالتسامح العام الذي يعم مختلف الطوائف. من جهة ثانية، فإن استقامته ونزاهة عقوباته وتساهله فيها والاهتمام الشديد الذي يوليه لرفاهية رعاياه؛ كلُّ ذلك جعله موضع إعجاب واحترام شديدين من عرب المدن مثلما جعله تسامحه وشجاعته الشخصية موضع اعتزاز البدو. لقد جعلته هذه الخصال الحميدة يكتسب في عموم الشرق صفة عمر الثاني.

(السيد سعيد) هو (ابن سلطان) الابن الثالث (لأحمد بن سعيد) الذي أنقذ بلاده من نير الفرس سنة (1730م). وعلى الرغم من أن الأفراد الذين ينتمون إلى هذا النسب ليسوا من قبيلة اليعاربة الأزدية التي احتفظت بالسيادة على (عُمان) قرابة مائتين وخمسين سنة وورث الإمارة فيها (أحمد بن سعيد) و(سيف) من اليعاربة فإن السلالتين تنحدران من الجد نفسه (أزد) الذي يمثل الكنية العامة للقبيلة التي ينتمي إليها الفخذان. وعلى أي حال، فالحاكم في (عُمان) اليوم ليس إماماً اجتمعت على تسميته العرب إذْ إن الحصول على هذا اللقب يستوجب على صاحبه عند انتخابه أن يكون قد امتلك درجة دينية كافية تؤهله لأن يخطب أمام حشد من الزعماء الذين انتخبوه وأمام أتباعهم. كما يتعين عليه عدم ركوب متن سفينة. إلاّ أن هذا الشرط الأخير تم التغاضي عنه عندما استولى (سيف) على موانئ تقع على السواحل الإفريقية وعلى مخيماتها. إلا أن الشرط الأول كان ينظر إليه على أنه ملزم وضروري حيث إن (السيد سعيد) الذي لم يكن يمتلك الدرجة الكافية أو هكذا كان تصوره، استغنى عن الاحتفال بتنصيبه كلياً ونتيجة لذلك لم يتلق من رعاياه سوى لقب سيد أو أمير.

سأؤجل إلى فصل لاحق الحديث عن تفاصيل مرتبطة بالحكومة وتنطبق عموماً على الجزء الأعظم من المدن في (عُمان). أما الآن فسأقدم وصفاً لمدينة مسقط ومن ثم أبدأ بسرد رحلاتي. ثمة ملاحظات مختلفة عن هذه المدينة يمكن العثور عليها في الصفحات التي دونها (نيبور) و(هاملتن) وغيرهما. إلاّ أن معظمها تعود إلى فترة بعيدة قلما تنطبق عليها الآن نظراً للتغيرات الكبيرة التي شهدتها ظروفها وتجارتها في ظل حاكمها الحالي. لهذا السبب، سأستعرض نتائج ملاحظاتي وأبحاثي بشيء من التفصيل.

يبدو أن قدامى الجغرافيين عرفوا منذ زمن مبكر موقع مسقط[1] وربما كانت هي Moscha أحد موانئ حضرموت الذي ذكره (بطليموس) ولاحظ ذلك أيضاً (آريان) في كتاب الـ Periplus (دليل الملاحين في البحر الأرثيري) بوصفها مركز التجارة الضخم بين الهند وبلاد فارس وشبه جزيرة العرب[*]. لكن على الرغم من هذا الدليل، فإن مسقط لم تكن تبدو مركزاً تجارياً مهماً إلى أن استولى البرتغاليون على المدينة سنة (1508) وحولوها إلى ميناء متوسط يمكن لسفنهم أن تحصل منها على المؤن والأطعمة وهي في طريقها من مستعمراتهم الهندية إلى جزيرة (هرمز) في الخليج العربي وبسبب هذه النظرة إلى (مسقط) عمدوا إلى تعزيزها بالمال والجهد. ولما تم استيلاء الفرس على المدينة الثانية في السادس والعشرين من نيسان/ أبريل سنة (1622) في عهد الإمبراطور (شاه عباس)، لجأ عدد كبير من أثريائها إلى (مسقط). وفي سنة (1658) استعاد العرب المدينة من البرتغاليين وقضوا على كلّ

---

(1) يكتبها الإدريسي مسكه.

(*) MOSCHA ليست مسقط وإنما هو ميناء على ساحل ظفار يقع على بعد نحو 40 كم إلى الشرق من صلالة في الموقع الذي يسمى حالياً (خور روري) وتطلق عليه النقوش الحضرمية المكتشفة فيه – والتي يعود تاريخها إلى القرن الثاني أو الأول ق.م – (هجرن/ سمرم) أو (هجرن/ سمهرم) أي مدينة (سمر/ سمهر) كما تطلق تلك النقوش على تلك المنطقة الساحلية (أرض/ ساكلن) أو (أرض/ ساكلهن) أي أرض (الساكل) وتحكي تلك النقوش إنشاء تلك المدينة عندما جهز ملك حضرموت العزيلط قوة استيطانية من سكان عاصمته (شبوه) ضمت مخططين وبنائين تحت قيادة (أبيشع سلجن بن ذمر علي) الذي أنجز تلك المهمة وبنى ذلك الميناء الذي اشتهر وكان اللبان يجمع فيه ثم يرسل بحراً إلى ميناء حضرموت الرئيس (قنا) ومنه براً إلى شبوة أو براً إلى العاصمة (شبوه) مباشرة مروراً بوادي حضرموت. وقد ذكر المؤلف اليوناني المجهول لكتاب الـ PARIPLUS والذي عاش في القرن الأول الميلادي ميناء Moscha كما أطلق على المنطقة الساحلية الساكليت (Sachalite) وهي إشارة واضحة إلى (أرض الساكل) التي وردت في النقوش أما المؤرخ اليوناني آريان ARRHIANOS الذي نسب إليه المؤلف خطأ كتاب الـ Periplus فقد ألف كتاباً قدم فيه وصفاً لحملة الإسكندر عرف باسم (الأناباز).

أفراد حاميتها ولم يبقَ من آثار احتلالهم سوى القلاع وكنيستين باتت إحداهما اليوم مجرد أطلال وتحولت الثانية إلى قصر للإمام. ومنذ ذلك الحين وحتى وصول (السيد سعيد) إلى الحكم، لم يزر الأمراء الحكام (مسقط) إلاّ بين حين وآخر. وكان ينظر إلى (الرستاق) على أنها عاصمة (عُمان)(*).

تقع مدينة (مسقط) في الطرف الأقصى من خليج صغير ينتهي بممر ضيق يأخذ بالاتساع كلما توغلنا إلى الداخل. وتمتد التلال على جانبي الممر وعلى ارتفاع يصل ما بين ثلاثمائة إلى خمسمائة قدم وهي مطلة على البحر وتبدو وقد انتشرت عليها القلاع التي كانت تبدو في حالة تسمح بترميمها إذا ما أخذنا بالحسبان موقعها المجاور لبلدة عربية. وقد شيدت هذه القلاع وأكثرها مهابة على جانبي المضيق في الجزء الداخلي منه. وفي ذلك المكان، وفي الجهة الغربية منه يوجد السجن. ويسيطر حصنان هلاليا الشكل على المدخل حيث تبدو المدافع متمركزة والحراس يقظين دوماً. أما المسافة الفاصلة بين قلعة وأخرى فتصل إلى نصف ميل وبهذا يصعب القيام بهجوم مفتوح في وضح النهار عليها إذا ما كانت معززة جيداً.

تبدو مدينة (مسقط) للأشخاص القادمين من جهة البحر وكذلك قلاعها والتلال المجاورة لها ذات منظر خلاب وغريب. فلا توجد شجرة أو دغل أو أي نبتة أمام أعين الناظرين. أما سطوح البيوت البيض والقلاع ذات الأبراج القريبة منها فتختلف اختلافاً كثيراً عن مظهر الكتل الصخرية المسودّة والمحروقة من حولها. وهي تبدو من حيث المظهر مشابهة لمعظم المدن الشرقية عندما ينظر إليها عن بعد. فهناك السطوح المتساوية للبيوت وأماكن السكن وقباب الجوامع ومنائرها الشامخة وغير ذلك من السمات البارزة. ويبقى المشهد محتفظاً بهذه السمات الجذابة حتى نصل إليها وعندئذٍ يتلاشى الوهم. فالشوارع الضيقة المزدحمة والأسواق القذرة التي يعيق الحمالون الحركة فيها، وهم يحملون حمولات التمر والحبوب وغير ذلك، والأكواخ البائسة تختلط بالبيوت الواطئة الحقيرة

(*) نشير إلى أنه من الرستاق انطلقت دولة اليعاربة وعقدت لمؤسسها ناصر بن مرشد الإمامة سنة 1034هـ/ 1624م، ومنها أيضاً حكم عمان أحمد بن سعيد مؤسس الدولة البوسعيدية (1157–1198هـ/1744–1783م) وتنسب المصادر التاريخية العمانية إلى حفيده حمد بن سعيد بن أحمد (1193–1207هـ/1779–1792م) نقل العاصمة من الرستاق إلى مسقط.

التي يجلس أصحابها فوق دكك صغيرة أمام أبوابها لا تحميها من حرارة الشمس سوى مظلات من قماش ممزق. وثمة بيوت أخرى آيلة للسقوط، إلاّ أن هناك من يسكنها رغم ذلك، وهي منتشرة في كلّ اتجاه. على الرغم من ذلك ثمة بيوت جذابة داخل المدينة. فقصر الإمام والقصور التي تعود لأمه الأميرة العجوز وللحكام ولآخرين غيرهم هي من الصنف الثاني. كما يختلف شكل هذه المباني اختلافاً كلياً عن المباني التي تشاهد في مدن اليمن والحجاز وتبدو في طرازها أقرب إلى طراز العمارة الفارسية.

إن (مسقط) مشيدة فوق أرض منحدرة ترتفع ارتفاعاً تدريجياً عن مستوى البحر حتى إن البحر يكاد يرتطم بالجزء الأسفل من البيوت. ولا توجد أي دفاعات في هذا الجانب. إلاّ أن الجوانب الأخرى محمية بسور يبلغ ارتفاعه أربعة عشر قدماً إضافة إلى خندق جاف. ويتم الدخول إليها عبر بوابتين تغلقان عند غروب الشمس.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثاني

وصف لمسقط

على الرغم من مظهر (مسقط) الخارجي الذي لا يعد بشيء، إلا أن هناك أجزاء قليلة يمكن الحصول منها على مؤن بكميات أكبر أو بنوعية أفضل. فلحوم الأبقار والأغنام والدواجن والفواكه متوفرة طوال أيام السنة والأسماك جيدة ومتعددة الأنواع. وتزود مسقط بالمياه بوساطة بئر عميق على مقربة من إحدى القلاع التي ينتصب فيها أحد الحراس في زمن الحرب للحيلولة دون قيام الآخرين بقطع الماء. وثمة قناة أنشئت حديثاً لنقل الماء إلى المدينة، غير أنه ماء عكر ونوعيته ليست بالجيدة ولا بالرديئة. يزخر خليج مسقط بالأسماك الجيدة والمتنوعة.

الغالبية العظمى من سكان مسقط ينتمون لأعراق مختلفة. فالذين ينحدرون من أصل عربي وفارسي وهندي وسوري – عن طريق بغداد والبصرة – وكردي وأفغاني وبلوشي انجذبوا إلى (مسقط) بسبب اعتدال حكومتها فاستقروا فيها إما بهدف التجارة أو لتفادي استبداد الحكومات المجاورة. وندرك أن الأمر كان على ذلك الحال منذ زمن قديم جداً. فقبل قرنين على ولادة الرسول محمد (ص) لجأت إحدى القبائل القوية التي كانت تقطن سواحل الخليج العربي إلى هذا المكان هرباً من اضطهاد الفرس. وفي سنة (1828) استقبل الإمام بكل عطف وحنان مجموعة من اليهود لم يعد في وسعهم تحمل ضرائب (داود باشا) وطغيانه. كما جعل بعض الأفغان من مسقط مقراً دائماً لهم والذين يشاهدون في المدينة هم في غالبيتهم من الحجاج القاصدين مكة أو العائدين منها. لهذا السبب قلما يقومون بمضاربات تجارية، والأكثر من هذا أنهم، ينأون عن بقية الطبقات. أما البلوش، فهم على العكس من ذلك، ويتميزون بفقرهم الشديد عامة. وهناك عدد لا بأس به من هؤلاء البلوش يعملون مجندين في حراسة الإمام. والبقية الباقية تعمل في الحمالة، وهي مهنة تؤهلهم لها أجسادهم الرياضية في حين أن القليلين جداً يعملون في الملاحة على ظهر السفن (البغلة)[1]

---

(1) البغلة: وصف عام لسفن ذات حمولات متباينة تتراوح بين خمسمائة إلى ثلاثمائة طن.

حيث يحظون بالاحترام بسبب حيوتهم ونشاطهم. وبسبب اختلاف المذاهب، فإن العرب والفرس في (عُمان) قلما يتزاوجون فيما بينهم. إلاّ أن العرب أقل حساسية إزاء التزاوج مع البلوشيين الذين يحصلون غالباً على زوجات عربيات ويقيمون باستمرار هنا إذ هناك احتمال في أن تغدو الإماء عندهم أمهات. وقد غضّ العرب مؤخراً الطرف عن خيانة الفرس الأخيرة. ففي عهد الإمام سيف(*) سُمح لحامية لهم بالدخول إلى المدينة ولكن لما كان الأمير غارقاً في الشراب، استغلوا الفرصة واستولوا على القلاع ذات يوم وخلعوه واغتصبوا الحكم. ولكن بعد الإطاحة بهم لم يسمح لهم البتة بعد ذلك بالإقامة بأعداد كبيرة في المدينة. ولكن منذ زواج الإمام بأميرة (شيراز) أوقف العمل بذلك الأمر وبعدد آخر من القيود. الأكثر من هذا، إذا ما ارتكب أحد الفرس مخالفة سواء أكانت ذات طبيعة مدنية أو إجرامية، فإنه يسمح له بالمثول أمام قاضيهم الخاص بهم واستناداً إلى تقريره، فإنه قد يعاقب أو يخلى سبيله. غالبية الفرس في (مسقط) هم من التجارة الذين يتعاملون بالبضائع الهندية والقهوة والنارجيلة وماء الورد. أما الآخرون من (بندر عباس) و(لار) و(MENON) فيصنعون الأسلحة كالسيوف والبنادق التي يكثر الطلب عليها داخل البلاد.

وبسبب انحداهم من أعراق مختلفة وبسبب عادة التزاوج مع الإماء من (زنجبار) و(أثيوبيا) فقد أصبحت ملامح هذا الرهط من السكان متباينة تبايناً شديداً. لكن الطبقات الأرفع مستوى التي احتفظت بنقاء أصلها العربي دون أن تشوبه شائبة لا تزال تحتفظ بالخصائص المميزة لجنسها إلى درجة كبيرة. والأشخاص الذين ينتمون إلى هذه الطبقة نحيلون في الغالب ويميل لون بشرتهم إلى البني الفاتح الذي يشير إلى تمتعهم بالصحة. وقلما يعانون من الحمى على الرغم من أن مناخ مسقط، في هذا الخصوص تحديداً، مناخ قاتل للغرباء ولم يتمكن أي أوروبي حتى الآن من العيش هناك وقد حدثت حالات موت عديدة في سفننا مما اضطرها إلى البقاء بضعة أيام. أما الذين ينتمون إلى الطبقات الأدنى فيتميزون بقوة أبدانهم ذات الأطراف الرياضية ويبدو بعضهم أفضل نموذج للقوة وتناسق الأجسام. لهذا لا يوجد سوى فارق ضئيل في العادات والنزعات والصفات الأخلاقية عند

(*) سيف بن سلطان اليعربي استنجد بالفرنسي في عهد نادر شاه وذلك في عام 1150هـ/1737م

العرب الذين يقطنون المدن الساحلية ولهذا أفضل أن أكرس للحديث عنهم جزءاً خاصاً. ولكن تظل هناك طبقتان أخريان من الأجانب في مسقط تجدر ملاحظتهما.

ففي هذا المكان توجد أعداد من الهندوس (البانيان) أكثر من أي مكان آخر من شبه الجزيرة العربية. وفي الفترة الزمنة التي حدثت فيها زيارتي، قُدّر عددهم بألف وخمسمائة فرد. وفي ظل الإدارة المعتدلة للسيد سعيد يفترض أن عددهم ازداد زيادة سريعة. ولديهم معبد خاص بهم ويسمح بالاحتفاظ بعدد محدد من الأبقار وحمايتها وحرق موتاهم وممارسة شعائرهم الدينية. ولا توجد قيود على الثياب التي يتعين عليهم ارتداؤها مثلما هو الحال في مدن اليمن. إنهم يبدون هنا وهم يملكون كلّ امتيازات الرعايا المسلمين باستثناء شيء واحد. فإذا قتل المسلم هندوسياً فإن أقرباءه يمكن أن يضطروا إلى القبول بتعويض عن دم المقتول. أما إذا كان المقتول عربياً فالمسألة تخضع للاختيار.

ويأتي هؤلاء (البانيان) عموماً من (بور بندر) والمقاطعات الواقعة في شمال غربي الهند وبسبب من أعمالهم التجارية يضطرون في أغلب الأحيان إلى البقاء مدة تتراوح بين خمسة عشر إلى عشرين عاماً. وهم لا يصطحبون نساءهم معهم. وعلى الرغم من أنهم يقيمون في بعض الأحيان علاقات غرامية سرية مع النساء العربيات إلاّ أن هناك حالات استثنائية لبقاء معظمهم غير متزوجين طوال تلك الفترة. ومن الحقائق المتصلة بتاريخ هذه الطبقة أن بعض أفرادها يتخلون عن ديانتهم الهندوسية ويشهرون إسلامهم. وعلى الرغم من ندرة مثل هذه الحالات، إلاّ أن المسلمين لا يبدو عليهم الافتخار بهؤلاء المهتدين. وقد أَلِفَ هؤلاء عادة تتمثل في إشهار إفلاسهم وهو أمر يُعد انحرافاً كبيراً في نظر العرب. وإذا ما أراد أحد هؤلاء ممارسة هذه العادة تراه يجلس أمام محله في وضح النهار وقد أوقد شمعة. وما إن يراه الدائنون حتى ينهالوا عليه سباً وشتماً وفي بعض الأحيان ضرباً. غير أنه لا يتعرض إلى مضايقة بعد هذه الفورة حتى يعود إلى عمله ويخلّص نفسه وعندئذٍ يبدأ الإلحاح عليه مجدداً وبهذا لا يخلصه إخفاقه من التزاماته السابقة.

وفي يوم ما توجهت بصحبة تاجر عربي وبعض البدو لإلقاء نظرة على الأبقار التي

تملكها هذه الطائفة. كانت هناك قرابة مائتي بقرة في ساحة واسعة يحيط بها سياج. كانت الحيوانات تبدو حسنة التغذية وعليها أمارات الصحة وميالة للأذى. ولما كنت أنا والتاجر غير مسلحين، فقد سمح لنا بالدخول بينما مُنع البدو لأنهم كانوا مسلحين وظن الهندوس أن البدو لن يترددوا في استخدامها إذا ما أصابهم الأذى من الحيوانات. وسرعان ما تربع رفاقي مع آخرين تجمعوا من حولهم فوق السياج وبدا عليهم السرور وهم يشاهدون طقوس العبادة التي يؤديها الهندوس لقطيعهم. وعندما تصاب الحيوانات بمرض، فإن الهندوس يعيرونها كلَّ الاهتمام وإذا لم تظهر عليهم أي علامة تشير إلى الشفاء يتم إرسالها إلى الهند كما هو شأن كلّ المدن الواقعة على أطراف أخرى من الساحل. وعلى أية حال، فإن عادات هذه الطبقة من الناس معروفة جداً وليست بحاجة إلى مزيد من التفاصيل هنا.

يشكل (البانيان) في مدينة (مسقط) مجموعة من أهم التجار الذين يحتكرون احتكاراً شاملاً تقريباً مجمل تجارة اللؤلؤ من الخليج العربي والتي تقدر سنوياً بخمسة عشر لاك[1] دولار. كما يقومون باستيراد الحبوب من الهند ويعقدون معظم الصفقات الخاصة بالملابس والبضائع الهندية.

وهناك عدد قليل من اليهود في مسقط وصل معظمهم إليها سنة 1828 بعد أن خرجوا من بغداد، كما أشرنا آنفاً، بفعل أعمال (داود باشا) الوحشية وابتزازه لهم. وقد اضطر هؤلاء إلى الهرب، فلجأ البعض منهم إلى بلاد فارس في حين آثر آخرون، كانوا في طريقهم إلى الهند، البقاء هنا. وكان التسامح الذي يعامل به أبناء جميع الطوائف قد امتد ليشمل بني إسرائيل دون تمييز، كما هو الحال في سوريا ومصر. ولم يكونوا مرغمين، كما هو شأنهم في مدن اليمن، على السكن في أماكن نائية منفصلة عن المدينة. كما لم تكن القوانين تقضي بأن يسير اليهود إلى جهة الشمال عندما يمرون بالمسلمين. وهو ما يحدث في بلاد فارس. ويعمل هؤلاء في مختلف المهن في مسقط حيث يشتغل الكثيرون بصياغة الفضة أو في فصل العملة الرديئة عن العملة الجيدة في المصارف بينما يتاجر قليلون منهم بتجارة الخمور.

---

(1) لاك: عدد يساوي مائة ألف في الهند.

أقدر عدد سكان (مسقط) و(مطرح) بستين ألف نسمة. ومن شأن هذه المدينة أن تتبوأ مكانة عالية بين مدن الشرق لا بوصفها مركز التجارة المهمة بين شبه الجزيرة العربية والهند وبلاد فارس وحسب، بل لكونها ميناء (عُمان) المهم بسبب كثرة ما تستورده البلاد أيضاً.

وتقدر الضرائب في مسقط بنسبة خمسة بالمائة على كلّ البضائع المستوردة ويبلغ مجموعها في مدينة (مسقط) مائة وخمسة آلاف دولار، وفي (مطرح) تقدر بستين ألف دولار وهذا يعني أن قيمة الاستيراد تبلغ ثلاثة ملايين وثلاثمائة ألف دولار سنوياً أو ما يعادل تسعمائة ألف جنيه إسترليني. ولا تفرض أي رسوم على الصادرات. وعلى الرغم من أن هذا لا يبدو مؤثراً مقارنة بموانئ الهند أو أوروبا، إلا أنه بالغ الأهمية في جزيرة العرب إذ إن معظم الواردات من الأقمشة والذرة. والحق أن هذه المبالغ تفوق مثيلاتها في أي مدينة أخرى في البلاد باستثناء (جدة).

إن المواد الأساسية التي تستورد من الخارج ومن ثم يعاد تصديرها من (مسقط) ولا تفرض عليها أي رسوم هي القهوة واللؤلؤ. ولأجل نقل القهوة تستخدم ثمانية أو عشرة قوارب كبيرة – أو ضعف ذلك العدد من القوارب الصغيرة – ما بين اليمن ومسقط: وتقوم هذه القوارب برحلة واحدة سنوياً يزن بعضها مائتين وخمسين طناً فأكثر. وتسير السفن محملة بالتمور والتبغ الفارسي والسجاد ومليئة بالحجاج على امتداد سواحل بحر العرب ومن ثم إلى البحر الأحمر فجدة حيث يترجل منها الحجاج إضافة إلى من يرغب من أفراد طاقم السفينة للتوجه إلى مكة لأداء شعائر الحج. وهناك يبقون مدة شهر أو شهرين حسبما يسمح به الوقت لعودة الحجاج. ولكن بعد مغادرتهم الميناء يقصدون (المخا) أو (الحديدة) حيث يبادلون الذهب الذي استلموه من الحجاج ثمناً لعبورهم بالقهوة وبهذا يتمكنون من مغادرة البحر الأحمر في مطلع أو منتصف شهر مايو / أيار ويتجنبون أول لفحة من لفحات الرياح الموسمية الجنوبية الغربية. ويتم التخلص من القهوة التي أتوا بها إلى هنا. أما التي لا يحتاج السكان إلى استهلاكها في المدينة أو التي سيتم بيعها إلى البدو في الأقاليم المجاورة فيتم شحنها في مراكب صغيرة إلى البحرين والبصرة والأقسام الجنوبية من الخليج العربي وكانت التجارة مع البصرة فيما مضى من الزمن واسعة جداً، إذْ كانت سوريا تتزود

كلياً تقريباً من خلال هذا الطريق. أما استيراد القهوة من الهند الغربية إلى لبنان فقد حل محل استيرادها من المخا.

كانت تجارة القهوة في مسقط بأيدي الهندوس (البانيان) ويقال: إنها كانت تدر أرباحاً وفيرة. وتقدر عوائد صيد اللؤلؤ في الخليج العربي بأربعين لاك سنوياً. ويتم جلب ثلثي الإنتاج إلى هذا المكان بقوارب صغيرة ومن ثم تنقل إلى بومباي بوساطة السفن. وتصل الشحنات إلى (مسقط) مختومة ويطرح بعضها هناك. أما في (بومباي) فإن البارسيين هم الذين يشكلون غالبية المشترين الذين يقوم عدد كبير منهم بإرسالها إلى الصين.

ولا تصدر (مسقط) إلابعض المواد القليلة التي لا تفرض عليها أي رسوم. وأهم هذه المواد التمور التي تشحن إلى الهند حيث يكثر عليها الطلب لصناعة العرق الحكومي، أو تباع في مختلف الموانئ على ساحل جزيرة العرب، والصبغ الأحمر الذي يتمتع بقيمة كبيرة من الهند، وزعانف أسماك القرش التي تشحن إلى الصين حيث تستخدم لصنع الحساء ولأغراض أخرى، والسمك المملّح الذي يهواه كثيراً أبناء الطبقات الدنيا في الهند. وتكون العوائد الناجمة عن بيع هذه المواد إما ذهباً أو قهوة. وترسل كلّ عام إلى جزيرة فرنسا(*) أعداد من البغال من بلاد فارس وأعداد من الحمير من جزيرة البحرين.

(*) هي جزيرة موريشيوس في المحيط الهندي الواقعة شرقي جزيرة مدغشقر.

الفصل الثالث

مطرح

الثالث والعشرون من نوفمبر / تشرين الثاني: بعد أن حصلت من صاحب السمو في هذا الصباح على أحد الضباط لمرافقتي، انطلقت لزيارة ينابيع الإمام علي الحارة الواقعة قرب ساحل البحر على بُعد سبع ساعات غربي المدينة. وعلى الرغم من أن فصل الشتاء قد تقدم كثيراً إلا أن النهار كان شديد الحرارة والرطوبة. وعندما سرنا بقاربنا صوب (مطرح) كان المضيف هادئاً جداً على الرغم من النسيم العليل الذي كان يهب خارجه وكانت الحرارة التي تهب من جهة الجبال وعلى امتداد قدماتها التي كنا نسير بمحاذاتها لا تطاق. في هذه الأثناء كان البحر أملس، زجاجياً يعكس على سطحه التلال السود والقلاع البيض والبيوت والسفن على نحو جلي كأنه مرآة. ولم تكن هنالك إلا حركة صغيرة، من الأمواج غير المتكسرة التي تنساب بكسل وبطء داخل المضيق، تكفي لمساعدة الناظر في أن يقرر الأجسام الحقيقية أو الوهمية. كانت المدينة وسكانها تحت أشعة الشمس المتوهجة هادئة وساكنة. وربما كان في المستطاع مشاهدة قارب طويل ونحيل كأنه نقطة فوق السطح عندما يتربع فوق قمة إحدى الموجات في حين يجلس صياد سمك وحيد قرب المقود سعياً وراء مهنته الانعزالية في حين يحوم من حوله وينقض في بعض الأحيان لمشاركته «غنائمه المحرشفة» طائر البحر الضاحك وهو يطلق صرخته المدوية الثاقبة التي يمكن معرفتها حتى ولو من على مسافة بعيدة والتي اكتسب كنيته منها.

وعندما انحرفنا من حول الصخرة، شاهدنا قارباً هادئاً. وهنا سأقدم المشهد الذي بدا لي عندما وضعت خطواتي فوق ظهر القارب بأمل الحصول على بعض الرسائل. ليتصور القارئ قارباً مشوهاً ضخماً حمولته أربعمائة طن على الأقل له مقدمة بارزة طويلة ومقود مزخرف زخرفة دقيقة وسارية واحدة وشراع واحد طوله مائة وخمسين قدماً ويحتوي على قماش من القنب أكثر بكثير من ذلك الموجود في بحرية صاحب الجلالة. يبدو القارب

مزدحماً ببشر من كل لون ومن كل إقليم. فالفارسي يتميز بثيابه الفضفاضة الملونة، والعربي بعباءته الخشنة ذات الخطوط العريضة والبلوشي بشعره الطويل وثيابه البيض والأرمني الذي يرتدي ثوباً يشبه رداء الإفرنج، ويختلط بكل هؤلاء ويتدافع معهم بالمناكب الزنوج الأفارقة الذين لا يرتدون سوى قطعة قماش ممزقة يلفون بها وسطهم. ويؤلف هؤلاء الجزء الأكبر من الحشد الذي يصل عدده إلى مائة وخمسين فرد. ولأجل تشجيعهم وإمتاعهم، ومتى ما كان العمل مستمراً، يتم اختيار عشرة منهم للغناء للآخرين. ويقوم أحد الصبيان بقيادة الموسيقى بصوته الحاد فيرد عليه رفاقه بجرس عميق وترافق أصواتهم الموسيقى المنبعثة من العديد من الآلات الموسيقية والرقصات البدائية. كانت هذه الآلات فجة. فإحداها تشبه آلة الطبلة الهندية الصغيرة، والثانية، وهي أبسط منها تشبه الدف الأوروبي. ولاحظت أنهم في الوقت الذي لا تكون لديهم آلات موسيقية يستخدمون أواني الطبخ النحاسية. بالنسبة لأي شخص أوروبي لا يبدو خلط الأصوات ذا علاقة بالموسم يقابل هو من أبعد الأمور عنها. لكن هذه الأصوات كانت تبدو ذات أثر هائل في الأفارقة. فالأمارات المرتسمة على الوجه والتواء الأطراف والجسد والزعيق الذي يصاحب رقصاتهم والوقت الطويل الذي يستغرقه تمرينهم- الذي لا ينتهي إلا بسقوطهم أرضاً من شدة التعب- كلها تشير إلى تعاطف شديد مع تلك الأصوات الغريبة عنا.

هب نسيم عليل. وعندما مرت السفينة من إمام القلاع الشامخة على كلا الجانبين من المدخل، أطلق مدفعان نيرانهما فكان أثر ذلك رائعاً جداً مقارنة بالهدوء الذي كان يخيم على المكان. كان الصدى مقتصراً أول الأمر على الدوائر القريبة والداخلية من التلال وكان أعلى من صوت إطلاق المدفعين الأصلي وكان يسهل مقارنة الصدى بإطلاق العديد من المدافع النيران على نحو سريع وفوري. ولم يتلاشى الصدى عندما كان يمتزج بالأصداء الأخرى التي كانت تتردد في الجبال البعيدة، بل ظل كذلك حتى بدأ يخفت رويداً رويداً وانتهى إلى الصمت التام المطبق. حمل النسيم الدخان فوق التلال وسُلّطَ ضوءٌ ساطعٌ على السفن في الميناء حتى بدت الصواري وحبال الأشرعة والحبال القصيرة الكسولة مشعة تلقي نورها على التلال المظلمة التي كانت تشكل المضيق. ولكن وبسبب الطابع الفريد

لذلك المنظر، لم تَبْدُ لي ضآلة الأعمال الفنية التي أبدعها الإنسان أمام ما أبدعته الطبيعة، وبصورة مذهلة، مثلما بَدَتْ لي في هذه البقعة. فالفرقاطات العديدة وأحواض السفن والصواري الشامخة كانت تضيع أمام أول سلسلة من الهضاب والتلال الواطئة وغير المهمة.

وبعد الاستدارة من حول الرأس الذي كان يشكل أقصى الطرف الشمالي الغربي من المضيق، ندخل إلى خليج (مطرح) المجاور ونمر بمدينة جميلة تقع على إحدى الزوايا المنخفضة التي تشكل الملامح البارزة في المشهد في هذا الجزء من العالم. وفي المنطقة المحصورة بين البيوت وحافة البحر التي تشكل ما يشبه المتنزه الجميل أو منبسطاً من الأرض، ثمة حزام عريض من رمال ذات لون فاتح تمتد حتى الجروف العالية الكئيبة المطلة على كل طرف قصي من طرفي المدينة. يواجه المضيق النسائم الهابة وبسبب موقعه المكشوف لا يأتي إليه حالياً إلا القليل من السفن في بعض الأحيان، فلا وجود لقارب صيد أو أي نوع آخر وكان غياب هذه القوارب يضيف وحشة أخرى للمكان لكنها وحشة لا تخلو من جمال.

باتجاه مدينة (مطرح)، انتصبت أمامنا جزيرة صغيرة كانت جوانبها متشظية ومجزأة إلى قمم ذات أشكال غريبة تتربع عليها أبراج الحراسة تبدو لعين الناظر إليها صعوبة أن يضع المرء قدمه عليها. ومن فوق إحدى هذه القمم العالية، كانت مجموعة من الجنود العرب تنظر إلينا ونحن نمر من تحتهم في حين كانت بنادقهم ورماحهم الطويلة تتألق تحت أشعة الشمس.

إن (مطرح) عبارة عن مدينة لا بأس بها أو هي على وجه الدقة مجموعة كبيرة جداً من الأكواخ تقع في أقصى المضيق وترتادها في الغالب سفن الإمام، لكن قلما ترتادها سفن أخرى. وعلى الرغم من أن الطريق يبعد مسافة ميل واحد عن المدينة، ويخترق سلسلة من التلال، إلا أنه بالغ الوعورة، كما أن المواصلات بين المدينتين تتم بوساطة القوارب. ويقدر عدد سكانها بعشرين ألف نسمة ويعملون أساساً في حياكة الأقمشة أو العباءات الصوفية التي يرتديها الناس عامة في الجزيرة العربية. وقلما تجد كوخاً لا يحتوي على دولاب الغزل وأمامه تعمل بجد إحدى الإناث. وكانت وجوه النساء مكشوفة وتبدو ملامحهن منتظمة، وفي كثير من الأحيان، جميلة، إلا أن أثر هذا الجمال يضيع إلى حد ما بسبب صبغ البشرة بالحنّاء. إن

حرية تصرفاتهن، مقارنة بتلك الموجودة في المدن العربية، لا تقدم صورة مزيفة عن أخلاقهن.

زُوِّدنا بالإبل وبعد مسيرة ساعتين في أراض لا تثير الاهتمام البتة وصلنا قرية (روى) وكانت تحتوي على بعض البساتين وآبار الماء. مررنا بعدة قوافل للبدو كانوا ذاهبين إلى (مسقط) أو عائدين منها. كانت ملامحهم أكثر وسامة من ملامح أي عربي سبق أن قابلته، وعلى الرغم من أن قاماتهم كانت قصيرة إلا أنها متناسقة. أما شعرهم الذي كان طويلاً يصل الخصر فكان يضفي عليهم مظهراً مؤثراً جداً وشجاعاً وخاصة عند جلوسهم مع سيوفهم ودروعهم فوق إبلهم. كانت عيونهم سود، تفيض بالحيوية ومعبرة، أما أنوفهم فدقيقة الشكل مثل أفواههم، بينما كانت أسنانهم البيض تختلف اختلافاً شديداً عن أسنان عرب المدن. يظهر عليهم أنهم جنس من البشر يتصف بالمرح والفكاهة والحديث الطلق. هكذا بدوا لي عندما كنت راكباً وإياهم وهم يتحدثون عن بلادهم وسكانها. غير أنني وجت نفسي الآن وفيما بعد أواجه صعوبة في التفاهم بلا مترجم عندما أتحدث مع بدو (عُمان). كانت اللهجة المحلية التي أفادتني في أثناء حديثي مع القبائل على امتداد سواحل البحر الأحمر مفهومة. إلا أنها ليست كذلك في هذا المكان. ومع هذا، فقد اقتنعت بأن مثل هذا الأمر لا يحدث إلا للمرء الذي ليست لديه سوى معرفة سطحية باللغة لأن المرء الضليع باللغة لن يجد إلا صعوبة قليلة في التعبير عن نفسه في أي جزء من البلاد.

بعد غروب الشمس واصلنا سيرنا وبين الحين والحين كنا نصادف بعض البدو الذين تنحوا إلي جانب الطريق وجلسوا من حول إبلهم بعد أن أضرموا النار. ويبدو أنه كان مألوفاً في مثل هذه المصادفات إلاّ يلقي أحد بالتحية على الطرف الآخر وهو أمر مخالف تماماً لما يحدث في أثناء النهار حيث يتبادل الطرفان بضع جمل في أحاديثهم. وقبل ساعة من منتصف الليل، تناهى إلى أسماعنا أصوات نباح كلاب الرعاة مما يدل على أننا نوشك الوصول إلى إحدى القرى التي دخلناها بعد ذلك ببضع دقائق بعد أن اجتزنا العديد من الأزقة التي تحف بها الأشجار من كلا الجانبين وتتدلى فوق الطريق. ثم دخلنا مبنىً عظيماً شيد من أجل الرحالة. ولما كان الليل بارداً، فقد أشعل أدلائي النار وأعدوا طعاماً من الرز والسمك التهمناه التهاماً. لم أكن طيلة رحلاتي العديدة كثير الوساوس إزاء المكان الذي سأرتاح فيه

وقد سررت هذه الليلة سروراً كبيراً عندما شاهدني البدو الذين كانوا يتحلقون من حول النار، وقد لففت جسدي بعباءة واضطجعت فوق دكة انتصبت في الهواء الطلق في الحديقة بدلاً من النوم قرب النار كما هو شأنهم.

في وقت مبكر من صباح هذا اليوم زرت ينبوع الماء الذي كان هدف رحلتي. كان الماء يندفع بقوة كبيرة من فتحة أسفل تل من حجر الحديد. كانت عروق حجر الكوارتز بادية على الصخرة باتجاه قُطري. وكانت قطع كثيرة قد اقتلعت منها. وكان في وسعي ملاحظة وجود قليل من النحاس داخل الطبقات الصخرية، إلا أنه لم تكن هناك أي علامات تدل على وجود نشاط بركاني. وعلى مقربة من المكان الذي كان يتدفق منه الماء أُنشئ خزان مربع صغير الحجم لينعم بالراحة أولئك الذين يأتون لغرض الاستحمام. وكان ثمة محرار يشير إلى أن درجة الحرارة هي مائة وعشر درجات فهرنهايت، أقل بدرجتين من الحرارة قرب الصخرة. وبعد محاولات كثيرة، وجدت أن من الصعب عليّ أن أقرر إن كان لهذا الماء أي طعم أو رائحة خاصين. فكرت أول الأمر أنه مشوب بأملاح الحديد إلى حد ما، لكنني اعتقدت في لحظة أخرى أنه ليس أكثر من محلول مالح. إلا أنني في كلتي الحالتين لم أتمكن من إعطاء رأي جازم بذلك. وربما كان هذا هو السبب الذي جعلني أعتقد أنه يختلف اختلافاً قليلاً عن الماء الذي يمكن الحصول عليه من مناطق أخرى من البلاد. ويقول السكان هنا: إن هذا الماء ممتاز ولا يشربون غيره بعد أن يتركوه قليلاً في أوانٍ راشحة. ويبدو واضحاً أن حرارة الماء أو أي صفة أخرى قد يتصف بها يمكن أن تحول دون سقي النباتات المجاورة به. أما في علاج الأمراض الجلدية وغيرها من الأمراض المحلية، فإن لهذه المياه سمعة طيبة جداً وسط البدو وعرب المدن، حيث يقوم البدو برحلات طويلة شاقة قادمين من مسافات بعيدة في عمق البلاد إلى هذا المكان الذي قد يمكثون فيه بضعة أيام ليتمكنوا من الاستفادة من مائه. وعلى الرغم من أن درجة الحرارة كانت عالية، إلا أنني لاحظت العديد من المرضى وقد غطسوا في الماء لبعض الوقت. وشاهدت رجلاً مسناً في الثمانين من عمره وقد بلغ به الإعياء أشده بسبب هذا العلاج القاسي حتى بدا أنه يحتضر. لكن قيل لي أنه لو بقي على قيد الحياة، فإن العلاج سيتكرر بعد ساعتين اثنتين لأن السكان

المحليين يؤمنون بأنه إذا لم يحقق الماء الفائدة المرجوة منه، فسبب ذلك أن الماء لم يستخدم بما فيه الكفاية. وعلى مقربة من الحمّام كان ثمة جامع صغير يقيم فيه إمام عجوز على استعداد دوماً لمساعدة من يحتاج إلى أي مساعدة بالتضرع والصلوات.

بعد مغادرة الماء للخزان يتجه صوب حوض كبير قليل العمق حيث يرد قبل أن يترك ليصل إلى النباتات أو الأشجار حيث توجد الغدران الصغيرة الكثيرة التي تنقله إلى مختلف المناطق. إن الجزء الذي يرويه هذا الماء يشكل واجهة البحر أو أسفل التلال التي تمتد عبر سلسلة أخرى من تلال أعلى صوب عمق البلاد. لقد أشرقت تواً وكانت درجة الحرارة الواطئة في الصباح منعشة. أما البحر فقد بدا على مسافة أربعة أو خمسة أميال وقد أكتسب بريقاً وردياً مثلما اكتسبته أيضاً جزيرة بركاء الممتدة أمامنا. كان الأفق واضحاً كلُّ الوضوح أمامنا حتى أنني ملت إلى الظن أنني شاهدت الساحل الفارسي.

يبدو أن معظم الفواكه والخضراوات التي تزرع في بقية أرجاء (عُمان) موجودة هنا وتبدو الأشجار بحجمها ووفرتها مساوية لتلك الموجودة في الهند. كانت هذه البقعة بأيدي قبيلة صغيرة تدعى قبيلة (بني وهب) على مدى عصور طويلة. ولكن بسبب حرارة الجو العالية وخلال موسم الحصاد وصل العرب بأعداد كبيرة. وقد قيل لي إن سبعة آلاف أو ثمانية آلاف فرد استقروا في هذا المكان خلال ذلك الموسم الوفير وجلسوا تحت ظلال الأشجار وهم يقرأون آيات من القرآن الكريم أو يهجعون قليلاً طلباً للراحة وحصلوا بذلك على الملجأ والمأكل.

ارتفع مقياس المحرار ظُهرَ هذا اليوم حتى وصل إلى درجة تسع وأربعين في الظل، وعلى هذا الأساس يمكن تقدير درجة الحرارة في موسم الحر. ولكن ما إن تلاشى الشمس من وراء الجبال حتى تتحول هذه الحرارة الجافة إلى برد لاسع. ولا يرى السكان المحليين أي ضير في هذا التبدل المناخي ويرددون أن هذه البقعة هي من أكثر الأماكن الصحية في (عُمان) إلا أن ذلك التبدل أثبت أنه قاتل لفرد أو أكثر في كل مجموعة أوروبية تجرأت على زيارة هذا المكان.

الفصل الرابع
وصف لصور

الخامس والعشرون من نوفمبر / تشرين الثاني: بعد أن تم إعداد مركب لي، سافرت من (مسقط) إلى (صور) بارتياح كثير. فقد كان مناخها طيلة أيام السنة غير ملائم لبنية أجسام الأوروبيين وكان غير ملائم للصحة في تلك الفترة بالذات كما أن عدد الموتى الذين يقضون نحبهم كل يوم، حتى بين السكان المحليين، كان كبيراً جداً. فأحد المساكين الأوروبيين الذي هرب إلى هنا بعد أن نجا من أكثر من مائة خطر في أعقاب هزيمة الأتراك في مقاطعة (عسير) كان يحتضر في مركب كنت قد تركته، كما أن عدداً كبيراً من طاقم سفينة إنكليزية كانوا صرعى مرض خطير.

بعيداً عن ثغرة الشيطان، التي هي عبارة عن فتحة في سلسلة جبلية قريبة من ساحل البحر، واجهتنا ريح عاتية. وغمر المركب بكميات كبيرة من المياه وفي إحدى المرات بتنا في وضع حرج. واصلنا رحلتنا في جو عاصف وكانت الأمطار تهطل بغزارة بين حين وآخر، واتجهنا صوب (قلهات) التي رسونا على مقربة منها لبضع ساعات توجهت خلالها صوب الساحل لمعاينة الآثار.

إن (قلهات) مدينة قديمة جداً أتى على ذكرها العديد من المؤلفين العرب. تغطي بقاياها مساحة شاسعة من الأرض، لكن كان هناك مبنى واحد في حالة مقبولة وهو عبارة عن مسجد صغير بدا من خلال الكتابات المدونة على مختلف أجزائه بأن المسلمين الهنود كانوا يزورونه. كان القسم الداخلي منه مكسواً بالآجر المزجج متعدد الألوان ونقشت عليه آيات من القرآن الكريم. وإلى الجهة الشمالية من هذه الآثار توجد قرية صغيرة يعمل سكانها في صيد الأسماك وكذلك في الحفر وسط الآثار بحثاً عن النقود الذهبية حيث يعدُّ الذهب في مسقط من أكثر الأنواع نقاءً. ويحمل بعض تلك النقود اسم الخليفة هارون الرشيد.

غادرنا (قلهات) وكان النسيم عليلاً ووصلنا (صور) بعد غروب الشمس بقليل ورسونا في الميناء الداخلي الذي لا يبعد سوى بضع ياردات عن الساحل. كانت السلسلة الجبلية الممتدة من (مسقط) إلى هذا الميناء تقترب من البحر وشديدة الارتفاع. وكانت تسمى جبال (Syenne) و(Rackee) ويقطعها العديد من الوديان البعض منها يمتلئ بجداول ذات مياه عذبة. وعلى مقربة منها توجد بساتين النخيل. ولكن على الرغم من أن السهل مزروع، إلا أن التلال كانت تخلو من الأشجار وخضرة النباتات.

الثامن والعشرون من نوفمبر / تشرين الثاني: وجدت الشيخ في هذا الصباح ينتظر على الشاطئ لاستقبالي. وبعد تناول طعام الفطور معه وكان يتكون من التمر واللبن، سرنا صوب البلدة.

تقع بلدة صور وهي ميناء منطقة (جعلان) على شاطئ رملي واطئ يخلوا خلواً تاماً من النباتات والأشجار. إنها عبارة عن مجموعة كبيرة من الأكواخ شيدت على جانبي بحيرة عميقة وتقطنها قبائل مختلفة. وقد شيدت هذه الأكواخ باستخدام سعف النخيل، وكانت واسعة يتخللها الهواء الطلق. وكانت الشوارع نظيفة جداً مما جعل المظهر العام بهيجاً وجميلاً. ولا توجد حوانيت هنا، إذ يبعد السوق مسافة ميل ونصف عن الساحل حيث يقطن عدد لا بأس به من السكان. انطلقت من هناك بصحبة الشيخ الذي أُعلم بنبأ وصولي وشعرت بالامتنان لأن خيمتي نصبت في بقعة جميلة من القرية ووقف عليها الحرس واتخذت كل الاحتياطات اللازمة لحمايتي وحماية أمتعتي. وكان من المقرر أن أبقى في ذلك المكان حتى يتم تهيئة الجمال والأدلاء استعداداً للرحلة.

ثمة سوق يومي يقام في هذه البقعة تُباع فيه الحبوب والفاكهة والخضراوات. كانت البيوت صغيرة غير إنها متينة البناء شيدت بالحجارة والإسمنت. وكان يقطن أكبر هذه البيوت الهندوس وأناس من (cutch)(*) يحتكرون قسماً لا بأس به من التجارة. وفي القسم الغربي توجد قلعة كبيرة تتربع عليها بعض المدافع القديمة، بيد أن القلعة والمدافع كانت في

(*) كتش أو كوتش مدينة ساحلية في شمال غرب الهند.

حالة يرثي لها. كانت المناطق المحاذية لها مزروعة إلى حد كبير وكانت بساتين النخيل كثيرة وكثيفة. لكن أهالي البلدة كانوا يكرسون جل حياتهم للأغراض التجارية بالدرجة الأساس ولهذا كانوا يحظون بميناء جيد. وكانت لديهم مراكب وزوارق يبلغ عددها حوالي ثلاثمائة زورق من مختلف الأحجام تقوم بالأعمال التجارية، في المواسم الصافية، بين سواحل الهند وإفريقيا والخليج العربي وبحر العرب. والحقيقة أن صادراتها ووارداتها تافهة، فلا تتعدى الصادرات التمور والأسماك المملحة في حين تتمثل الواردات بالحبوب والأقمشة. إلا أن الأرباح الناجمة عن تبادل مختلف المنتجات التي ذكرتها تكفي لأعالتهم في الفترات العصيبة من السنة. وهم يعترفون بالسلطة لكنهم لا يدفعون أي ضريبة للسيد سعيد. ويسود الاعتقاد أن هذه البلدة موغلة في القدم ويقال أن الشاميين كانوا قد احتلوها.

الأول من ديسمبر / كانون الأول: انطلقت في صباح هذا اليوم الباكر بصحبة أحد الأدلاء متوجهاً إلى سلسلة الجبال الشمالية. ولما كان الطريق لا يصلح لسير الجياد، فقد لجأنا إلى استخدام الحمير التي أوصلتنا إلى قدمات التلال في بحر ساعتين ونصف الساعة. وعند تلك النقطة ترجلنا عن دوابنا وواصلنا طريقنا ونحن نسير على أقدامنا الواحد تلو الآخر. وبعد مرور ساعة من الإنهاك والتسلق في أماكن عديدة بدلاً من السير سيراً اعتيادياً توقفنا لاسترداد أنفاسنا قرب قرية صغيرة وبعد أن روينا ظمأنا قرب أحد الجداول العذبة التي كان يتدفق ماؤها وسط الوادي متجهاً إلى السهول الممتدة إلى الأسفل، انطلقنا في سيرنا ثانية. سرنا مسافة أربع ساعات، قطعنا في أثنائها العديد من الوديان الضيقة العميقة الوفيرة المياه التي تنتشر فيها أشجار النخيل والمساحات المزروعة. وأخيراً وصلنا إلى القمة. ولكن وراء المشهد الذي حصلنا عليه من البقاع المجاورة والجو البارد اللطيف، لم نحصل إلا على القليل ثمناً لمتاعبنا. فقد انتشرت الأراضي المستوية والصخور الكلسية وأسفرت عن وجهها الكالح والكئيب في كل الاتجاهات. وكانت بعض قطعان الأغنام والماعز تبحث عن كلأ شحيح في البقاع المجاورة. أما في هذه البقعة بالذات، فلم نعثر على آدمي واحد يكسر الصمت المطبق من حولنا.

وفي هذا المكان الذي يشكل الرأس، أو أقصى الطرف الجنوبي الشرقي من السلسلة

الجبلية المواجهة للبحر وحتى الوادي القريب من (قلهات)، كان الطريق الجبلي يطلق عليه اسم(فُتلة). وفي الوديان الضيقة الموجودة فيها، يقال أن هناك ستين قرية يقطنها حوالي ألف وخمسمائة نسمة يحملون كنية (بني خالد) و(بني داود). ويقطن حوالي ستمائة فرد من أبناء قبيلة بني خالد وادياً يحمل نفس الاسم يقع في الجنوب الغربي من الجبال ويتميز هذا الجانب بضيقه الشديد وانحداره حتى أن أحد جوانبه لا يمكن اجتيازه إلا باستخدام الحبال. ولا تعتمد هذه المنطقة على الجداول والغدران العديدة التي تزود العديد من الوديان بالماء لان الأمطار فيها أكثر من أي بقعة أخرى ولا سيما السهول لهذا تزرع فيها كميات كبيرة من الحبوب والفواكه. ويحصل شيخ (صور) على نسبة مقدارها واحد بالعشرة من إجمالي ناتج الأرض.

وبعد مسيرة مسافة قصيرة على امتداد هذه السلسلة، أحسسنا بوجود بعض رعاة الأغنام الذين لم يُظهروا بادئ ذي بدء أي علامة تدل على الدهشة لرؤيتهم إيانا. لكن دليلي تبادل وإياهم بضع كلمات بعثت في نفسهم الطمأنينة مما جعلهم يوجهون الدعوة لنا لتناول طعام الغداء المكون من الحليب والتمر. كانت ثمة صخرة كبيرة جداً تقف شامخة وسط السهل تقيهم من الريح التي كانت تهب بقوة. ولم أجد عند هذه المجموعة من الناس أي فرق يميزهم عن جيرانهم في السهول باستثناء أنهم أطول قامة وأكثر وسامة. ولما فرغنا من تناول وجبتنا أصرّ أصدقاؤنا الجدد على أن أزور أكواخهم. كانت الأكواخ تقع في وادٍ صغير قرب جدول ماء. وكانت دائرية الشكل شيدت جدرانها بالحجارة وسقوفها بالقصب الذي يتوفر بكميات كبيرة. إلا إن داخل هذه الأكواخ لم يكن فسيحاً ولا مريحاً. وما أن اتخذت مجلسي فوق جلود الحيوانات المفروشة على الأرض في أحد هذه الأكواخ حتى دخلت بعض الفتيات الشابات والجميلات وهن يحملن طاس كبيرة مليئة بالحليب. وللتعبير عن شكري لهن، رشفت رشفة كبيرة. لا. هذا لا يكفي. أهو رديء؟ جرب ثانية. وثانية. وعبثا حاولت رفع الطاس عالياً، إذْ لم يكن مسموحاً لي مقاومة شربه حتى أفرغ منه. وأقسمت بلحية النبي(*) بأنني لم اعد قادراً على شرب كمية أكبر. وعندئذٍ شعرن بالسرور والابتهاج

(*) لا يعرف هذا القسم عند المسلمين لكنه معروف ويستعمل حتى اليوم في اللغة الإنجليزية وبعض اللغات الأوروبية الأخرى.

وبتنا أصدقاء حميمين. وبعد أن قدمتُ بعض الهدايا والعبارات الجميلة استطعنا مغادرة المكان والحسرة بادية على الطرفين.

كان طريق عودتنا أكثر وعورة وانحداراً من ذلك الطريق الذي جئنا منه. ونتيجة لذلك لم أصل إلى قدمات الجبال إلا بعد مرور وقت على غروب الشمس. كانت الحمير قد اختفت، والليل حالك السواد يتخلله في بعض الأحيان سقوط المطر. وفقدنا طريقنا عدة مرات ولم نصل الخيمة إلا عند منتصف الليل تقريباً.

خلال إقامتي هناك استلمت الرسالة التالية الودية والمتميزة من سمو الإمام:

«بسم الله الرحمن الرحيم من سعيد بن سلطان إلى صاحب السيادة المحترم والمحبوب والمبجل النقيب (ولستد) من الحكومة الشرقية. السلام عليكم. بعد أن وصلتنا رسالتكم التي كانت دليل محبتكم لتذكركم إيانا، فقد فرحنا فرحاً لا يوصف لسماع نبأ وصولكم إلى (صور) وسفركم إلى (جعلان) حسب توجيهاتنا ومن هناك إلى (سمد) الأمر الذي بعث الرضا فيكم والبهجة فينا. علاوة على ذلك، فإن كل ما تحتاجون إليه سواء كان كثيراً أو قليلاً، فما عليكم إلا أن تطلبوه وما علينا إلا أن نمنحه. والسلام عليكم. المخلص سعيد بن سلطان».

الثاني من ديسمبر / كانون الأول: تم جمع الإبل والأدلاء في هذا الصباح وغادرت (سوق صور) حيث كنت قد لقيت من شيخها كل الاهتمام. وفي الساعة 12,30 من بعد الظهر كنا قد ابتعدنا عن أطراف القرية وأصبحنا داخل وادٍ غير عميق. كان قعر الوادي يتكون من حجر الكلس الذي انتشرت عليه بعض شجيرات الصمغ التي شقت طريقها بعنف كي تنمو دليلاً وحيداً على وجود الحياة النباتية. وكانت التلال الممتدة على كلا الجانبين ذات لون احمر فاتح أو صخور رملية صفراء ذات خطوط برتقالية أو بنفسجية هنا وهناك. وعلى الرغم من أن الأمطار الخفيفة تهطل في هذا المكان بين الحين والآخر في أشهر أكتوبر ونوفمبر وديسمبر، إلا أن السكان المحليين يقولون أن الأمطار الغزيرة المستمرة لا تهطل ألا مرة كل ثلاث سنوات، وأن قعر الوادي ينتفخ بجدول ماء سريع يتعذر على الجمال

عبوره. وفي حوالي الساعة الثانية وصلنا ممر(باب الرفصة) حيث يوجد برج صغير وقطعة من المدفعية. كان هذا المبنى وغيره من المباني الأخرى المشابهة قد شيدها الإمام لوقف انتهاكات الوهابيين. إلا أنها بدأت بالانهيار الآن. وكانت بعض جداول الماء العذب وبساتين النخيل تظهر بين هذه البقعة ونهاية الوادي التي وصلناها في الساعة السادسة مساءً. وهنا بدأنا نشق طريقنا فوق أرض منبسطة حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً حيث توقفنا قرب قرية صغيرة كانت الكلاب فيها تنبح نباحاً مستمراً وضارياً حتى أن أدلائي خافوا الاستمرار في التقدم على الرغم من حاجتهم إلى الطعام. كانت السماء صافية وباردة بينما كانت قطرات الندى تهمي من حولنا. نام البدو على شكل دائرة ووضعوا الأمتعة في الوسط.

الخميس، الثالث من ديسمبر / كانون الأول: كانت هناك ثلاث قرى قرب المكان الذي خيّمنا فيه، حميدة والكامل؛ والوافي. وتحتوي كل قرية على مائتي بيت تقريباً ولكل منها حصن صغير. وكانت الأراضي داخل الأسوار وخارجها مزروعة جيداً وتوفر بعض جداول الماء الجاري عبر هذه الأراضي العديد من وسائل الري. وأظهر السكان امتعاضاً شديداً عندما شاهدوني أُحدق في هذه الحقول لذلك تركتهم وانصرفت.

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف واصلنا سيرنا فوق سهل واسع كانت أرضه أما من الرمل اللين أو من الطين الصلب الذي يميل إلى اللون الأبيض. وكان السهل تغطيه الأعشاب. ومرّت من جانبنا بين الفينة والفينة مجموعات من البدو وهم في طريقهم إلى (صور) ولكن نظراً للخصومات القائمة الآن بين القبائل الرئيسية، فإنه قلما يمكن مشاهدة فرد لوحده وراء حدود القرى. كما أن مجموعتنا كانت تسير هي الأخرى بحذر بالغ. وما أن شاهدنا قافلة أخرى، حتى اجتمعت الإبل معاً، في حين شرع الأدلاء في أثناء اقترابنا أكثر فأكثر، بالتقدم وتبادل الحديث ومن ثم واصلنا سيرنا. إن السلطة التي اكتسبها (السيد سعيد) على هذه المنطقة عن طريق توزيع العطايا السخية على شيوخها اسمية أكثر منها فعلية. فالبدو يمارسون أعمال النهب والقتال ولا يتورعون عن قتل بعضهم بعضاً بحرية تامة كأنهم في الصحراء. وقلما مرّ يوم في أثناء مكوثي هناك دون أن أسمع بحدوث مثل هذه الأعمال. وفي الساعة الثالثة والنصف توقفنا وسط مضارب بدو قبيلة بني بو حسن، وكانت تتكون في

الغالب من الأكواخ التي شيدوها تحت بساتين النخيل على نحو يفتقر إلى الانتظام. وقضينا ثلاثة أرباع الساعة ونحن نجتازها من البداية وحتى النهاية. وما أن وصلت أنباء قدومنا حتى التف الناس من حولنا بأعداد غفيرة. كان فضولهم لا يحده حد وعبّروا عن دهشتهم لما شاهدوه منا بكل بهجة وفرحة فأخذوا يقفزون ويصرخون كأنهم أنصاف مجانين. وسرعان ما امتلأت خيمتي الصغيرة – على الرغم من وجود شيخهم ورغبته المتكررة في أن يرحلوا – وأحسست بالسعادة الحقيقية عندما اقتربت الشمس من الغروب وانصرفوا إلى بيوتهم.

يقدر عدد أفراد قبيلة (بني بو حسن) بألف ومائتي رجل باستثناء النساء والأطفال. إلا أنهم لا يملكون أكثر من سبعمائة بندقية. وفيما عدا رعايتهم بأشجار النخيل التي لا تأخذ إلا جزءاً يسيراً من وقتهم، فإنهم كانوا يقضون وقتهم دون عمل فتراهم باستمرار يتخاصمون أو يتنازعون أما فيما بينهم أو مع جيرانهم. ويبدو هؤلاء من حيث المظهر أكثر الناس الذين صادفتهم في حياتي وحشية وفظاظة. وهم يسيرون شبه عراة، شعرهم طويل حتى ليصل إلى منطقة الحزام.

بعد غروب الشمس لم أشاهد سوى الشيخ الذي جاء بمفرده لإقناعي بعدم زيارة بدو قبيلة بني بو علي الذين وصفهم بأنهم غير موالين للسيد سعيد وبأنهم يكرهون الإنكليز وبأنهم «شياطين تماماً» كما قال. لكن بما أنني كنت أعرف أن كلتا القبيلتين كانتا في حالة عداء واضح، فإنني لم أشأ أتباع نصيحته لذلك انصرف ببرود.

الحق أنني لست عديم المخاوف بشأن المعاملة التي سوف ألقاها من جيرانه. إلا أن أسبابي سوف تفهم عندما أوضح الظروف التي دفعت الإنكليز إلى الاصطدام بهم.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الخامس

قبيلة بني بو علي

تنحدر قبيلة (بني بو علي) في الأساس من منطقة صغيرة بنجد حيث يقال إن بعض أفرادها لا يزالون هناك. وقد رافقوا أولئك الذين انفصلوا عن جيش الإمام خلال النزاع مع معاوية حول الخلافة، وظلوا يؤمنون بمعتقدات الأباضية حتى غزو (عبد العزيز) سنة 1811 حيث اعتنقوا المذهب الوهابي. ومنذ تلك الفترة باتوا موضع حقد شديد من بقية القبائل في (عُمان). وبعد هزيمة (عبد العزيز) في (بدية)، كانت أفضل محاولاتهم تتمثل في الحيلولة دون أن يقضي عليهم أحد. لكن باستمرارهم في مسايرة أهل الرأي السائد، تمكنوا من بناء حصن منيع لهم وانقلبوا إلى معتدين نشروا الرعب والدمار في كل مكان من المناطق القريبة حتى باتوا قوة ضاربة وأصبحت لهم اليد الطولى دون منازع في الأراضي التي كانوا ينتشرون فيها وفي تلك القريبة منهم.

وفي فترة متأخرة، بذل الإمام محاولات كثيرة لانتزاعهم من مكانهم أو تدميرهم، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل، فما كان منه إلا أن طلب مساعدة النقيب (تومسون) سنة 1821، ولم تكن لدى هذا بعد سقوط (رأس الخيمة) في السنة السابقة إلا قوة صغيرة مؤلفة من ثمانمائة رجل من السباهيين(*) في جزيرة (قشم)[1]. وساد الانطباع عند ذلك الضابط بأن رهطاً من القبيلة يمارس أعمال القرصنة فما كان منه إلا أن أسرع بإرسال رسول يحمل رسالة احتجاج إليهم، إلا أنهم أردوه قتيلاً حال وصوله. وعندما وصل النبأ إلى النقيب (تومسون) لم يتردد في السير ومرافقة قوة أعدها الإمام للهجوم عليهم. وما أن وصل إلى (صور) حتى التقى الجمعان وتقدموا لمهاجمة بني بو علي الذين كانوا على بعد خمسين ميل، وذلك بخط مستقيم من منطقة نزولهم. انسحب البدو من أمامهم واحتلوا بساتين النخيل المحيطة

(*) SEPOYS هم جنود مجندون في خدمة بريطانيا من خلال حكومة شركة الهند.

(1) انظر تقرير القبطان (تومسون) المؤرخ في 18 نوفمبر سنة 1820، المجلة الآسيوية، المجلد 11، ص 593.

بالحصن. وبعد أن اجتاز جنودنا بني بو حسن وتقدموا سريعاً للالتفاف من حول أحد التلال، وكان الجزء الأعظم منهم يسير بخط موازٍ للأشجار، اندفعت القبيلة كلها على حين غرة من مخبئها وتعالى صراخ أفرادها الذين رموا بأنفسهم على القوة البريطانية. وقبل أن تتمكن القوة من تشكيل نفسها أو قبل صدور الأوامر، كان البدو قد أصبحوا في وسطهم ولم يتمكن السباهيون من استخدام حرابهم إذ سرعان ما بدأت سيوف أعدائهم الطويلة تحز رقابهم. وساد الهرج والمرج، ولم يُبْقِ هؤلاء على حياة أحد، حتى أن أحد الضباط قدّم سيفه رمزاً للاستسلام، لكن رمحاً اخترق ظهره في نفس اللحظة، كما أنهم سحبوا الطبيب الجراح الذي كان مريضاً من محفته وسرعان ما مزقوه إرباً. واضطرت القوة البريطانية إلى الانسحاب بعد أن تركت وراءها ثلثي أفرادها وقد لقوا مصرعهم فوق الحقل. وبعد مسيرة ثمانية أيام لم يحدث فيها شيء، نجح النقيب (تومسون) في الوصول إلى (مسقط)[1] برفقة ضابطين وحوالي مائة وخمسين رجل هم كل من بقي على قيد الحياة.

سرعان ما وصلت أنباء هذه المجزرة إلى بومباي فتشكلت قوة من ثلاثة آلاف رجل بقيادة (سير ليونيل سمث) وألقت رحالها في (عُمان)[2] إلا أن البدو الذين لم تكسر عزيمتهم الأعداد الكبيرة خططوا لهجوم ليلي بالاتفاق والتشاور مع بني جنبه. ولو نجح ذلك الهجوم لأصبح وضع القوة البريطانية في مأزق. عسكر القائد ورفاقه على بعد مسافة من الجيش واقترح البدو القضاء على القوة بأكملها. ولكن لم تكن الفئة الأخيرة في المكان المتفق عليه في الزمان المحدد أما بسبب خطأ أو خيانة مما جعل الطرف الأول يتقدم وحيداً. ولدى وصولهم إلى معسكر القائد قطعوا أوتار مربض عدد من الخيول وقاموا بأعمال تدمير أخرى إضافة إلى قتل بعض الرجال. ومن ثم لاذوا بالفرار دون أن يتكبدوا خسارة رجل واحد منهم.

---

(1) رافق الإمام وبقية أفراد جيشه جنودنا خلال مسيرتهم، وأنه لمن غير الأنصاف لشخصية هذا الأمير النبيل والشجاع أن أهمل ذكر بسالته النادرة في الثبات في موقعه حتى عندما جُرح، وقراره بالانسحاب إلى مكان لا يبعد كثيراً عن (بني بو حسن) عندما خذله القسم الكبير من جيشه.

(2) في يناير / كانون الثاني 1821.

عندما وصلت قوتنا تقريباً إلى الحصن، التقاهم العرب في السهل الواسع. لم يكن عددهم يتجاوز ثمانمائة رجل وكانت نساؤهم قد التحقن بهم وهجموا هجوماً قوياً كما هو شأنهم في السابق إلا أن الحرب كانت في انتظارهم. إلا أنهم رغم ذلك قاتلوا قتالاً عنيداً وشجاعاً ولم يتوقفوا عن القتال إلا بعد أن لقي غالبيتهم مصرعهم أو جرحوا جرحاً بليغاً[1] وكان من بين الذين جرحوا شيخهم الذي اقتيد أسيراً إلى (بومباي) مع بعض الناجين الآخرين. وبعد سجنهم هناك مدة سنتين تقريباً أطلق سراحهم ولقوا الكثير من الاهتمام، حيث أرسلوا إلى بلادهم محملين بالهدايا والمال لإعادة بناء بلدتهم. ولكن منذ تلك الهزيمة لم يدخل أي أوروبي أراضيهم.

بعد أن لاحظت شمس الظهيرة، وصلت بعد ساعتين إلى مضارب (بني بو علي). فلحق بي جمع غفير حتى توقفت وعندئذٍ انضم إليّ شيخ شاب مع وجهاء القبيلة. وما أن أخبرتهم بأنني إنكليزي وعبرت عن رغبتي في قضاء بضعة أيام وإياهم حتى ساد الفرح أرجاء المخيم. وأطلقت المدافع القليلة نيرانها من مختلف الأبراج ومعها نيران البنادق حتى غروب الشمس. وحاول كل فرد بمن فيهم الشباب والشيوخ والنساء والرجال بذل كل في وسعه لإثارة متعتي. فنصبوا خيمتي وذبحوا الخراف واحضروا جالونات من الحليب. إن استقبالاً وضيافة بمثل هذه الحرارة أثارا دهشتي كثيراً.

كانت أمامنا تقبع أثار الحصن الذي دمرناه. ونصبت خيمتي في نفس المكان الذي قضينا فيه تقريباً على القبيلة التي باتت في حالة بائسة بعد أن كانت أقوى قبائل (عُمان). لقد طويت صفحة الماضي بعد أن أظهرت ثقتي بهم ورميت بنفسي في أحضانهم. ظل بدو هذه المنطقة والمناطق المجاورة لا يختلطون بأي من الغرباء على الرغم من قربهم من ساحل البحر فلم يتزاوجوا أو يختلطوا بهم. لهذا ثمة سبب يدعو إلى الاعتقاد بأنهم كانوا يحتفظون ببساطة القبائل التي تسكن في الداخل ونقائها على نحو بالغ.

ومما يؤسف له أننا لا نعرف إلا القدر اليسير عن طبيعة البدو الحقيقيين وعاداتهم. فالبدو

(1) في مارس / آذار 1821، المجلة الآسيوية، المجلد 12، ص 364.

الذين يعيشون على حدود سوريا وبلاد ما بين النهرين أفسدتهم علاقاتهم بالأتراك وغيرهم من الشعوب. وينطبق الشيء نفسه على تلك الأجزاء من الحجاز واليمن التي زارها رحالتنا. وكان (بركهاردت) واعياً بذلك الأمر وفكر في القيام بشيء ما للتعويض عن هذا النقص، إلا أن مرضه حال بينه وبين تحقيق ذلك وإلا لكان قد أمضى بضعة أشهر في الأقاليم الداخلية وهو ما كان يرمي إليه. لهذا السبب، فإن هدفي كان في هذه المرة وفي المرات القادمة القيام بشيء لتحقيق هذه الأمنية في نفس الوقت الذي أسجّل فيه ما يقع تحت أنظاري في أثناء زيارتي وإقامتي وسط هذه القبائل.

بعد صلاة العشاء، جاءني الشيخ الشاب إلى الخيمة وبصحبته قرابة أربعين رجلاً وأعلن عن رغبته في أن يبقى معي حارساً طيلة الليل. لقد كان مجرد أن أطلب من المجموعة كلها الدخول من الأمور المستحيلة وإن دعوت بعضهم للدخول لترك ذلك أثراً غير طيب في نفوس الآخرين. لهذا السبب أخرجت سجادتي من الخيمة ووضعتها وسطهم. كانت ليلة من الليالي الجميلة الصافية التي لا يمكن مشاهدتها إلا في الصحراء. فقد كان الجو بارداً قليلاً وسرعان ما بدأنا نتجاذب أطراف الحديث الودي. لم يكن هؤلاء البدو ليجهلون كل الجهل عاداتنا، فقد جمعوا بعض المعلومات بهذا الخصوص من الرجال الذين وقعوا في الأسر إبان الحرب في الهند. إلا أن قصصهم كانت أمّا محدودة أو مبالغاً فيها مما يثير مشاعر الفضول أكثر مما يقلل منها. وكانت طبيعة ديانتنا وطقوسها موضع استفسارهم الأول وطالبوني بأن أوضح لهم رأيي بفضائلها مقارنة بالدين الإسلامي. وعلى وجه العموم، فإن من البديهيات الحسنة أن تترك نفسك مدحوراً ظاهرياً في الأمور اللاهوتية. إلا أنني لم أتمكن بادئ الأمر من مقاومة الإغراء الذي لازمني بأن أوجه الحديث نحو مواطن الضعف في عقيدتهم وتوضيح الحجج التي يمكن استخدامها ضدهم.إلا أنهم لم يظهروا إلا القليل من التعصب والانحياز في هذه النقاط مما دفعني إلى الندم عما قمت به، ولتسوية الأمر، أبديت موافقتي على وجهة نظر أحد وجهائهم عندما قال إن كل ديانة تناسب جيداً البلد والناس الذين يؤمنون بها.

من هنا اتجه الحديث صوب نسائنا. واستفسروا إن كانت النساء الموسرات والأصيلات

يرقصن فعلاً أمام الناس ويخرجن دون حجاب. وظنوا أنهم أفلحوا في إحراجي وراحوا يضحكون بخبث في انتظار إجابتي. اعترفت لهم بصحة ذلك ولكني أخبرتهم أيضاً أننا لا نعتبر ذلك من قلة الاحتشام، كما هو شأنهم. وقلت إن نساءنا لسن في عزلة البتة وإنهن يتلقين علماً جيداً ومفيداً ويتمتعن بالحرية نفسها التي يتمتع بها الجنس الآخر. وأننا وجدنا فائدة في ذلك لأن النساء أصبحن بذلك رفيقات ولسن مجرد هدف لتحقيق رغبة جنسية. وهنا لم احصل على تأييد أي فرد منهم.

وقالوا: «اتركوا النساء للعمل والقيام بالواجبات البيتية، لكن ما فائدة القراءة والكتابة اللتين لا تفيدان إلا الملالي؟» وقال أحد الوجهاء الكبار في السن: «النساء للأعمال التسوية والرجال لسيوفهم». كانت لحيته بيضاء وكان على ما يبدو يردد مثلاً سائراً كرره جميع الحاضرين. كنت أتمنى لو أن بعض نسائهم يصغين للحديث فلربما أبْدَيْنَ رأيهن بنغمة مخالفة.

تتمتع النساء في هذه القبيلة بقدر كبير من التأثير في كل المجالس وفي حالة غياب الشيخ، الذي سافر لأداء فريضة الحج في مكة المكرمة، تتولى زوجته وشقيقته، في هذه اللحظة، مقاليد الحكم في القبيلة. وكانت ملاحظاتهن عن بعض عاداتنا مثيرة للاهتمام جداً. كن يقلن: «لاحظنا إنكم عندما تجلسون إلى المائدة، فإن أمام كل رجل قدح صغير وآخر كبير. لماذا تستخدمون القدح الصغير غالباً بينما يجنبكم ملء القدح الكبير الكثير من العناء وعندئذٍ في وسعكم أن تشربوا منه على الفور؟ لماذا نرسل السيدات بعيداً عنا قبل الفراغ من شرب الخمرة ثم ننهض عندما يغادرن المكان؟».

ظل أحد العبيد يدق القهوة منذ اللحظة التي وصلنا فيها المكان. وفي مثل هذه المناسبات يُعمد إلى الدق بأن تضرب يد الهاون جوانب الهاون وقعره على نحو يماثل قرع الأجراس. وعادة ما يقوم العبد بالغناء في أثناء ذلك. وواصلنا الحديث وشرب الرجال قهوتهم حال وصولها ولم نفترق حتى ساعة متأخرة جداً[1].

(1) كان لدي بعض السيجار لكنني كنت أعرف نُخوة تلك الطائفة للتبغ لذلك امتنعت عن إخراج السيجار وتدخينه. إلا أن البدو اكتشفوا على نحو ما أنني أملك مثل هذا السيجار فأصروا على أن أدخنه. ولكي أتجنب إلحاحهم عمدت إلى التدخين.

السبت، الخامس من ديسمبر / كانون الأول: عندما استيقظت في هذا الصباح وجدت رجلاً ينحني إلى جواري وبيده طاس من الحليب. شربت الحليب ثم خرجت مع مرافقي وأخذنا نسير فوق السهل حيث كان البريطانيون قد أقاموا مخيمهم وزرت المكان الذي اندحر فيه النقيب (تومسون). لكن آثار تلك المواجهة العنيفة كانت قد اختفت تماماً. أشار مرافقي بوجود بعض القبور، ولكن لم يكن هناك أي «شاهد عليها» يفيد إن كان الموتى من فريق المنتصرين أم من فريق المهزومين. وربما كان من المفيد الملاحظة بأن أجساد الذين لقوا مصرعهم في الهجوم الأول كانوا مستلقين على الرمال دون أن يلمسهم الدود ولا يظهر عليها أي تفسخ مما يدل على شدة نقاء وجفاف المناخ بتلك المنطقة(*).

لم يظهر البدو أي امتعاض من ذكر الحرب. وتحدثوا عن هزيمتهم وخسائرهم حديثاً لا يخلو من الفكاهة. وكانت ملاحظاتهم تنم عن نفس الفكاهة وهم يتحدثون عن الإنكليز خلال إقامتهم في (جعلان)، وانتقدوا انتقاداً شديداً أسلوب هجومهم وأسلحة الجنود وتجهيزاتهم. إن العربي الذي يدخل الحرب دون أن يكون معه أكثر من ناقته يستطيع التقدم أو التراجع معها ولا يحمل شيئاً سوى سلاحه وحقيبة صغيرة من العجين وقربة ماء، لهذا فإن كمية الأمتعة التي يحملها جنودنا لا بد أن تثير دهشتهم. إلا أن الشيء الذي أثار دهشتهم أكثر من أي شيء آخر هو أننا نحمل معنا براميل الكحول للرجال. هذه الحادثة يتردد ذكرها كثيراً في عُمان.

(*) يصعب تصديق رواية المؤلف هذه بعض مضي نحو 14 عاماً من الحادثة.

الفصل السادس

مضارب بني بو علي

توجهت وقت الظهيرة بمرافقة سلطان، ابن شيخ القبيلة، لزيارة زوجة الشيخ العجوز وشقيقته، وكان الشيخ غائباً آنذاك بسبب ذهابه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. اجتزنا فناءً قذراً تحتشد فيه قطعان الحيوانات ودخلنا منزلاً صغيراً بعد أن ارتقينا درجة عند مدخله. كانت هذه الدرجة بمثابة حاجز يحول دون المتطفلين، إلا أنها كانت غير كافية كما يبدو، لأن العديدين تمكنوا من القفز من فوقها ولكنهم طردوا حال وصولنا. لقد وجد بدو الصحراء أن من الضروري الإبقاء على قطعانهم قريبة منهم لأسباب أمنية. ولما كان هؤلاء آخر من يترك عاداته من الناس في العالم، فإن الشيء نفسه يفعلونه عندما يكونون في المدن. قبل بضعة أشهر، وعندما احتلت قبيلة عسير (Mocha) (المخا)، فإنها أبقت على أغنامها معها في الأجزاء العليا من بيوت شاهقة في تلك البلدة. استقبلتني السيدتان وهما جالستان فوق دكة ترتفع حوالي قدمين عن سطح الأرض وكانتا مبرقعتين من قمة الرأس حتى أخمص القدمين، ولم يكن في المستطاع رؤية إصبع واحدة طيلة المقابلة. ولكن تعويضاً عن خيبة الأمل هذه، بقيت في الحجرة بعض الفتيات الحبشيات للسهر على خدمتهن وكن في غاية الجمال. وعبرت السيدتان عن بالغ سرورهما لأنهن قابلن أخيراً رجلاً إنكليزياً. إلا أنهما تحدثتا عن (السيد سعيد) بازدراء ولم تخفيا رغبتهما في التخلي عن الرابطة الواهية التي تربطهما به الآن. وقالتا: «إن ما نريده هو حماية الإنكليز لنا. وإذا ما وفرت حكومتك لنا ذلك، ورغبت بعد ذلك بأن يكون لها ميناء على الساحل، تستطيع من خلاله القيام بالتجارة مع (عُمان)، وبقية البلاد، فإننا على استعداد لتوفير ذلك بكل سرور». وعندما ازدادت ثرثرتهما، وجدت صعوبة في منعهما من إرسال من يأتي ببقية أفراد القبيلة من الجبال.

أُشيرَ عليّ أن أنظر إلى مجموعة من الخيام وبعض الحاجيات الأخرى التي أرسلتها حكومتنا هدية لهم. على الرغم من إننا قد نضمر الآن عاطفة مغايرة إزاء هجومنا الأول على

هؤلاء الناس، وبات معروفا أن عضواً من أعضاء الحكومة رفيع المستوى يضمر حقاً مثل هذه العاطفة، فإن المسألة برمتها غدت تناسب ذوق البدوي فلم أسمع في هذا المكان ولا في غيره سوى كيل المديح للإنكليز. وقالت السيدتان: «لقد قاتلنا، ومن جانبكم قمتم بتعويضنا كلياً عن أولئك الذين لقوا مصرعهم، ولهذا ينبغي لنا أن نصبح أصدقاء الآن». إلا أنهما لم تغفرا البتة للسيد سعيد.

بدأ إعداد وجبة طعام مؤلفة من لحم الإبل، وأحد الخراف، وأطباق كبيرة من الأرز. وسرعان ما قُدم الطعام فانسحبت السيدتان تاركتين (سلطان) بمفرده معي لتناول الطعام. ولدى رجوعي إلى الخيمة، وجدت هناك القبيلة كلها، بني بو علي، وقوامها مائتي وخمسين رجلاً، تجمعوا لأداء رقصة الحرب. كانوا قد شكلوا حلقة ودخل فيها خمسة أو ستة رجال منهم. وبعد أن ساروا قليلاً على مهل، تحدى كل واحد منهم الواقفين بأن مسّه مساً خفيفاً بسيفه. وسرعان ما يتقدم الخصم وتبدأ معركة وهمية. ولم يصب الاثنان إلا بجرحين، الأول في الرأس والثاني في الساق. ولا يتفادى الخصمان الضربات بالسيف أو الدرع بل بالقفز أو التراجع إلى وراء. يبلغ طول نصل السيف ثلاثة أقدام، وهو سيف مستقيم ورفيع ذو حافتين مزدوجتين وحاد كالموسى. وعندما يحملون السيف منتصباً أمامهم، فإن حركة مدهشة من رسغهم تجعله يهتز على نحو مثير له أبلغ الأثر عندما يكونون مجتمعين بأعداد كبيرة. ويرتبط الدرع بالسيف بوساطة سير جلدي، ويبلغ قطره حوالي أربع عشرة بوصة وفائدته تفادي ضربة الرمح. وكان من مكملات اللهو إطلاق النار من البنادق صوب ساقي أحد المتفرجين الذي يبدو مهتماً بمشاهدة اللعبة فلا ينتبه لاقترابهم، وإذا ما بدرت من هذا الشخص أي إشارة تدل على خوفه دون أن يدري يزداد فرحهم. وكانت موسيقاهم الوحيدة تتكون من طبل صغير يضرب عليه أحد العبيد.

وبعد ممارسة مهارتهم في إطلاق النار صوب أحد الأهداف يبدأون بالتفرق. ومع حلول المساء، يبدأ عدد كبير من أفراد قبيلة (جنبه) بالتوافد، وتبدأ ناقتان من عندهم بالسباق مع ناقتين من (بني بو علي). ولما لم أكن قد شاهدت من قبل في حياتي سباقاً للإبل، فقد شعرت بسعادة كبيرة وأنا أشاهد ذلك. كانوا يمتطون الإبل ويمسكون باللجام إلا أن الحيوانات لم

تكن على ما يبدو مهتمة بالرياضة مع أسيادها لأنها لم تنطلق إلا بعد مشقة كبيرة وأصبح بعد ذلك من المتعذر اللحاق بها. كانت سرعتها القصوى غير كبيرة، وربما كانت تصل إلى أقل من سرعة الجواد بمقدار الثلث. وإذا ما تم حثها للركض بسرعة أكبر، فإن الحيوانات تبدو في منتهى الارتباك.

وجدت الشيخ الذي يرافق الجماعة شخصاً ذكياً ومرحاً فاقترحت عليه أن أقوم بجولة في منطقته لبضع أيام. وبعد أن أستفسر عن دوافعي من وراء ذلك، واكتشف أن السبب لا يعدو العيش معهم في تلك الفترة، وافق من أعماق قلبه. وعند حلول المساء، زارني، كما هو مألوف، جمع غفير، واشتركنا في غناء بدوي.

السادس من ديسمبر / كانون الأول: وجدت الشيخ وجماعته التي يصل عددها إلى خمسين شخص قد اعتلوا جميعاً ظهور الإبل، كانوا في ذلك الصباح على أهبة الاستعداد للبدء بالتجوال وسرعان ما ابتعدنا عن ضواحي المدينة وبتنا نقطع الصحراء. كان الهواء بارداً ونقياً، والشمس عالية إلى الحد الذي ترسل فيه دفئاً مقبولاً، في حين أضفت حركات أصدقائي البدو ومظهرهم القوي إثارة جديدة فيّ، حتى أن وحشة المكان الشديدة أثارت بهجة أكبر. كنا نقطع تلك الأراضي المقفرة والموحشة التي لا حد لها والتي كانت بالرغم من خلوها من الأشجار والجبال والمياه أو أي ملامح أخرى تشترك بها مع الأقاليم الأخرى الأكثر مدعاة لراحة النظر، ذات صفات بسيطة كانت المنطقة الجرداء الشاسعة قد ذكرتني بالمحيط الذي لم يطرقه أحد وأثارت في نفسي شعوراً بالسمو. وكانت ملامح رفيقي تناسب تماماً صفات بلاده الغريبة. وكان شكله القوي وأطرافه النظيفة المحكمة يكشف عنها رداؤه الخفيف، بينما أضاء شعاع عينيه اللتين يلوح منهما العزم والتصميم ملامحه الذكناء الضاربة إلى الحمرة. وكان سلوكه نزيهاً وصريحاً في حين دل مظهره الخارجي كله على ازدرائه الرجولي بالشدائد.

قال الشيخ: «لقد رغبتَ في مشاهدة بلاد البدو؛ هذه هي». ثم أردف وهو يضرب رمحه في الرمال الصلبة: «هذه هي بلاد البدو». لم يكن الشيخ ولا أي من رفاقه يرتدون سوى مئزر صغير لف حول وسطهم، في حين بدت بقية أجسادهم عارية. أما شعرهم الذي

تركوه ينمو ليصل إلى خواصرهم وأشبعوه بالمادة الدهنية، فكان يقيهم إلى حد ما حرارة الشمس الشديدة. ولم يستخدموا أي غطاء آخر. بعد مغادرتنا البلدة ظلوا يلازمون بعضهم بعضاً، أما الآن فقد باتوا يتحركون في جميع الاتجاهات يطارد أحدهم الآخر بصرخات مدوية عبر الحقول. واصلنا تقدمنا على هذا النحو فوق أرض مستوية، تقطعها آثار تيارات ماء عديدة، حوالي أربع ساعات بعدها عبرنا سلسلة ضيقة وواطئة من تلال كلسية. وفي غضون ساعتين أصبحنا وسط بعض الهضاب التي نمت فيها بكثرة أشجار الصمغ العربي. ولا يتم إلا جمع القليل من هذه المادة في هذا المكان لأن البدو تذمروا من أن سعره في مسقط لا يوازي عناء جمعه. وفي الساعة الرابعة والنصف توقفنا قرب بعض آبار الماء المالحة قليلاً. كان طريقنا يتجه حتى الآن صوب الجنوب والجنوب الغربي وقطعنا منها اثنين وأربعين ميلاً. كانت هناك مجموعة من السكان المحليين انضموا إلينا حال توقفنا فأرسلوا لجلب الرز والتمور. في هذه الأثناء أضرمنا النار تحت شجرة ضخمة. وانتظرنا عودتهم لطبخ الطعام وعند رجوعهم بدأ أعداد الطعام بعد أن تأخروا حتى غروب الشمس. كان الطعام شهياً جداً. لم يكن عندي خادم ولا أمتعة وكنت أفكّر بأن تحقيق أهداف رحلتي، وأنا بينهم حتى لوقت قصير، إنما يكون بمسايرتهم في أسلوب معيشتهم. ولم تُخيب النتائج ظنوني. فوسط هذه القبائل كلها ثمة سحر موروث تكون فيها تفاصيل الحروب والغزوات التي يشتركون فيها والتي أشترك فيها أجدادهم جزءاً مثيراً وجذاباً جداً. كما تذكر مآثر جواد أو جمل أثير بنفس الدرجة من الحماس. جلست أحتسي القهوة وأصغي لسردهم هذه الحكايات حتى ساعة متأخرة جداً. وفي أثناء الليل ظلت بعض كلاب الحراسة ساهرة حول المخيم[1].

(1) لا يزال البدوي يحتفظ بحب جياش للغناء، وهو مما يتميز به أهله. وسواء أكان العربي يرعى القطيع أو يزجي الوقت في رحلة مملة أو يجلس حول النار بعد تناوله طعامه وشرابه في المساء، فإنه يطلق دوماً عقيرته بالغناء ويكون موضوعه إما الحب أو الحرب. وغالباً ما كنت أصغي تحت ظلال نخلة ما لإحدى هذه الأغنيات مسلياً نفسي ساعات طويلة. ولا يصاحب هذا الغناء إلا ربابة. وعلى الرغم من أن لا شيء أكثر من هذا يمكن أن يكون بعيداً كل البعد عن فكرتنا عن الغناء، إلا أن عواطفهم وتعبيرهم تناسب المشهد الذي يصفونه إلى حد يثير الإعجاب، كما أن ذلك يعبر تعبيراً دقيقاً عن الطبيعة الغريبة التي تتميز بها أذهانهم. وتتميز موسيقاهم بالجمع بين ما هو خشن وفظ في حين أن حركاتهم بطيئة ورزينة وفي أحيان أخرى مفعمة بالحيوية والنشاط. ويظهرون الوقار والتفكير الحزين تارة بينما يتقافزون غالباً ويشكلون جوقة تصدح بأعلى الأصوات تارة أخرى. ولم أعثر على أسلوب أكيد لإثارة المشاعر الودية تجاهي، عندما أكون وسط هؤلاء القوم الذين يتصفون بالخشونة، إلا الإصغاء بكل اهتمام لما يؤدون.

الأحد، السابع من ديسمبر / كانون الأول: مع اقتراب الليل من منتصفه بدأت الأمطار تهطل بغزارة واستمرت دون انقطاع حتى الفجر. كان الجو شديد البرودة، قارصاً، ولما لم نتمكن من الحصول على أي مأوى، فقد تبللنا كلياً. فرح البدو بذلك فرحاً لا حد له لأنهم باتوا واثقين الآن بأن الكلأ سيتوفر لبعض الوقت. وفي ضوء النهار بدأنا نقفز ونتسابق لتخليص أطرافنا من خدرها حتى تذكرت لعبة قفز الضفدع الإنكليزية. كان هذا التحول كبيراً بالنسبة للبدو، حتى أعلن عن إحضار طعام الفطور المؤلف من التمر والحليب. وبعد الفطور جمعنا حوائجنا وواصلنا رحلتنا. وفي الساعة الثامنة صباحاً، واصلنا سيرنا صوب الغرب والجنوب الغربي وسط هضاب رملية كما فعلنا يوم أمس. وفي الساعة الرابعة عصراً وصلنا إلى مخيم صغير تقيم فيه زوجتا الشيخ. وبعد وقت قصير أرسلت السيدتان في طلبي ووجدتهما في كوخ صغير قمعي الشكل مشيد بالأعمدة ومشدود من الأقسام العليا بحبال جلدية ومغطى بالجلود. كان الكوخ صغيراً جداً بحيث يكفي لملء مساحته وجود شخصين يستلقيان على أرضيته، كانت السيدتان تجلسان فوق سجادة قديمة جداً قرب نار دافئة وطلبتا مني الجلوس بينهما. كانتا غير مبرقعتين وسرعان ما انطلقتا في الحديث بحرية معي. وبعد أن أجبتُ عن مائة سؤال عن الإنكليز وعن بلادها، قُدمت القهوة والحليب. قدموا الحليب في طاس صُنع من غلاف ثمرة جوز الهند. وكان هذا الغلاف محبوكاً حبكاً لا يسمح بتسرب الحليب منه. لم يكن هناك أي أثاث في الكوخ سوى بعض الجلود لحفظ التمور أو قرب الماء، علاوة على إبريق فخاري لإعداد القهوة ووعاءين أو ثلاثة أوعية نحاسية للرز وبعض الحصران الممزقة والجلود التي ينامون عليها. ثمة كومة من سمك مملح في أحد أركان الكوخ. وبعد أن قدمتُ لهما بعض الهدايا التي فرحتا بها فرحاً شديداً استأذنت بالانصراف وخرجت مع الشيخ بحثاً عن أنواع من النباتات وقد وجدتها تنتشر بكثرة. لاحظت هنا وفي أجزاء أخرى من جزيرة العرب أن الأشجار الظليلة تكون التربة تحتها مباشرة وأنها تكون رطبة حتى في أشد الأجواء جفافاً مما يجعل القطعان ترعى فيها بِنَهَم. وربما كان مرد هذا بعض الصفات الغريبة التي تتمتع بها أوراقها وتتمثل في خزن قطرات الندى المتساقط التي تكون في الصحراء أكثر منها في أي مكان آخر، لأنني لاحظت

غالباً في الصباح أن أشجار السمر مقعرة وفيها قطرة أو قطرتان من الندى. وفي الوقت الذي تحمى فيه الشمس تأثيرها، تبقى هذه على شكلها الطبيعي ويتم خزن الرطوبة في التربة. وتحت ظلال هذه الأشجار تستمد نباتات أخرى تنمو بعد هطول الأمطار غذائها منها وبعد ذلك بوقت قصير تبدو جافة وذابلة. ومع هذا، فإن مما يثير الدهشة نمو النباتات الغضة جداً في مثل هذه المناطق التي تتعرض لأشعة الشمس القاسية.

إن بني (جنبة) عبارة عن قوم منتشرين يقدر عدد أفرادهم بحوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل يحتل القسم الأعظم منهم في الأراضي الواقعة جنوباً من (بني بو علي) وحتى رأس أصيله، إلا أن هناك العديد من الأسر التي تحيا حياة اختلاط مع البدو الآخرين في الأراضي القفر المحصورة بين الصحراء الكبرى وحتى المنطقة الغربية وكذلك في واحة (عُمان) مع بعض البدو الذين يعيشون مع شيخهم في بلد صور. ويلجأ الأفراد إلى هذا الشيخ لفض كل منازعاتهم ويكون مسؤولاً أمام الإمام عن سلوك القبيلة العام. ولأبناء قبيلة (بني جنبة) بعض الخصائص الغريبة التي تجعلهم، إلى حد ما، يختلفون عن غيرهم من البدو ورغم أنّ أعدادهم، كما لاحظت، ليست كبيرة إلا أنهم ينتشرون فوق مساحة شاسعة من البلاد وأنهم ينقسمون إلى قسمين: أولئك الذين يعيشون على صيد الأسماك والذين يعملون في الرعي. وسننظر أولاً في القسم الأول.

من الحقائق المدهشة وجود أعراق في كل بقعة من بقاع ساحل الجزيرة العربية، وحتى على امتداد السواحل الشمالية الشرقية للهند وماكراو. وفي بعض المناطق، على سبيل المثال، تلك الواقعة إلى الشمال من جدة في البحر الأحمر، يُنظر إليها كعرقٍ منفصل ومُنحط لا يتناول البدو طعامهم وإياهم ولا يتزاوجون أو يرتبطون فيما بينهم، ولكن مع هذه القبيلة وبعض القبائل الأخرى، لا يوجد مثل هذا التمييز. فالساحل كله تنتشر فيه الأسماك، ولما كان الأهالي لا يملكون إلا القليل من القوارب الصغيرة، فإنهم يستعيضون عنها بالفلك المصنوع من القِربْ المنفوخة قربة واحدة أو اثنتان توضع فوقهما قطعة من لوح خشبي. ويجلس صياد السمك على هذا الفلك الهش فيرمي بشبكته الصغيرة أو يصطاد بالصنارة. ولابد من ظهور تسلية بين الفينة والفينة عندما تلتهم الطعم أسماك القرش الكبيرة التي تنتشر

بكثرة في المكان. إذ كلما حدث مثل هذا الشيء، إلا إذا قطع الصياد خيط صنارته، وهو ما لا يرغب القيام به لأن القرش أثمن من أي سمك آخر، لا شيء يحول بين فلكه وبين اللحاق بالقرش. ونتيجة لذلك، يضطر الصياد في بعض الأحيان إلى الانجراف بعيداً في عرض البحر. ولصيد هذه الوحوش لابد من بذل جهود جبارة لأنها تناضل بشدة من أجل التخلص عندما تجذب قريباً من السطح. وإذا حدث وإن قلبت الصياد من مكانه، فإن هذه الوحوش كما يقال تندفع صوبه على الفور. إنني أعرف بأن حوادث كثيرة كهذه قد وقعت، لكن إن نجح الصيادون في جره على امتداد الفلك، فإنهم يتمكنون من قتله ببضع ضربات على الخطم. وبعد أن يجلب السمك إلى الساحل، فإنه إما يجفف أو يملح. أما إذا زاد عن الحاجة فيتم نقله إلى عمق البلاد ويقايض بالتمور والقماش. وفي موسم البرد يقيم العرب الرعاة من أبناء هذه القبيلة في المناطق الساحلية، بحثاً عن كلأ أفضل، فيسكنون في خيام صغيرة، كما لاحظت، تقام بواسطة الأعمدة وتغطى بالجلود. ولكن مع اقتراب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، ينسحبون إلى التلال ويصبحون أشبه بسكان الكهوف المنعزلين. وهناك يستقرون في أكثر الوديان عزلة مع قطعانهم، حيث يكون الكلأ فيها أفضل من السهول. وسمعة هذه القبيلة سيئة وسط جيرانها ويقال أنها لا تتورع عن نهب الزوارق التي قد تقع في أيديهم لسوء الحظ. وهذه القبيلة هي التي اقتربت من المركب الأمريكي (الطاووس) عندما أوقف قرب (مصيره) (Mazura) سنة (1835) بهدف نهبه، كما يفترض. غير أنهم ينكرون هذا الشيء بشدة. ويشكل الحليب والتمر والسمك غذائهم الرئيس. ولما كان الماء غير عذب. فإنهم يحتسون كميات كبيرة من الحليب. ويحصلون على التمور من البساتين العامرة في بني بو علي، وهي القبيلة التي يرتبطون بها برابطة الدم.

وتتباهى منطقتهم بكونها ذات مناخ ملائم جداً للصحة. وغالباً ما يأتي المرضى من مسقط للاستشفاء فيها فيبقون شهرين أو ثلاثة أشهر يشاركون سكانها طعامهم البسيط ويقال أن هناك فائدة كبيرة من وراء ذلك حتى في الحالات المستعصية. أما فيما يخص أساليب العقاب عندهم، ففي حالة سرقة جمل أو خروف وما أشبه، فإن العقوبة تكون التعويض عن الشيء المسروق شرط أن تكون هذه السرقة هي الأولى. وإذا تكررت السرقة تُفرض غرامة،

وفي المرة الثالثة يقيد السارق بالأغلال ويُسجن. كما تفرض الغرامات على الكلام البذيء. أما في حالة القتل والقتل غير العمد، فكما هو الحال عند القبائل الأخرى، يتم الانتقام من القاتل بوساطة أهل القتيل.

الثلاثاء، الثامن من ديسمبر / كانون الأول: في الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم بدأنا نستعد للعودة إلى (بني بو علي) عن طريق آخر يتجه أكثر إلى جهة الغرب. وقد ندمت ندماً شديداً لاضطراري إلى ذلك لأنه كان في وسعي، وبمعية مرافقي، أن أتوجه إلى مضارب بدو مهرة دون أن أخشى أي مقاطعة. لكن عُمان الأكثر جاذبية كانت أمامي. ظل المظهر الطبيعي للأراضي التي مررنا بها حتى الساعة الواحدة والنصف كما هو مثلما وصفته من قبل. إلا أننا عبرنا بعد ذلك بعض الحقول الجافة التي تخلو من الأشجار أو الأدغال ولا تنتشر فيها إلا كتل الملح أو الحصى. وعند غروب الشمس، توقفنا بعض الوقت لإطعام جمالنا، ومن ثم استأنفنا الرحلة إذ كان الليل لطيفاً. وفي الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين، وبعد سفر طويل وشاق وصلنا مخيم بدو صغير بتنا فيه ليلتنا. إن القدرة على النوم فوق ظهر ناقة تعد إنجازاً يستحق الحسد! في الوقت الذي وصلت فيه محطة وقوفنا كنت شديد الإنهاك. وباستثناء الشيخ الذي كان راكباً على مقربة مني ويتحدث إلي، فإن بقية أفراد الجماعة راحوا في نوم عميق.

التاسع من ديسمبر / كانون الأول: انطلقنا في صباح هذا اليوم في رحلتنا. وبعد أن قطعنا مسافة جيدة، وصلنا إلى مضارب (بني بو علي). وهناك وجدت العدد الأكبر من أفراد القبيلة وقد اجتمعوا من حول الخيمة وبعد الاستفسار اكتشفت أن بعض البدو من القبيلة المجاورة، وهي قبيلة (بني بو حسن)، قد تقدموا في أثناء الليل وسرقوا معزة أرسلها شيخ (كامل) قبل يوم واحد هدية لي. وبعد أن سمح الخدم الخاص بي لرئيس القبيلة بالتعرف إلى المعزة، أخذوا ينتظرون وصولي للرد على اللصوص بالاستيلاء على بعض قطعانهم، غير أنني أفلحت في إقناعهم بالعدول عن ذلك بمشقة بالغة. إن أبسط الحوادث التافهة وسط هذه القبائل المولعة بالحرب كافية لأن تبذر الشقاق بينهم وقد قيل لي إنه قلما تمر سنة لا يضطر فيها الإمام إلى إرسال أحد الأعيان لتسوية خلافاتهم.

الفصل السابع

بديه

الخميس، العاشر من ديسمبر / كانون الأول: غادرت مضارب (بني بو علي) صباح هذا اليوم قبيل الظهيرة. طلب مني الرجال العودة مرة أخرى وقضاء شهر وإياهم ووعدوا إن جئت ببناء بيت «يشبه بيوت الهند» والسهر على راحتي وطلبت النساء نفس الشيء ورافقتني القبيلة برمتها حتى ضواحي قرية (بني بو حسن). وقال (سلطان) الصغير: «لو زرتنا في السنة القادمة، سيكون أبي قد عاد من مكة وسأرافقك مع مجموعة من رجالك ومن بدو (جنبة) حتى حدود المهرة». وعدته بذلك إن سنحت الظروف وبعد مصافحة الجميع، وهي من عاداتنا التي تعلموها(*)، افترقنا والأسى يرتسم على وجوه الطرفين. إنني لا أستطيع نسيان المودة الصادقة التي عرفتها من هؤلاء الناس البسطاء وسأظل أتذكر الأسبوع الذي أمضيته وإياهم ومع جيرانهم باعتباره من أحسن أيام رحلاتي.

وفي الساعة الواحدة والنصف اجتزنا حدود قبيلة بني بو حسن. لا يوجد سوى عدد قليل من البيوت المتناثرة هنا كما هو الحال في أرض بني بو علي وقد شيدت هذه على نموذج فظ وتبدو صغيرة. ويقطن السكان في أكواخ مختلفة الأشكال مشيدة بسعف النخيل. دخلنا الآن وادياً ضحلاً يدعى وادي (Betha) تنتشر على جانبيه أشجار الغاف والسمر التي تنتج كميات كبيرة من الصمغ. كما تنتشر أيضاً أشجار النبق في قعر الوادي وبكميات كبيرة. ويبدو للناظر كوخ بدوي من تحت الأشجار بينما تحدق بعض القطعان وهي ترعى الكلأ الذي ينمو تحتها.

في الساعة الرابعة والنصف مررنا ببلدة الكامل وفي الساعة السابعة توقفنا لقضاء الليلة وسط بعض المنحدرات الرملية التي يبلغ ارتفاعها خمسين قدماً. كانت الليلة صافية والجو نقياً والنجوم متلألئة على نحو ساطع لا تجد له مثيلاً حتى في مصر، ولاحظت أن هذا الشيء

(*) كذا ينسب عادة المصافحة لقومه مما يدل على محدودية فهمه.

من الظواهر العامة في المناطق الرملية. لكن ما سبب كثافة الندى؟ وما سبب برودة الليل في الصحراء؟ كان أثر قطرات الندى كثيفاً مما ترك الانطباع بهطول مطر خفيف على الأرض. ومهما كانت حرارة النهار شديدة وقاسية فإن برودة الجو، بل حتى الليالي الباردة تلي ذلك.

الجمعة، الحادي عشر من ديسمبر / كانون الأول: استيقظت هذا الصباح في وقت مبكر وتسلقت قمة أحد التلال الرملية العالية كي أظفر برؤية المناطق المحيطة، لكني لم أشاهد على مد البصر وفي الأفق الكئيب والموحش سوى الهضاب الرملية المتموجة القادمة من الصحراء كأنها موجات بحر حتى تصطدم بالحاجز الذي أقف عليه. وعند الاستفسار، لم أتمكن من معرفة أن الصحراء تتقدم واضطرتني ملاحظتي إلى الاعتقاد بعكس، ذلك لأنني بعد أن عاينت المكان جيداً وجدت أن التلال التي كانت تشكل عائقاً لتقدمها، إنما كانت مغطاة بالأراك ونباتات صحراوية أخرى تغور جذورها في التربة وتتشابك محدثة أثراً كذلك الذي تحدثه (عشبة النجيله) في إنكلترا. وتقف شجيرة[1] واحدة من هذه الأشجار حجر عثرة أمام تقدم الرمال وتحيلها إلى هضبة. وهنا تنمو بقية الشجيرات فوقها وتستمر على هذا النحو بتلقي طبقات الرمل المنفصلة والنباتات المتزايدة بالتعاقب. ولولا هذا لكان طوفان من الرمال قد غمر البلاد منذ زمن بعيد حتى قدمات الجبال المواجهة للبحر. ولما لم يكن هناك سوى القليل من الماء وراء هذا الحاجز، إذ يبعد البئر الواحد عن الثاني مسيرة أيام، فإن البدوي قلما يتجرأ على اجتيازه، لأن التلال، كما يقال، تُغيّر من ملامحها، بل حتى تغير من مواقعها مع كل نسمة قوية تهب ونتيجة لذلك تفقد علاماتها وتحدث حوادث مؤسفة جداً في غالب الأحوال. ففي الليلة الماضية أخبرني (حمد) بأنه واجه– عندما كان شاباً– مع والده وحوالي عشرين من أفراد قبيلته في هذا المكان بالذات مجموعة من الوهابيين استطاعوا أن يلحقوا الهزيمة بهم ويرغموهم على الهرب مع زوجاتهم اللواتي كن في رفقتهم. وعبرت العديد من قبائلهم الصحراء للذهاب إلى بعض الآبار تبعد مسيرة ثلاثة

---

(1) هذه الشجيرة يطلق عليها أسم Cissus Arborea الأراك وتستخدم أصغر أغصانها في جزيرة العرب بمثابة فرشاة أسنان وتحظى بمكانة رفيعة عند قدامى العرب والمصريين حتى أن الشعراء هناك يحتفون بها.

أيام عن الحاجز، وكانت غنية بالماء والكلأ. كان هدفهم البقاء حتى رحيل المجموعة المعادية وبقاء الطريق مفتوحة لعودتهم. لكن هبت في اليوم الثاني ريح صرصر من الجهة الغربية أزالت معها كل أثر من آثار الطريق وامتلأ الهواء بالغبار امتلاءً عجزوا معه عن رؤية الأشياء التي تبعد عنهم أكثر من بضع ياردات. وفي حالة الطوارئ، هذه التفوا جميعاً من حول شجرة، ولم يكن لديهم أي خيار آخر سوى الاحتماء بها حتى تتغير الظروف نحو الأحسن. إلا أن الريح استمرت دون هوادة ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث من مغادرتهم الحاجز، وكان ماؤهم القليل قد نفد منذ اليوم الأول، ذبحوا الجملين اللذين كان في وسعهما الاستغناء عنهما، إلا أن كمية الماء التي حصلوا عليها سرعان ما نفدت وسط العديدين منهم. وفي صبيحة اليوم الخامس، توفيت اثنتان من النساء ورجل شاب هو شقيق (حمد). وفي اليوم السادس وصلوا إلى الآبار. وهنا يمكن تخيل الرعب الشديد الذي استبد بهم عندما وجدوا أن الآبار مليئة حتى السطح بالرمال[1]. وقال حمد: «إننا لا نعلم بوجود أي آبار أخرى لا تبعد عنا سوى مسيرة ثلاثة أيام، لكن بما أننا في حالة ضعف شديدة، فإنه لا يسعنا سوى أن نستلقي ونموت. إنني لا أتذكر أي شيء، بعد تلك الليلة حتى وجدت نفسي وقد حُملت فوق ظهر أحد الإبل ووالدي إلى جواري يقودها. وعرفت منه أن أمرنا اكتشف في صباح اليوم التالي من جماعة أخرى من قبيلتنا فرغت تواً من ملء قربها من بئر لا يبعد أكثر من نصف ميل عنا وإننا في طريقنا، برفقتهم، إلى قريتنا الصغيرة».

(1) الماء وفير في عُمان حتى أننا لم نضطر إلى حمله معنا إلا نادراً. وعندما كنا نحمله معنا، فإنه كان يوضع في أكياس جلد تسمى القرب، وكانت جلود الأغنام والماعز التي نذبحها في أثناء رحلتنا يُحتفظ بها لهذا الغرض. وتستخدم جلود الحملان للحليب والأكبر منها للخمرة أو الماء، وتتم دباغة هذه الجلود بلحاء الشجر. وعلى العموم تُترك الأجزاء التي تحتوي على الشعر دون تنظيف. وتتم خياطة الثقوب الخاصة بالساقين في حين يتم استخراج السوائل عن طريق فتحة في العنق ومن ثم يتم غلقها بخيط جلدي. وتعلق بالإبل،وإذا ما شعر البدوي بالظمأ فإنه يشرب منها وهي معلقة. وفائدتها أكثر من فائدة الجرار لأنه إذا ما اصطدم الجمل بإحدى الأشجار أو بغيره من الحيوانات في القافلة فإنها لا تنكسر، وبسبب التبخر المستمر، يبقى الماء بارداً تماماً. ولكن عندما تكون هذه القرب جديدة لا تبذل جهود كبيرة في تنظيفها، لهذا تظل محتوياتها ذات طعم ورائحة غير مستساغين. كما يبدو الماء بداخلها يشوبه الزيت لأن العرب تدهن الجوانب الداخلية من القرب بالزيت للحيلولة دون نفاذ الماء. كم هي ثابتة عادات أهل الشرق! فهذه هي القرب التي طالما أشارت إليها قصص الكتاب المقدس وفي كتاب (Antiquities of Herculaneum)، الجزء السابع، ص197، ثمة لوحة تصور فتاة تسكب الخمرة في وعاء من الجلد يشبه إلى حد كبير ما أتيت على وصفه هنا.

في الساعة السابعة غادرنا مخيمنا واستأنفنا رحلتنا على امتداد وادي (Betha) الذي لا يزال ضحلاً فَنَمَتْ عليه بعض الأدغال القصيرة. وفي الساعة العاشرة مررنا بنقطة توقف تدعى (Roocsat) ويوجد فيها ماء، ومن هناك قطعنا سهلاً وأراضي صحراوية انتشرت على سطحها وهاد ضحلة كثيرة. وعند سقوط الأمطار على الجبال فإن هذه القنوات تزود الجدول الرئيس الذي يجري على امتداد قعر الوادي بقوة وعنف ومن ثم يصب في البحر قرب رأس (مصيرة) (Mazura). ولما كانت السلسلة الجبلية التي تنبع منها ذات شكل بدائي والأراضي التي يجري فيها بالتالي ذات طبيعة رملية وجافة، فإنه لا يوفر عن طريق الآبار أي قدر من الخصوبة. ولكن على الرغم من ذلك فإن الماء الذي يتغلغل في القناة خلال مجراه القصير يوفر، عن طريق الآبار، كميات كبيرة في فصول السنة الأخرى.

في الساعة الرابعة عصراً، توقفنا عند قرية حدودية في منطقة (بدية). وقد قدرت المسافة من بني بو علي وحتى هذا المكان بمسيرة ست عشرة ساعة يكون فيها السير بطيئاً، أو حوالي اثنين وأربعين ميلاً. ولما كان الطريق لا يلتوي إلا قليلاً فإن هذه المسافة تعد صحيحة وهو ما وجدته ينطبق مع ملاحظاتي. ويطلق العرب على ذلك الجزء من البلاد الممتد بين بني بو علي وحتى هذه النقطة بمنطقة جعلان.

تتألف (بدية) من مجموعة من القرى الواقعة عند عدد كبير من الواحات، وتحتوي كل واحدة منها على مائتين أو ثلاثمائة بيت ويقام السوق في القرية الوسطى. وفيما يخص موقعها النسبي، فإنني أحيل القارئ، إلى الخارطة التي وضعت في الأساس على مقياس كبير وساعدتني في تقدمي لملء وصف الأرض عليها. ومن السمات الأساسية لهذه القرى وقوعها في منطقة منخفضة فقد شيدت فوق أراضٍ ضحلة اصطناعية حُفرت إلى عمق يقدر بست أو ثمان أقدام، ويترك الرمل الناتج عن الحفر بهيئة تلال صغيرة. كانت تلك الواحات هي الأولى التي أشاهدها في هذا المكان، ولهذا السبب فإن انتباهي أنشد إليها انشداداً قوياً. واكتشفتُ أن هذه الواحات وكل المدن في داخلية عُمان تدين بخصوبتها إلى سلوك السكان عندما كانوا يعمدون إلى جلب الماء إليها بأنفسهم، وهذا أسلوب خاص يُميز هذه البلاد ويتم ببذل الكثير من الجهد والمهارة، وهما صفتان صينيتان أكثر منهما عربيتان.

الجزء الأعظم من البلاد يخلو من غدران الماء الجارية على السطح ولهذا بحث العرب عن الينابيع وعيون الماء تحت الأماكن المرتفعة. ولا أعرف بأي أسلوب استطاعوا أن يكشفوا فيها عن هذا الماء، لكن يبدو أنه ينحصر بطبقة معينة من الرجال الذين يقومون بالتجوال في البلاد لهذا الغرض. وقد وجدت بعض هذه الينابيع يغور إلى عمق أربعين قدم ومن فتحة العين أو الينبوع هذه يتم حفر قناة تتجه صوب المكان المطلوب مع ترك فتحات على مسافات متساوية للسماح بنفاذ الضوء والهواء إلى الأشخاص الذين يرسلون بين الفينة والفينة للمحافظة على نظافتها. وبهذا الطريقة يأخذ الماء بالجريان من مسافة تقدر بستة أو ثمانية أميال ويتم الحصول على كميات غير محدودة. ويقدر عرض هذه القنوات بحوالي أربع أقدام وعمقها بقدمين وتحتوي على جدول ماء سريع الجريان ونظيف وتحتوي القليل من هذه المدن الكبيرة أو الواحات على أربعة أو خمسة وهاد أو أفلاج تجري في داخلها. وبهذا تمتلك الأراضي المعزولة التي ينقل إليها الماء بهذه الوساطة على تربة غاية في الخصوبة بحيث أن كل أنواع الحبوب أو الفواكه أو الخضروات المعروفة في الهند أو الجزيرة العربية أو بلاد فارس تنمو هنا في نفس الوقت. ولم تعد الحكايات التي تدور عن الواحات من قبيل المبالغات لأن خطوة واحدة تنقل المسافر من وهج الصحراء ورمالها إلى طريق خصب ترويه مئات الجداول الصغيرة وتحتشد فيه أنواع الخضروات والنباتات وتظلله أشجار باسقة تحجب تماماً أشعة شمس الظهيرة القاسية. وأشجار اللوز والجوز والتين ذات أحجام كبيرة أما عناقيد الفواكه فتنمو بكثافة في أشجار البرتقال والليمون حتى أنني لا أصدق بإمكانية جمع عشرها فقط. وفوق هذا كله تنمو أشجار النخيل باسقة مضيفة ظلالها إلى المشهد المعتم. وربما أمكن تكوين فكرة عن كثافة هذا الظل من خلال الأثر الذي يحدثه في تقليل الإشعاع الأرضي. فالمحرار الموجود داخل البيت ويشير إلى 55 درجة فهرنهايت وهو على بعد ست بوصات من الأرض، ينخفض إلى 45 درجة فهرنهايت. ولهذا السبب، ولتوفر المياه بكميات كبيرة، فإن المكان مشبع بالرطوبة، وحتى في حرارة النهار، يتصف ببرودة رطبة. والحق أن مثل هذه البقاع توفر مشهداً فريداً وغريباً لا يوازيه أي مشهد آخر في مختلف أنحاء العالم ولا يمكن أن نعطي فكرة واضحة عن هذا الأمر أكثر من النظر إلى قائمة المنتجات التي تنمو بأنواع مختلفة معاً فوق ارض لا يتجاوز قطرها أكثر

من ثلاثمائة باردة. وإني لواثق أن أي بقعة أخرى في العالم مساوية لمساحة هذه البقعة يمكنها أن توفر مجموعة كثيرة ومتنوعة من النباتات كهذه.

السبت، الثاني عشر من ديسمبر / كانون الأول: السكان هنا أقل فضولاً مما هو متوقع خاصة إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار إن من المشكوك فيه أن يكونوا قد رأوا أي أوروبي من قبل. فهم يمرون أمامي ويلقون نظرة واحدة عليّ ويتركونني وشأني. واكتشفت في هذا اليوم أن ارتجاجات الإبل عطلت آلة الكرونومتر التي أقيس بها الوقت بدقة شديدة على الرغم من أنها كانت مغلفة بعناية فائقة. ونتيجة لذلك اضطررت إلى العودة إلى استتار النجوم بفعل القمر كوسيلة لمعرفة الطول. وبالنسبة للشخص المستقر والساكن فإن الأمر هيّن، ولكن بالنسبة للرحالة، تظهر على الدوام ظروف جديدة كثيرة تجعل من احتمال الاعتماد عليه أقل مما يجب. واكتشفت عرض المكان عن طريق ملاحظة منتصف النهار وتوسط العديد من النجوم بمقدار 22 درجة و27 دقيقة، والاختلاف بين الملاحظة الصباحية والمسائية كان 2,7 غربي.

الأحد، الثالث من ديسمبر / كانون الأول: قُدمت إلي هذا المساء العديد من الطلبات التي يرغب أصحابها في تلقي العلاج. وكانت معظم الحالات تتلخص بالحمى والبثور المنتشرة على السيقان. ويبدو أن كلتا الحالتين قد نجمتا عن برودة بيوتهم ورطوبتها، وكانت هذه مشيدة في منطقة قريبة مشبعة أرضها بالرطوبة باستمرار. وفي الساعة الثامنة صباحاً تقدمنا صوب الشمال الغربي على امتداد وادي (Betha) ومررنا بالعديد من القرى الصغيرة المنتشرة على جانبي الطريق. وفي الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين وصلنا السوق. ويجري الاحتفال فيه بهزيمة الوهابيين مرتين، الأولى في سنة (1811) عندما كانت قواتهم بقيادة (عبد العزيز)[1]، والثانية بعد مرور بضعة أشهر على زيارتي في المرة الأولى، لقي الشيخ (مطلق)[*] مصرعه وكان أبنه (سعد بن مطلق) معه في ميدان القتال وهو لا يزال

---

(1) فيما يلي نسب رؤساء الوهابيين: فيصل، الإمام الحالي، ابن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود بن عبد العزيز بن سعود الذي أصبح سنة 1747 من أنصار المصلح عبد الوهاب. وعبد العزيز الذي يشار إليه هنا هو الشخص الذي نهب سنة 1801 بلدة الإمام حسين وضريحه وذبح دون تمييز كل الرجال والنساء والأطفال الذين وقعوا في أيديه.

(*) مطلق المطيري كان قائداً لذلك الجيش عام 1813م.

صبياً. ولما كانت مشاعر الانتقام تشكل ملمحاً بارزاً من ملامح شخصية العرب، فإن الشيخ الشاب استمر منذ تلك اللحظة يكن أشد مشاعر الحقد للقبيلة وعندما عيّن في هذه السنة لقيادة قوة الوهابيين الحدودية في (البريمي)، فإنه تقدم على حين غرة على رأس قوة قوامها ثلاثة آلاف رجل باتجاه (بدية)، على الرغم من أن الوهابيين كانوا في حالة سلم مع الإمام. بيد أن القبيلة التي كان مصمماً على القضاء عليها تلقت أخبار تحركه قبل ساعتين من وصوله فما كان منها إلا أن جمعت ثمانمائة رجل، وهو كل ما كان يتوفر من الرجال آنذاك لمقاومته. وكان هؤلاء الرجال مسلحين تسليحاً جيداً (وشكلت تهديدات الشيخ بن مطلق باستئصال القبيلة بلا هوادة ولا رحمة، دافعاً قوياً لهم بأن يبذلوا قصارى جهدهم). وعلى الرغم من قلة عددهم، إلا أنهم هاجموا الوهابيين هجوماً عنيفاً غير متوقع وأرغموهم على الانسحاب من الميدان. وبعد أن ذبحوا العديد منهم أرغم الباقون على الفرار والنجاة بأنفسهم. وجن جنون الشيخ بن مطلق للهزيمة التي لحقت به وبات الخطر يتهدده من كل جانب ولولا ولاء القليلين الذين أسرعوا بإخراجه من الميدان لكان قد لقي المصير نفسه الذي لقيه والده في هذه البقعة بالذات. وبعد توقف قصير في هذه القرية في انتظار جمالنا، واصلنا رحلتنا صوب الشمال والشمال الغربي حتى الساعة الثانية عشرة وإذ ذاك وصلنا إلى (القابل) (Cawbi) التي يحيط بها سور تنتشر عليه القلاع. استقبلني الشيخ عند إحدى البوابات ورافقني سيراً على الأقدام داخل البلدة. وبدا تواقاً جداً لأن أتوقف في هذه البلدة لكنني كنت راغباً في السير نحو (إبرا). كانت سطوح المنازل ونوافذها تحتشد بالناس الذين تجمهروا لمشاهدتنا. في الساعة الواحدة مررنا بـ (دريز) وفي الواحدة والنصف وصلنا (Modera) وهاتان واحتان صغيرتان وفيهما قريتان. وفي الساعة الثانية بدأت المنطقة تغير من طبيعتها بعد أن كانت عبارة عن سلسلة من السهول. وأخذت تقطعها تلال واطئة كلسية لا يزيد ارتفاعها عن مائة وخمسين قدم. وكانت بنات آوى والضباع تحتل الكهوف العديدة التي تنتشر فيها. وفي الساعة الخامسة والنصف غيرّنا اتجاهنا من الشمال والشمال الغربي إلى الغرب والشمال الغربي وبنفس اتجاه وادي (Betha)حتى وصلنا مدينة (إبرا).

نصبت خيمتي في قعر مجرى ماء جاف على بعد بضع ياردات من بستان نخيل يحيط به

جدول ماء عذب رقراق جلست على حافته العديد من الفتيات اللواتي كن يسبحن فيه شبه عاريات على الرغم من اقترابي منهن. وهناك فتيات أخريات كن يغسلن الثياب أو أواني الطبخ النحاسية وكن يضحكن ويتجاذبن أطراف الحديث على نحو مهذار. وبعد توقفنا بقليل قدم لنا خروف والعديد من طوس الحليب. أما في المساء فلم يزرني إلا القليل من الناس.

الاثنين، الرابع عشر من ديسمبر / كانون الأول: رافقني (سيف) لزيارة البلدة التي كانت يوماً ما ذات شأن. إلا أنها باتت اليوم في حالة يرثى لها. وينتاب المرء إحساس بتغير الجو عندما يأتي من الصحراء إلى البستان، فالهواء عليل ورطب، والأرض مشبعة بالرطوبة المنتشرة في جميع الجهات، ومن كثافة الظلال، يبدو كل شيء، مظلماً وكئيباً. ثمة بعض البيوت الجميلة لا تزال قائمة في (إبرا)،غير أن طراز البناء يظل يشكل طابعاً فريداً في هذا الجزء من الجزيرة العربية. فلأجل أن يتخلص السكان من الرطوبة والحصول على أشعة الشمس بين وقت وآخر من خلال الأشجار، قاموا ببناء البيوت العالية. وحاجز الشرفة الذي يحيط بالطابق العلوي ذو أبراج؛ بل أن مدافع نُصبت فوق البيوت الكبيرة. أما النوافذ والأبواب فذات أقواس إسلامية، وكل قسم من أقسام المبنى تحتشد فيه النقوش والزخارف الجصية البارزة، وكان بعضها ينم عن ذوق رفيع. وكانت الأبواب مؤطرة بالبرونز ومزودة بالحلقات وغير ذلك من النقوش الكثيرة من نفس المعدن.

ويقام في هذا المكان سوق يومي تباع فيه الحبوب والفواكه والخضروات حيث يأتي البدو وسكان القرى القريبة للشراء بأعداد كبيرة. وتكون المنصات التي تعرض عليها البضاعة مشغولة في ساعات البيع فقط. وهذه عبارة عن منصات مربعة الشكل، صغيرة، يحيط بها حاجز واطئ ومسقفة ومفتوحة من الأمام وأرضيتها ترتفع حوالي قدمين عن مستوى سطح الشارع. وعلى مقربة من (إبرا)، وعلى مسافة لا تزيد عن مائتي ياردة، ثمة بلدة صغيرة أخرى، إلا أن سكانها في حالة عداء والناس الذين لحقوا بنا من المدينة الأولى لا يملكون الجرأة لدخول أراضي البلدة الثانية. وتنتصب فوق المرتفعات الجرداء ذات القمم القريبة من هذه البلدة والبلدات الأخرى المجاورة بعض الأبراج المدورة تشكل

حصوناً منيعة في النزاعات الداخلية أو الغزوات الأجنبية. وتوجد في العديد منها آبار ماء وفيها مؤن كافية، ولهذا، فإن هذه الأبراج تستطيع المقاومة زمناً طويلاً في بلاد قلما تستخدم فيها المدفعية. هذا وتشتهر (إبرا) بجمال فتياتها وبياض بشرتهن. واللواتي رأيناهن في الشارع قلما أظهرن الخجل. ولدى عودتي إلى خيمتي وجدتها تحتشد بالعديد منهن. وكن في حالة جذل شديد لما يرون من حولهن. فقد قلبن كل صندوق من ممتلكاتي لمعرفة ما فيه، وكلما أظهرت محاولة لمقاومة ما يقمن به، يضعن أيديهن فوق فمي لإسكاتي. جلس (سيف) في إحدى الزوايا وظل ساكناً وبدا عليه الهلع تماماً مما يراه أمامه. وفي إحدى المرات، فاق مزاحهن العابث حدود صبره، وكان يوشك أن يستخدم سوطه في تفريقهن بكل قسوة لولا أن منعته من ذلك، وعند حلول المساء انصرفت السيدات الجميلات وامتلأ المكان بزوار أقل إثارة للمتعة بكثير وكانوا من الملالي الكبار في السن المتعصبين علاوة على بعض الشبان الأجلاف المثيرين للإزعاج. تخلصت من الملالي– الذين جاءوا بهدف الجدل– بالموافقة على كل ما قالوه، في حين أفلح نفوذ (سيف) في خلاصي من المجموعة الثانية.

بعد أن عرفت خط التصنيف أننا في خط العرض 22 درجة و41 دقيقة غادرنا مخيمنا. وفي أثناء مرورنا بالبلدة، نهض العديد من المتشردين– يساعدهم في ذلك كل الأطفال، واخذوا يصيحون بأعلى أصواتهم وضربونا بالحجارة حتى إن حجراً أصاب ذراعي. وعندئذ التفت إلى جماعة من كبار السن وسألتهم إن كانت البلدة هي بلدة (السيد سعيد)، وبذلوا محاولة للتدخل، ولكن بدا عليهم حقا أنهم كانوا مستمتعين وليسوا مستاءين بالتظاهرة. وفي نهاية المطاف، داهمني الخوف على خدمي الذين كانوا يسيرون على بعد مسافة مني إلى الوراء وفكرت في الانضمام إليهم. ورآني الناس وأنا أحمل السلاح وظنوا أنني سألجأ إلى استخدامه فما كان منهم إلا أن فروا في كل الاتجاهات. استفدنا من هذا الهلع الذي دب فيهم ووصلنا البوابة ولم يحاولوا اللحاق بنا. إن مثل هذه الاضطرابات هي التي تزرع كل الخوف في نفس الرحالة، لان الدهماء إذا ما تجمعوا في مدينة من مدن الشرق سرعان ما يقومون بأعمال عنف، إلا أنني يجب أن أقر بأن هذا هو المكان الوحيد الخاضع لسلطة الإمام ولم أحظ فيه باهتمام شديد. ولو كان الشيخ معنا لما جرت إهانتنا بهذا الشكل.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثامن

منح ونزوى

في الساعة الواحدة والنصف، شاهدت من قمة مرتفعة الجبال المطلة على (صور) الواقعة إلى الشرق والجنوب. كان طريقنا إلى الغرب والجنوب حتى الآن، ومن هنا فصاعداً بات يمتد إلى الشمال الغربي. كانت تمتد أمامنا تلال صغيرة كلسية ذات أشكال هرمية وسطوح جرداء ذات لون أسود تخلو من أي أثر للأدغال أو نباتات الصحراء. أما الوديان التي تتوسطها والسهول الواقعة بينها فكانت مرقشة بهضاب صغيرة معشوشبة وعند غروب الشمس دخلنا طريقاً في غابة، إلا أننا فقدناه بعد هبوط الظلام. ولكن الجمال اكتشفت الطريق ثانية على نحو غريزي ومن ثم بدت وكأن روحاً جنونية استبدت بها. فرفعت أذيالها وأخذت تركض هنا وهناك ويصطدم أحدها بالآخر. وانتهى الأمر بأن فرّ جملان أو ثلاثة بعيداً وانقلبت الأمتعة من فوقها. بعد ذلك فكرت أنه من الأفضل التوقف. واكتشف البدو تجويفاً فضلوه على غيره من الأماكن لأنه يقيهم من الريح ويفيد في إخفاء النار التي يضرمونها. جمعنا إبلنا وأفرغنا عنها حمولتها لقضاء الليلة. كانت درجة حرارة المحرار تشير هذا المساء إلى 56 فهرنهايت. ووجدنا أن النار ليست مريحة فحسب بل ضرورية أيضاً. للبدو طريقة واحدة في النوم. فهم يخلعون ثيابهم ويحفرون حفرة في الرمال يرقدون فيها ويغطون أنفسهم بتلك الثياب وبكل ما يجدونه في متناولهم، أما السيف والدرع والبندقية فتوضع إلى جانبهم على أهبة الاستعداد لاستعمالها.

على الرغم من أن هذا المكان بارد برودة المنطقة التي رحلنا عنها، إلا أن الجو ليس صافياً ونقياً مثلها. إن الطقس في عُمان (إنني استخدم هذه الكلمة بالمعنى الضيق الذي ألصقته به حتى على الخارطة) يعد طقساً غير مؤاتٍ للصحة في فصل البرد، خاصة داخل الواحات. والبدو القادمون من الصحراء قلما يبقون ثلاثة أو أربعة أيام هنا دون الإصابة بحمى عنيفة وقد أكدت معاناتي التالية لسوء الحظ صدق رأيي. ويقال أن المناخ في

(الباطنة) و(بدية) صحي إلا أنّ (نجد) في هذا الصدد، أفضل من أي مكان آخر في عموم جزيرة العرب. اكتشفنا اقتراب بعض البدو منا عندما بدأ جوادي بالصهيل وفي لمح البصر كان الجميع يقفون على أقدامهم وبنادقهم على أتم استعداد. ولما انكشف أمر الجماعة وكانت مكونة من خمسة أو ستة أفراد، شرعوا بالهرب ووجدت صعوبة في منع رفاقي من إطلاق النار عليهم. وبعد أن وضعنا أحد الحراس، نمنا دونما إزعاج حتى صبيحة اليوم التالي. كان هدف زوارنا سرقة قطعة من متاعنا ولكننا اكتشفنا في وضح النهار أن شيئاً لم يسرق.

الثلاثاء الخامس عشر من ديسمبر / كانون الأول: في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين واصلنا سيرنا على نفس الطريق المكسو بالأدغال كما في السابق. أشجار السمر في هذه المنطقة كبيرة الحجم وينضح منها الصمغ بكميات كبيرة. كنت أتجاذب أطراف الحديث مع (حمد) الذي كان يسير راكباً إلى جواري، وكان الحديث يدور عن جماله. وذكر العديد من الحالات التي توضح مدى تعلق البدو بهذه الحيوانات النافعة. ولكي أحصل منه على معلومات أكثر أفصحت عن عدم تصديقي لبعض النقاط التي ذكرها. وفي هذه اللحظة، صادف مرور جماعة بنا قادمة من الاتجاه المعاكس. فاقترح (حمد) اختبار مصداقية كلامه بما سوف أرى. فصاح بأقرب شخص من الجماعة وكان متقدماً على رفاقه: «ليكسر الله ساق بعيرك» ودون لحظة تردد واحدة، ألقى الغريب بنفسه من فوق جمله وتقدم مشرعاً سيفه صوب (حمد) الذي لم يكن يملك إلا سبب واهياً لتهنئة نفسه على هذه التجربة لولا قيام العديد من أفراد مجموعتنا بإلقاء أنفسهم أمامه وأوضحوا الأمر للغريب. بيد أن الغريب ظل متأثراً إلى حد كبير على ما يبدو وتساءل أمام كل التوضيحات التي قُدمت له: «لماذا أهان الجمل، وهل ألحق الجمل الأذى به؟» ثم تمت تسوية القضية ببعض الهدايا ووطدت العزم بيني وبين نفسي ألا أثق بكياسة أي أعرابي في تسوية مسألة من هذا القبيل.

في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين وصلنا وادي أثلى Ethelee حيث تنتشر فيه بعض آبار المياه العذبة كما تكثر فيه الظباء وطيور الحجل وغيرها من الحيوانات. وهنا نجحنا أنا (وسيف) وعند رحيلنا استمتعتِ الكلابُ بوجبةٍ من لحم ظبي تمكنت من صيده بعد مطاردة استغرقت عشر دقائق. وفي الساعة الواحدة وصلنا إلى الطرف الجنوبي الشرقي

من بستان وبلدة (سمد) وفي الساعة الواحدة والنصف نصبنا خيمتنا على امتداد جدول ماء جميل يبعد مسافة بضع ياردات عن الأشجار.

الأربعاء، السادس عشر من ديسمبر / كانون الأول: واحة (سمد) من الواحات الكبيرة لكن عدد سكانها لا يزيد عن الأربعمائة شخص حالياً. وهي مسقط رأس دليلي ورفيقي القديم (سيف) ووجدت لأسفي الشديد، إنه سيتركني في هذا المكان. وفي المساء انضمّ إليّ على نحو لم أتوقعه الملازم (وايتلوك) الذي كان يقوم برحلته لتعلم العربية. واتفقنا على مواصلة السير معاً لان ذلك يلائم هدفينا. وكان هو يرتدي الزي العربي في حين احتفظت أنا بالزي الإنكليزي[1].

الخميس، السابع من ديسمبر / كانون الأول: زرنا بيت الشيخ بناءً على دعوة لتناول طعام الفطور. كان البيت عبارة عن قلعة كبيرة متينة البنيان شيدت بنفس المواد التي تشيد بها البيوت الأخرى. كانت الغرف واسعة وعالية السقف لكنها تخلو من أي أثاث. وكانت الملابس والسروج وأغطيتها المزركشة معلقة بمشاجب بارزة عن الحائط بمقدار قدمين. وكانت السقوف مصبوغة بألوان متعددة، أما الأرضية فمن الطين ولا تغطيها الحصران إلا جزئياً. وكانت النوافذ مزودة بقضبان حديد بدلاً من أن تكون مزينة بأعمال زخرفة خشبية. وفي الليل ولوقاية النزلاء من قسوة الريح، تغلق هذه النوافذ بشراعات خشبية. المصابيح مصنوعة من المحار وثمة ضرب من الرخويات البحرية تتدلى من السقف بشكل خطوط. إن كل شيء في هذا المكان يختلف عما شاهدته في أي جزء آخر من أجزاء جزيرة العرب. كان طعامنا سخياً وكثيراً. لكن بما أن العرب كانوا يتقيدون كثيراً بقوانين الضيافة فقد تطلب منا أن نتوسل كثيراً لإقناع مضيفنا وهو رجل كريم المحتد، بأن يجلس بيننا. ويرجع هذا إلى اعتقاد سائد مفاده أنه إذ ما شارك الضيوف وجبة الطعام، فإنه لن يكون لديه الوقت أو المزاج للسهر على متطلبات ضيوفه ولهذا السبب أصر على خدمتنا. ولم يقتنع بالانضمام إلينا إلا بعد أن أخبرته بأننا لن نبدأ تناول الطعام ما لم يشاركنا فيه، وعندئذٍ تصورنا أن في مستطاعه

---

(1) الطريق الذي سلكه وايتلوك مثبت على الخارطة، وهو يمتد بمحاذاة طريق ضيقة أخرى تمتد عبر براري جبلية. وقد مر ببعض المناطق التي يزرع فيها التمر، إلا أن البلاد، على وجه العموم، عبارة عن أراضٍ قفر تخلو من المياه.

أن يؤدي دوره مثلما يؤديه أفضلنا. ولدى عودتي إلى الخيمة وجدت، كما هو مألوف، حشداً غفيراً وقد تجمّع فيها لكن النظام كان سائدا بينهم بفضل صبي لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره، كان لوالده نفوذ واسع في هذه البقاع ولكنه لقي مصرعه قبل سنوات قليلة على أيدي البدو. كان الفتى قد استولى على خيمتنا وحال دون دخول أي من أبناء بلده إليها إلا بإذنه وكان يحمل سيفاً أطول من قامته وعصا كان يضعها إلى جواره بين الفينة والفينة. سررت كثيراً بهذا الفتى وبجاذبيته وأهميته وخاصة بعد أن بدا عالماً بكل أعداد القبائل ومصادرها وتوزيعها. وكان حديثه في هذه الأمور وغيرها من الموضوعات حديثا طلقاً لا يشوبه الحرج وعلى درجة عالية من الإمتاع. ويمكن على وجه العموم ملاحظة أن العرب، لاسيما البدو، يتركون أولادهم ليشاركوهم ثقة الرجال ومجالسهم منذ وقت مبكر. كما لاحظت في العديد من المرات الأخرى أن شبانهم يمارسون تأثيرهم على نحو يبدو عندنا منافياً للعقل. إن جزءاً من نظامهم التعليمي يتمثل في عدم معاملتهم كأطفال منذ وقت مبكر ولهذا السبب ترى هؤلاء يكتسبون رزانة الرجال وحسن سلوكهم في سن يكون فيها أولادنا منشغلين بالسعي وراء أمور عابثة ويتعرضون للضرب والتأديب كي يسلكوا سلوكاً محتشماً.

آثرت هذا المساء إمتاع الحاضرين المجتمعين بتجربة (بروس) الخاصة بإشعال شمعة خلال جزأين من لوح خشبي بسماكة إنش عندما اقترحت عليهم اللعبة أعلنوا أن ذلك مستحيل ووافقهم رأيهم هذا صديقنا الصبي. لكن في وسعنا أن نغفر لهم عدم تصديقهم ودهشتهم، فبعد نجاح اللعبة تجدنا نفكر بأن سنوات عديدة لم تمض بعد على ارتياب كل إنكلترا المتنورة باحتمال نجاح التجربة هذه، وإن قصة (بروس) عن لعبة مشابهة كانت تعزى إلى «حبه للمعجزات».

السبت، التاسع عشر من ديسمبر / كانون الأول: شرعنا بتقويض الخيمة وبعد معرفة المدى، انطلقنا في الساعة الواحدة من بعد الظهر برفقة الشيخ وعدد من الحراس يقدرون بحوالي عشرين رجلاً. واصلنا طريقنا على امتداد الوادي وفي غضون أربعين دقيقة وصلنا إلى (أم عسير) حيث توجد فيها قلعة وبيوت قليلة.

وفي الساعة الثالثة وصلنا إلى ممر يطلق عليه اسم عرف Urif ينحدر إلى أسفل واد ضيق

قرابة مائتي قدم. تحتوي الصخور في هذا المكان على كمية مدهشة من كبريتور الحديد الذي يشع من على مسافة بعيدة. وفي الساعة الرابعة اجتزنا بلدة أسمها (جزى) واتجهنا إلى الجنوب والجنوب الغربي وعند بلوغ الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والأربعين وصلنا قرية (كثرى) وتوقفنا عندها. على بعد ميلين من هذا المكان، وبالاتجاه الجنوبي والجنوب الشرقي، ثمة بعض مناجم للنحاس، بيد أن أدلاؤنا لم يأخذونا إليها، كان العمل لا يزال جارياً فيها، غير أن الكمية المستخرجة من المعدن الخام صغيرة جداً ولا تكاد تغطي تكاليف الإنتاج. إن (كثرى) قرية صغيرة وفيرة المياه في المناطق المجاورة. كان الليل كثير الغيوم وسقطت أمطار قليلة. غير أننا أمضينا الوقت داخل الخيمة بكل سرور ونحن نتحدث مع الشيخ ناصر ورجاله من البدو حتى ساعة متأخرة جداً.

الأحد، العشرون من ديسمبر / كانون الأول: بعد أن استأذنا من الشيخ (ناصر) الذي أعدّه أذكى عربي قابلته حتى الآن، استأنفنا رحلتنا في الساعة الحادية عشرة والنصف، بحراسة حوالي سبعين رجلاً، إذ يقال أن الطريق من هنا وحتى (نزوى) يعج بقطاع الطرق الذين يهاجمون الجماعات الصغيرة في وضح النهار. كان طريقنا يمتد صوب الشمال الغربي ومررنا بعدد كبير من القرى. وفي الساعة الثانية والدقيقة العشرين توقفنا مدة خمس وأربعين دقيقة في (Okahi) لاصطحاب حرس جديد. كان الرجال الذين تم جمعهم من المتطوعين على ما يبدو وكانوا يحبون الاستمتاع بالسفر على الرغم من أنهم كانوا في بعض الأحيان يتقدمون وقد أشعلوا نيرانهم وبدوا مستعدين لأي هجوم. إن قطاع الطرق الذين يترددون على منطقة (جعلان) إنما يأتون من الصحراء الغربية جماعات جماعات يقدر عددها ما بين خمسين إلى مائة رجل يعتلون ظهور جمال سريعة. وليس هناك ما يُنبئ بقدومهم، وبعد أن يقوموا بغزوتهم يتراجعون بنفس الخفة. وفي أغلب الأحوال يستحوذون على عبيد من أفريقيا يملكهم أصلاً عرب المدن الذين حصلوا عليهم بنفس الطريقة، وفي كثير من الأحوال يُقدمون على الزواج ببناتهم. ونادراً ما تزهق الأرواح في هذه المعارك على الرغم من أنني شاهدت عددا كبيرا من الناس يعانون من جروح أحدثها سيف أو إطلاقة بندقية. وقد حدثت لي حادثة عندما أصبت بطلق ناري، فمثل هذه الحوادث قد حدثت نتيجة طيش

أصدقائهم. إن كل مسافر في مثل هذه الرحلات يحمل ناراً متوهجة ولا يولون عناية أكبر من تلك التي يولونها لبنادقهم عند خلوها من الطلقات. ولذلك فعندما يجتمع هؤلاء الرجال حال اقترابنا من بقعة تثير الشكوك، فإنني دائماً أفكر بأن ثمة سبب للخوف من الخطر من أصدقائي أكثر من الأعداء. في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والعشرين وصلنا (طلهات) حيث توجد قلعتان صغيرتان مشيدتان فوق قمتي تل يطل على البلدة. والبلدة مسورة وأشجار النخيل تنمو بكثافة قربها، في حين يجري فيها جدول ماء رقراق. لقد تجنبت حتى الآن النوم في بساتين النخيل، إلا أننا اضطررنا إلى النوم في إحداها هذه المرة وكانت النتيجة لذلك كما توقعت، فقد هاجمت الحمى القاسية اثنين من خدمي، إذ بلغت درجة الحرارة 58 فهرنهايت.

الاثنين، الحادي والعشرون من ديسمبر / كانون الأول: بدأنا رحلتنا الساعة العاشرة وفي الساعة الثانية عشرة اجتزنا أرضاً صحراوية ومررنا ببلدة عند قدمات الجبل الأخضر تدعى (بركة الموز) وتقع إلى جهة الشمال وتبعد مسافة ثمانية أميال. في الساعة الثانية عشرة والنصف وصلنا إلى (محيول) ويقع على طرفها الجنوبي حصنان دائريان. في الساعة الواحدة والنصف دخلنا ضواحي بلدة (منح). تختلف هذه المدينة عن سواها من حيث أن المحاصيل تزرع في الحقول المستوية. وبينما كنا نجتازها ونشاهد ما فيها من أشجار اللوز الباسقة والبرتقال والكبّاد ذات الروائح العطرة التي تنتشر على كلا الجانبين انطلقت حناجرنا بصيحات الدهشة والإعجاب وقلنا: «أهذه هي جزيرة العرب؟ أهذه هي البلاد التي طالما نظرنا إليها على أنها صحراء؟» كانت الحقول المخضوضرة للحبوب وقصب السكر تمتد مسافة أميال طويلة أمامنا، وجداول الماء تنتشر في كل الاتجاهات وتقطع طريقنا.أما ملامح الفلاحين السعيدة والراضية فكانت تساعد في ملء الصورة المبهجة برمتها. كان الجو كله صافياً نقياً، وبينما كنا منطلقين في سيرنا مرحين، نؤدي التحية أو نردها ظننت أننا قد وصلنا في خاتمة المطاف إلى (بلاد العرب السعيدة) التي ظننت دوماً أنها موجودة في روايات شعرائنا ليس إلا.

عند الدخول إلى البلدة، استقبلني بعض أقرباء (السيد سعيد)، وقادني إلى بقعة مكشوفة

حيث نصبنا خيمتنا. كان زعماء هذه المنطقة في حالة خصام مع جيرانهم من أبناء قبيلة (بني غافر) الذين يملكون حصناً منيعاً قريباً من البلدة ولا يعترفون بسلطة الأمام.

يعد (الغافريون) من أنبل القبائل في عُمان ومنهم ومن اليعاربة كان ينتخب الإمام بصورة متعاقبة في أوقات مختلفة. أما قوتهم الآن فقد أصبحت محصورة على عدد من القلاع التي ينطلقون منها بين الفينة والفينة للإغارة على المناطق المجاورة وإزعاجها. وقد أخبرني شيخ (مُنح) أنه تعب من المشاحنات المتواصلة التي يقوم بها جيرانه الذين تصعب السيطرة عليهم ولذلك السبب فقد عمد قبل وقت قصير إلى تقويض قلعتهم التي لا تبعد إلا بضع ياردات خارج أسوار مدينته، وإنه في حالة تكرار الاضطرابات سيقوم بتدميرها نهائياً. كان ينبغي لي ألا أصدق الحكاية كل التصديق بسبب أسلوبهم في الحرب. ولو لم يعرض عليّ أن يذهب بي إلى الموقع، لكنت قد علمتهم كيفية وضع شحنة البارود وإشعال خيط البارود الموصل للنار وهو ما كانوا يخشونه أنفسهم، لكنني بالطبع فضلت عدم التدخل.

إن بلدة (مُنح) قديمة ويقال إنها شيدت في فترة غزو (أنو شروان)، إلا أنها أسوة ببقية البلدان لا تحمل من الآثار ما يدل على قدمها. فبيوتها مرتفعة، لكنها لا تختلف عن البيوت التي وصفتها في (سمد) و(إبرا). وفيها برجان مربعان يبلغ ارتفاع كل واحد منهما حوالي مائة وسبعين قدم. ويقع هذان البرجان في مركز المدينة. ويبلغ عرض جدار القاعدة قدمين لا أكثر، أما طول كل جانب فلا يتجاوز ثمان ياردات. وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار خشونة المواد المستعملة في البناء (التي هي عبارة عن حجارة غير مهندمة وإسمنت صلب على ما يبدو وخشن) فإن عدم تناسق الأبعاد، ونقلها إلى الارتفاع الذي هم فيه عليه يعد أمراً مثيراً للدهشة. أما الحراس اليقظون دوماً، فإنهم يصعدون إلى أعلى بوساطة سلم بدائي يتكون من قضبان خشبية مثبتة بشكل مائل في إحدى الزوايا الجانبية داخل المبنى. الأراضي تمتد من حول هذه المدينة امتداداً مسطحاً ومستوياً، والمشهد الذي في وسع المرء الحصول عليه من هذا الموقع العالي يساعدهم في ملاحظة اقتراب أي عدد من مسافة بعيدة. وعندما قدمت للشيخ منظاراً مكبراً (تلسكوب)، تقبله بكل امتنان، فهو ذو فائدة عظيمة لهم.

الفتيات في هذا المكان يتصفن بالجرأة أيضاً وهن أكثر عدداً من الفتيات في (إبرا). ومع هذا، وعلى الرغم من أن خيمتي كانت دوماً تحتشد بهن، وهن يحاولن بشتى الوسائل سرقة أشياء صغيرة مني، فإنني لم أفقد حتى أتفه الحاجيات. وإنني لأرجو أن تكون فضائلهن الأخرى متساوية مع نزاهتهن. والحق إنني لم أشاهد من قبل مثل أولئك السيدات المرحات الضاحكات. فلم يهدأ لهن بال لحظة واحدة، ولم يتوقفن عن الثرثرة.

الثلاثاء، الثاني والعشرون من ديسمبر / كانون الأول: في الساعة التاسعة والدقيقة الأربعين، غادرنا ضواحي البلدة، وواصلنا طريقنا صوب الشمال فوق أرض مزروعة حتى وصلنا أخيراً إلى قاعدة سلسلة منخفضة من التلول تشكل جذور سلسلة الجبل الأخضر. في الساعة العاشرة والنصف، تقدمنا في سيرنا ملتفين من حول رأس التلول وفي الواحدة والنصف وصلنا إلى حصن صغير وقريتي (روضة) (Rhodda) و(فرق) (Furk)، واجتزنا أرضاً تكثر فيها المستنقعات التي انتشر فيها القصب بكثرة، حيث تصنع منه الأقلام العربية وفي تمام الساعة الثالثة والنصف وصلنا (نزوى). وسرعان ما اتجهت إلى مقر إقامة الشيخ الذي يتمتع بنفوذ كبير في هذه البقاع، فوجدناه جالساً أمام بوابة القلعة ومعه حراس مسلحون يقرب عددهم من خمسين فارس يقفون على كلا الجانبين. كان أهل البلدة قد لحقوا بنا وتوقفوا عند هذا المكان. ولكن ما أن عرضت رسالة (السيد سعيد) وعرف الجميع هويتنا حتى بدءوا يتفرقون وعبّر الشيخ عن أسفه لأنني لم أرسل خبراً عن زيارتي التي عزمت على القيام بها لأنه كان يرغب في استقبالي عند الطريق مع مرافقين مناسبين. صحبناه إلى غرفة الاستقبال الواقعة داخل القلعة وكانت غرفة عالية ومؤثثة تأثيثاً جيداً. وسرعان ما تم إعداد مكان للإقامة. وشعرت للمرة الأولى هنا منذ مغادرتي (مسقط)، بسعادة غامرة لأنني أصبحت بمفردي دون رقيب يحسب علي حركاتي، إذ كان الشيوخ والوجهاء في مختلف المدن التي مررنا بها في أثناء رحلتنا يعتقدون بأنهم يشرفوننا إذا ما أمضوا وقتاً طويلاً معنا. أمضينا النهار ونحن نتجول في المدينة والحدائق المجاورة وفي المساء توجهنا لزيارة القلعة التي يفترض أن تكون قلعة حصينة. دخلنا القلعة، بعد احتفاء كبير بنا، من خلال باب حديدي متين، وبعد أن صعدنا ممراً مقوساً اجتزنا ستة أبواب أخرى ضخمة قبل وصولنا

القمة. ولإضفاء مظاهر الأهمية على الزيارة سألنا حراس الأبواب عن فحوى الزيارة. وعندما كنا نقول بأننا خدم السلطان، يقوم الحارس بفتح الباب المزود بالسلاسل والأقفال، وإذ ذاك ندلف إلى الداخل. القلعة دائرية الشكل، وقطرها حوالي مائة متر وملئت حتى ارتفاع تسعين قدم تقريباً بكتل صلبة من الرمل والحجارة. وحفرت سبعة أو ثمانية آبار خلالها حيث يتزودون بالبعض منها بالماء الوفير أما الآبار الجافة فتستخدم مخازن للذخيرة.

وجدنا بعض البنادق القديمة، إحداها يحمل اسم الإمام (سيف) والأخرى اسم (قولاي خان) القائد العسكري الفارسي الذي استولى على (مسقط) ويحيط سور يبلغ ارتفاعه أربعون قدماً بالقمة، فيصبح ارتفاع البرج مائة وخمسين قدم. ويبدو أن جهداً شاقاً قد بذل في سبيل إنشائه وأنه يعود إلى زمن قديم جداً. لكن، في هذه النقطة بالذات، لم أستطع الحصول على معلومات مؤكدة. فالمواطنون لم يبالغوا في تقدير قوته. كما أن المدفعية والقذائف لم تكن ذات أثر قوي. ومن الصعب جداً تسلقه لشدة ارتفاعه حتى لو تم انتهاك السور العلوي. والطريق الوحيد الذي يمكنني تخيله أما محاصرة الحامية حتى يموت أفرادها جوعاً أو تدمير المبنى بالألغام، وهو أمر شاق.

ويوجد مجرى نهر جاف عند أسفل قاعدة القلعة، التي شيدت عندها مجموعة من البيوت، ولكنّ أمطاراً غزيرة هطلت قبل ثلاث سنوات تقريباً فوق الجبال أدت إلى امتلاء المجرى بالماء على حين غرة، واكتسحتها كما اكتسحت جزءاً كبيراً من البلدة، إذ لم يُعهَد أن يصل ارتفاع الماء إلى مثل هذا الحد منذ ثلاثين سنة.

تشبه (نزوى) من حيث مساحتها بلدة (مَنح)، إلا أن البساتين فيها أكثر عدداً. وتنمو كميات كبيرة من قصب السكر ويجري تكريره على نحو مشابه لذلك التكرير الموجود في الهند ويبدو أنهم قد اقتبسوا ذلك منذ فترة متأخرة جداً، إذ لم يكن يوجد مثل هذا الشيء في (مسقط) سنة (1760) عندما زارها (نيبور). وأفضل أنواع الحلوى يمكن الحصول عليها في هذا المكان. كما تصنع فيها الأواني النحاسية بكميات قليلة إضافة إلى وجود بعض صاغة الذهب والفضة، غير أنها تخلو من الحرفيين الفنانين لهذا تصل بقية البضائع من (مسقط). لكن لا ينبغي لي أن أتجاهل ذكر أن كميات كبيرة من الأقمشة وبعض الحصران الجيدة التي

تصنع من نبات الأسسل الذي ينمو على طرفي الجداول. ويعد غزل القطن من المشاغل النسوية الرئيسية وفي فصل البرد يمكن مشاهدتهن وهن يخرجن من وسط البساتين بعد وجبة الفطور وهن يحملن مغازلهن للاستمتاع بأشعة الشمس. ويقوم الرجال وحدهم بأعمال الحياكة على النول. وعلاوة على الحصران، تصنع الفتيات بعض السلال الجميلة من القصب. وتستخدم الحصر للنوم عليها في حين تستخدم السلال لوضع المشتريات عند الذهاب إلى السوق. وتصنع هنا العديد من البشوت كما يجلب البعض الآخر من (نجد) ويرتدي الشيوخ أفضل هذه البشوت ذات اللون البني الفاتح أو الأبيض وتباع بمبلغ أربعين أو خمسين دولاراً. أما ذات اللون الأسود والأخرى الموشاة بخيوط بيض وبنية فيبلغ سعرها ثمانية أو عشرة دولارات. وتشكل هذه البشوت أهم ثيابهم وتدل نوعيتها على مكانة الشخص الذي يرتديها وحالته المادية.



الفصل التاسع

تنوف وسيق وشيرازي

إن (نزوى) هي المدينة الوحيدة في عُمان التي يجني فيها الإمام عوائد مالية، ولكن هذه العوائد شحيحة لأنه لا يحصل إلا على حوالي ألف دولار في السنة. وفيما يأتي تفاصيل عن بعض النقود التي تستعمل في المدن في الداخل. إن هذه النقود ضربت جميعاً زمن حكم الإمام (سيف) وتختلف عن النقود المتداولة الآن في (مسقط) وفي المنطقة الساحلية. وتحتوي كلها على كتابات، إلا أنها تخلو من أي صورة من صور الطبيعة:

العملات الجديدة في مسقط

20 قطعة نحاسية تساوي غازي	دولار إسباني يساوي 200 بيسة أو غازي
20 غازي يساوي محمدي	الباسي يساوي 40 بيسة أو غازي
15 محمدي يساوي دولاراً واحداً	المحمدي يساوي 20 بيسة أو غازي
	Shuk الشوك يساوي 5 بيسة أو غازي

وفيما يلي جدول بأهم المواد الأساسية المعروضة للبيع وأسعارها مساوية تقريباً لأسعار مثيلاتها في مدن عُمان الداخلية:

الرز	12 بيسة للرطل الواحد
القمح	12 بيسة للرطل الواحد
الشعير	11 بيسة للرطل الواحد
الفاصوليا	10 بيسة للرطل الواحد

لحم الابل	16 بيسة للرطل الواحد
لحم البقر	20 بيسة للرطل الواحد
لحم الضأن	16 بيسة للرطل الواحد
لحم الجدي	14 بيسة للرطل الواحد
زيت حلو	50 بيسة للرطل الواحد
السمن	56 بيسة للرطل الواحد

الجمعة، الخامس والعشرون من ديسمبر / كانون الأول: في الساعة الحادية عشرة صباحاً غادرنا القرية في زيارة إلى (الجبل الأخضر) الشهير. كانت حافات التلال إلى شمالنا عندما بدأنا نجتاز العديد من السهول المجدبة التي ليس فيها ما يستحق الملاحظة. وفي الساعة الثالثة وصلنا إلى مدينة (تنوف) حيث يقيم الشيخ الذي يمتد نفوذه إلى عموم الجبال. بعد توقفنا، مكثنا أولا في المسجد الذي يستخدم بمثابة نزل، وهو أمر غريب، في عُمان على وجه العموم. ولما كنت أخشى ألا يسمح لنا بالسير فيه ونحن نحتذي أحذيتنا، وان البرد شديد لا يسمح لنا بأن نخلعها، فإنني طلبت البحث عن مسكن آخر. وهنا انضم إلي الشيخ الذي جاء برفقة عدد آخر من الرجال وحاول إقناعي بعدم زيارة الجبال. وصوروها لي بأكثر الصور إثارة للهلع، وأعتقد أنهم ظنوا أننا لم نزر من قبل منطقة جبلية، وهذا الظن يشاركهم فيه العديد من أبناء بلادهم الذين يقضون حياتهم في السهول. ووصفوا لي سكان الجبال على أنهم أفضل بقليل من الوحوش وأنهم يكرهون زيارة الغرباء. ولكن عندما وجدوا أن كل حججهم لا تكفي لإقناعي بالعدول عن رأيي، انطلقوا عائدين من حيث أتوا يجرون أذيال الخيبة إلى حد ما.

تحتوي (تنوف) على حصنين صغيرين يفيدان في السيطرة على مدخل الوادي. أما فيما خلا ذلك، فهي قرية عديمة الشأن تحيط بها بعض المزارع.

السبت، السادس والعشرون من ديسمبر / كانون الأول: في باكورة النهار، وضع الشيخ والسكان كل عقبة للحيلولة دون توغلنا ولم تتم تسوية المسألة إلا بعد أن هددتهم بالعودة إلى (نزوى) واصطحاب الشيخ معي. وبعد انطلاقنا بوقت قصير، فعلت بعض الدولارات فعل السحر في نفوس أولئك الذين تقرر أن يرافقوننا دون اعتراض، وفي الساعة الواحدة والنصف واصلنا ارتقاءنا الجبل ونحن على بعد مسافة ميل واحد من القرية. كانت الحمير التي ترافقنا كبيرة الحجم، ولما كانت تواظب باستمرار على عبور هذه المرتفعات فقد اكتسبت خطوة ثابتة موازية لخطوة البغال. واصلت السير سريعاً مسافة ستين أو ثمانين ياردة ومن ثم كانت تتوقف لالتقاط أنفاسها لتندفع بعد ذلك من جديد. وبهذا المعدل استطعنا أن نرتقي سريعاً السلسلة الجنوبية، وكنا في بعض الأحيان نقترب خطوات قليلة من أحد الوديان الغائرة عميقاً في الأرض. في أحد الأقسام إلى يسارنا، حيث تزداد مخاطر طريق ضيق بفعل مُنحدر ينتهي بجرف، كانت أقدامنا المتدلية تهتز من فوقه، وإذ ذاك أدركت أن المعلومات التي قدمها لنا السكان المحليين لم تكن مبالغاً فيها كثيراً، وهو ما ظنناه بادئ الأمر. في الساعة الثانية خرجنا من السلسلة الجبلية لنرتقي بعدها سفح الجبل. وبات طريقنا بعد ذلك ممتداً فوق كتل مستوية من حجر الكلس حتى الساعة الثالثة والنصف وعندئذٍ توقفنا في وادٍ ضيق قرب آبار ماء. كانت التلال في هذه البقعة خالية من الأشجار والأدغال، لكن بعض الأعشاب تبدو منتشرة هنا وهناك. أما الوهاد التي تقطعها فكانت رغم قعرها الصخري تحتوي على أشجار الطرفاء[1].

لم يكن متسلقو الجبال الذين يرافقوننا اجتماعيين أو مرحين. وبعد حلول الظلام شاهدت وجود خمس نيران مختلفة، وكان يجتمع من حول كل نار مجموعة من البدو.

السابع والعشرون من ديسمبر / كانون الأول: في الساعة الخامسة والنصف، كان المحرار يشير إلى 53 فهرنهايت. غير أن الشمس لم تشرق بما يكفي لبعث الدفء في أوصالنا حتى الساعة السابعة وعند ذاك يتمكن المرشدون من مواصلة الرحلة. واصلنا صعودنا في نفس المنطقة كما فعلنا يوم أمس، وكلما تقدمنا أكثر شحت النباتات والأعشاب حتى اختفت

* لم أكن أعلم أن المن يستخرج هنا من هذه الشجرة كما هو الحال في المنطقة القريبة من جبل سيناء.

نهائياً. وفي التاسعة والنصف وصلنا قمة السلسلة وهناك حصلنا على منظر جيد للخطوط العامة للتلال التي تشكل الجزء الأكثر ارتفاعاً في السلسلة. وكانت تظهر بنفس صفات وخواص التشكيلات الكلسية فترتفع بانحدار يصل إلى 30 درجة باتجاه الأفق وتنتهي في الجهة الجنوبية بجرف شديد العمق. واستمر طريقنا مسافة لا بأس بها على امتداد سطح إحدى هذه التشكيلات. كان الطريق أشبه بسلالم ناتئة تبرز من وجه الجرف وتبدو معلقة بكتل صخرية خطرة، في حين تغور إلى أسفل مسافة سبعمائة أو ثمانمائة قدم. ولما كان هذا الطريق شديد الضيق لا يسمح للحمار بأن يمر فيه وهو محمل بالأمتعة كما هو مألوف، فقد حمل راكبو الحيوانات ما لم تستطع الأخيرة حمله.

واصلنا الآن هبوطنا عن طريق ممر شديد الانحدار والانزلاق حتى إننا اضطررنا إلى خلع أحذيتنا. ولكن على الرغم من ذلك استمرت الحمير في تقدمها وهي تخطو خطوات سريعة دون أن تخطئ موضع قدم. ولكن قبل هذا بوقت قصير، انفصل أحد الرجال عن جماعته وطلب مني اللحاق به. فامتثلت له. وبعد أن سرنا مسافة قصيرة باتجاه اسفل الجرف متشبثين بالأغصان وجذور الأشجار، استدرنا فجأة من حول إحدى الصخور ووجدنا أن الطريق يمتد على طول النتوء الضيق مسافة مائتي باردة تقريباً. بدأ الطريق أملس كالزجاج، ولم يزد عرضه في كثير من الأحيان عن قدم واحدة، يحف به جرف شديد الانحدار من كل جانب. لم يعرف أن كان يتوقع مني أن أقلد ما قام به بالسير في طريق مختصر، أو أن كان يريد أن يظهر عدم خوفه ومثابرته. غير أننا سرعان ما أصبحنا أمام المشهد، وهنا توقف واستفسر مبتسماً إن كان في وسعي أن أتقدم أكثر ثم خطا خطوات حذرة على امتداد الطريق معتمداً على كلتا يديه في الأماكن التي تبرز فيها الصخرة فتضطره إلى ثني جسده فوق الجرف، وفي غضون دقائق عديدة كان يجلس بأمان فوق الطرف المقابل يؤشر لي ويناديني بأن أحذو حذوه. غير أن ذلك لم يكن في مستطاعي لذلك عدت أدراجي لمرافقة الآخرين وسلوك الطريق الأكثر أماناً.

في الساعة الثانية والنصف مررنا ببعض القرى المنتشرة انتشاراً يفتقر إلى الانتظام، وكانت الأكواخ مشيدة بحجارة غير مبنية بأحكام وفي الساعة الثالثة وصلنا إلى وادي

ومدينة (سيق). حتى الآن، ومنذ أن غادرنا بلدة (تنوف)، لم نصادف أي بشر. أما في هذا المكان فقد احتشد السكان بأعداد غفيرة للترحيب بنا ونحن نمر بهم. طلب البعض من الأهالي البقاء تلك الليلة في القرية. إلا أنني كنت تواقاً إلى مواصلة السير صوب (شيرازي) الذي وُصف بأنه أكثر الوديان كثافة ووفرة بالنبات. ومع هذا، فإن الاستقبال الذي حظينا به هناك جعلني فيما بعد أندم لأنني لم أستفد من العرض السخي الذي قدمه القرويون، إذ لا يمكن تصور وجود منطقة فريدة ببراريها ورومانسيتها كالمنطقة التي تمتد أمامنا هنا. هبطنا الجانب المنحدر لأحد الوهاد الضيقة عن طريق سلم. وكان عمق الوهاد يبلغ أربعمائة قدم ومررنا في طريقنا بالعديد من المنازل المتربعة فوق حدبات الأرض أو فوق صخور شديدة الانحدار، وكانت الجدران مبنية في بعض المناطق على نحو تبدو معه كأنها استمرار للجرف. لقد شيد المواطنون هذه البيوت الصغيرة المحكمة البناء على ما يبدو الواحد فوق الآخر بحيث أن منظرها من اسفل الوهاد معلقة في الهواء يقدم للناظر أجمل صورة ممكنة. ووجدناها هنا وسط الأنواع المختلفة من الأشجار والفواكه الرمان والليمون الحامض واللوز والجوز وجوز الطيب وأشجار القهوة والكروم. وفي فصل الصيف، لابد أن تعطي هذه الأشجار والفواكه عبقاً طيباً وتبدو منظراً رائعاً مؤثراً يغمره الاخضرار. لكن الوقت الآن شتاء، وباتت مجردة من أوراقها ومظهرها لا يوحي بالبهجة. كان الماء يتدفق من أماكن كثيرة، من أعالي التلال فتتلقفه الخزانات الصغيرة الموجودة إلى أسفل، ومنها يتم توزيعه على جميع أرجاء المنطقة. على أية حال، الماء شديد البرودة، حتى أنني رغم شدة ظمئي، لطول المسافة التي قطعناها، لم نتمكن من شرب أكثر من جرعة قليلة. وفي المنطقة الضيقة لهذا الوهاد وشدة انحدار جوانبه، فإن الأجزاء السفلى منه فقط هي التي تتلقى دفء أشعة الشمس ولو لفترة قصيرة في أثناء النهار. وحتى في الوقت الذي وصلنا فيه المكان، وجدناه شديد البرودة حتى أننا بعد توقف قصير أحسسنا بالسعادة ونحن نواصل الرحلة. بدأنا صعودنا من الجهة المقابلة من الوادي عن طريق سلالم أيضاً واجتزنا أرضاً وعرة غير مستوية وبعدها عبرنا طريقاً مستوياً ينمو عليه العليق والشوك. وفي الساعة الرابعة والنصف وصلنا مدينة صغيرة تدعى (هودن)، حيث وجدنا النباتات منتشرة فوق السهول المستوية. كانت

حقول الحبوب في هذه البقاع تقدم صورة مناقضة للمظهر المجدب والموحش للسطح العام للسلسلة. تبدو المياه وفيرة، وبعض أشجار الفواكه كبيرة الحجم. ويقوم المواطنون بصنع حزوز في العديد من ثمر الرمان الذي ينمو متجمعاً في نفس الغصن ويضعون تحتها طوس كبيرة يستمر العصير بالسقوط فيها. وبعد ذلك يتم مزج العصير بعصير العنب لصنع الخمرة.

بعد أن هبطنا مضيقاً آخر يصل إلى سبعمائة قدم، وصلنا مدينة ثالثة تدعى (شيرازي). كانت الأراضي المحيطة بها غير مستوية وعلى درجة كبيرة من الوعورة حتى إننا لم نجد مكاناً ننصب فيه خيمتنا. ولما كانت الليالي في هذا المرتفع شديدة البرودة، فقد كنت تواقاً إلى الحصول على بيت ليكون ملاذاً لنا. وبعد أن تم اقتيادنا من بيت لآخر، والسكان يرفضون السماح لنا بالدخول بحجة عدم وجود غرفة شاغرة، عثرنا في نهاية المطاف على منزل صغير منخفض وقذر حيث مكثنا مع أمتعتنا. لم نجلس وقتاً طويلاً حتى ظهرت لنا امرأة عجوز ومعها قطيع من الخراف والماعز. واكتشفنا أن السكان أرشدونا إلى هذا البيت رغبة منهم في تسلية أنفسهم مع صاحبته السريعة الغضب. ولم يخب ظنهم، إذ ما أن لمحت المرأة العجوز المتطفلين حتى انفجرت غاضبة وانتابتنا السعادة عندما قفلنا راجعين بأمان. على الرغم من أن الإنهاك أخذ منا كل مأخذ، إذ كنا قد سرنا طيلة النهار تقريباً، وكنا غير مسرورين لأننا طردنا، فإننا ما أن جلسنا تحت إحدى الصخور التي وقتنا من حدة الريح وأضرمنا النار لإعداد طعام العشاء، حتى بدت لنا المسألة برمتها مسلية ورحنا نضحك من أعماق قلوبنا. إلا أن العربي الذي كان يعمل دليلاً لنا لم يكن كذلك. ففي مثل حالتنا بدا من الواضح إنه يتعاطف معنا رغم أنه كان يبوح بالعكس. غير أن ذلك الرجل المؤمن حقاً، والشيخ الذي يتبعه خمسون رجلاً، كان لا يحتمل البتة أن يلقى مثل ذلك الإهمال والافتقار إلى حسن الضيافة. وبينما جلس يرتجف من شدة البرد، انصبت لعناته العديدة المتنوعة على رؤوس «شاربي الخمر الكفار» ولا أدري كم مضى من الوقت وهو يستمتع على هذا النحو. وبعد أن جمعنا كل الملابس التي معنا واخترنا أكثر منطقة ناعمة استطعنا العثور عليها، رحنا في نوم عميق.

في صباح اليوم الباكر تجمهر السكان من حولنا واستفسروا عن كيفية قضاء ليلتنا. ولما

وجدوا أننا لم نتبرم من المأوى ولا من حدة البرد، طلبوا من (علي) أن يخبرهم عن هويتنا والبلد الذي جئنا منه. بيد أنه التزم الصمت. بدا واضحاً أنهم كانوا يتوقعون أن نكون قد تعذبنا مثلما تعذب سكان المناطق المنخفضة الذين زاروهم. لهذا السبب كانت دهشتهم عظيمة عندما استفسروا بعد ذلك من خادمي وهو شخص ماكر يتكلم العربية بطلاقة كبيرة وعلموا بأننا قد جئنا من بلاد أشد برودة من بلادهم حيث «يوجد الثلج لستة أشهر في بلادنا بدلاً من أن يكون لعدة أيام في السنة في هذا المكان» وبعد أن أصغوا إلى هذه الإيضاحات، غابوا عنا بعض الوقت وأعدوا ملاذاً صغيراً لاستقبالنا سبق أن كان يستخدم زريبة للماشية. أخذونا إلى ذلك المكان وبعدها قدموا لنا وجبة طعام مؤلفة من التمور والحليب والفواكه المجففة.

تحتوي (شيرازي) على حوالي مائتي بيت صغير مشيدة عند بداية الوادي الذي يمتد إلى الجنوب والجنوب الشرقي حيث تقع السهول أسفله. كانت البيوت عبارة عن مبان صغيرة الحجم، مربعة الشكل، متينة البنيان على ما يبدو، وشيدت، على وجه الخصوص، لمقاومة الأمطار والعواصف التي تكتسح في هذه المناطق كل شيء أمامها. وثمة فتحات في الجدران تعمل عمل النوافذ، أما الباب فصغير جداً. ولا يحتوي أي من هذه المباني على أكثر من طابق واحد. وعلى الرغم من أن سكانها يضطرون باستمرار إلى إيقاد النار داخلها طلباً للدفء ولإعداد الطعام، إلا أنها تخلو من المداخن أو أي منفذ آخر للدخان باستثناء الباب أو النافذة. ومع هذا فإن الإزعاج ليس بتلك الدرجة الكبيرة التي يمكن تخيلها طالما أنهم يصنعون كميات كبيرة من الفحم الذي يستخدم على نطاق واسع، مع نوع آخر من نبات الخث الذي يحصلون عليه من بعض الأراضي السبخة في الجزء الأسفل من الوادي. ولا أعرف إن كان أعداد هذا الفحم يعود إلى غرابة في طبعهم، لكنني لم أعلم البتة بوجود أي حادثة بسبب استعماله على الرغم من أن الغرف التي يحرق فيها باستمرار منخفضة ومحصورة وإن الأبواب والنوافذ تغلق ليلاً.

أمضينا الأيام الثلاثة التالية ونحن نقطع الأقاليم بمختلف الاتجاهات وسأقدم الآن نتيجة ملاحظتنا عن شكل السلسلة الجبلية ومنتجاتها. يحتل (الجبل الأخضر) مساحة من الأرض

تقدر من الشرق إلى الغرب بمسافة ثلاثين ميلاً، وهذا هو طول السلسلة. وفي الجهة اليمنى تتقاطع الجبال مع وديان ضيقة عميقة تسير فيها التيارات المائية والسيول عند فصل الأمطار، فتضيع مع التربة الرملية التي تغطي السهول أو تصب مياهها في المحيط. ويبلغ الحد الأقصى لعرض السلسلة أربعة عشر ميلاً، والمنحدرات الجنوبية والشمالية شديدة. وعلى وجه العموم، ومن خلال وصفي للطريق، فإن هذه السلسلة لا تستحق الوصف الذي توصف به «الأخضر» لأن جزءاً عظيماً من سطحها عبارة عن صخور كلسية جرداء تشكل في بعض المناطق كتلاً مسطحة عارية، وفي أحيان أخرى، أي في المناطق الضحلة نجد ترسبات طينية في التجاويف مجدبة مثلها مثل أسوأ السهول. إلا أن الوديان ذات التجاويف العديدة مزروعة بكثافة وفاكهتها وفيرة حتى أن بعض الكتاب عدّوها من الأمور الشائعة في السلسلة، ومن هنا جاء النعت الذي وصفت به. وأهم المنتجات فيها الكروم التي تمتد على طول الوادي مسافة أميال، وتنمو هذه على شكل مدرجات وتلتف من حول أعمدة يبلغ ارتفاعها ستة أقدام وتروى هذه المزروعات بالجداول الاصطناعية وتبدو التربة غنية وخصبة. والفواكه متعددة الأنواع، ويصنع النبيذ من العنب الأبيض في حين يستعمل العنب الأسود الكبير الحجم للتجفيف.

يعد العرب شجرة اللوز عُمانية الموطن. وحجمها كبير جداً يفوق حجم مثيلاتها الموجودة في السهول. ويبلغ طول بعضها ثلاثين إلى أربعين قدم، ويوجد النوعان الحلو والمر، وفي الوقت الذي يكون فيه اللوز المر من المقبلات، فإن النوع الأول يدخل في عمل جميع الأطباق سواء كانت من الحبوب أو المربيات أو طعام الحيوانات. ويكثر الجوز والتين وجوز الطيب أيضاً، وتكون الثمار الأخيرة أصغر حجماً من تلك التي تستورد من الجزر الشرقية إلا أنها موازية لها من حيث النكهة. أما التين فطعمه لذيذ لكنه صغير الحجم جداً وأقل شأناً من حيث الحجم والنكهة من ذلك التين الذي يستورد من تركيا. ويجفف التين ويباع في جميع المدن بكميات كبيرة. كما تنمو كميات قليلة من البن، لكن بسبب العناية القليلة التي تولى لها، فإن نوعيتها أقل شأناً من قهوة اليمن. يضاف إلى ذلك تنتج جميع الفواكه والحبوب المعروفة في المناطق السهلية بكميات كبيرة. وتحصل (مسقط)

وغيرها من موانئ ساحل عُمان البحري ورأس الخيمة والشارقة والموانئ الجنوبية الواقعة على الخليج العربي على ما تحتاجه من هذه الموارد من هذه السلسلة.

من خلال تجربة المحرار اكتشفت أن الماء يغلي في (شيرازي) بدرجة 200,75 فهرنهايت. وهذا يعني أن الارتفاع يبلغ ستة آلاف ومائة وسبعة وثمانين قدم. وقد تأكد لي من خلال مجموعة من الملاحظات الأخرى أن المنطقة تنخفض عن قمة الجزء الأعظم من السلسلة بمقدار ثمانمائة إلى ألف قدم. وبعد سقوط الأمطار في هذا الفصل، يكثر سقوط الثلج لكنه قلما يبقى على سطح الأرض أكثر من بضع ساعات. وبقدر ما ساعدتني استفساراتي، فإن المناخ في فصل الصيف لابد أن يكون معتدلاً جداً، ويقول السكان المحليون إنه ليس بأدفأ من السهول الواقعة أسفل المنطقة. وفي الوقت الراهن، فإن الريح الحارة التي طالما يكثر هبوبها هناك غير معروفة هنا تماماً. لهذا السبب لم أتمكن إلا من الاستنتاج بأن هذا المكان يشكل محل إقامة جميلاً عندما يكون كل شيء متفتحاً. والماء الذي يتدفق دوماً من ينابيع عديدة لا ينضب. وفي (شيرازي) يوجد جدول ماء غزير، وبعد أن يتجه إلى خزان عميق وواسع وبكميات كبيرة لإرواء مجمل نباتات الوادي، فإنه ينساب إلى اسفل بكميات كبيرة ويزود قرية (بركة الموز) الواقعة عند نهايته.

في بعض الوديان الواقعة إلى الجهة الجنوبية الشرقية من السلسلة، حيث تكثر نباتات العليق والأجمات الكثيفة، توجد الخنازير البرية والثعالب والضباع بأعداد كبيرة كما يقال. وقد شاهدنا الثعالب والضباع، لكننا لم نكن محظوظين بمشاهدة الخنازير.



الفصل العاشر

قبيلة بني ريام

استحوذت قبيلة (بني ريام) التي تقطن هذه السلسلة من الجبال على جلّ اهتمامي في أثناء إقامتي هناك. أظن أن هناك الكثير من الأسباب التي تدعو إلى الاعتقاد والتصديق بتوكيدهم بأنهم لم يعرفوا في حياتهم سيداً عليهم. ولما لم يملكوا الجرأة البتة في الذهاب بعيداً إلا جماعات صغيرة للتخلص من مختلف البضائع عن طريق بيعها، ولا يتوغلون في السير إلى ما وراء قدمات الجبال، حيث توجد الأسواق المنتظمة، فإنه يمكن عدهم قوماً منعزلاً لا يرتبط بغيره من القبائل العديدة المنتشرة في السهول الممتدة إلى أسفل. إن الطبيعة القاسية والوعرة والمنحدرة التي تتميز بها طرقاتهم التي غالباً ما تؤدي إلى شعب لا يندفع فيها سوى عدد ضئيل من الرجال الأشداء من بين كل ألف رجل، والمواقع الحصينة التي اختاروها ليشيدوا عليها قراهم، تكفي كلها لضمان استقلالهم.

إن أعدادهم لا تتجاوز أكثر من ألف نسمة. كما أن الوعي بهذا الضعف في قلة عددهم جعلهم يدركون أن أواصر الاتحاد القوية من مستلزمات بقائهم. فهم يفخرون بالقول إنه في الوقت الذي كانت فيه الأراضي المنخفضة قد عانت في فترات متباينة من غزوات أجنبية أو سادتها الفوضى والقلاقل الناجمة عن المشاجرات الداخلية، فإنهم كانوا يزرعون الكروم والحبوب بسلام دون خوف أو انقطاع. وعلى الرغم من أنهم اشتهروا بالثراء، إلا أن الأئمة لم يتمكنوا البتة من فرض أي رسوم عليهم. ومن الناحية الشخصية، وعلى الرغم من أنهم يتصفون بأجسام رياضية أقوى من أجسام جيرانهم سكان السهول، فإنهم لا يتمتعون بالمنظر الصحي والنظرة القوية التي يعرف بها سكان الجبال. على العكس من ذلك، تجد وجوههم مغضنة كثيرة التجاعيد وتبدو وكأن أصحابها يعانون من تقدم في السن سابق لأوانه.

ومنذ اللحظة الأولى التي ذكرت لي فيها هذه الجبال، سمحت لخيالي أن يعتمد على

المعاملة الطيبة التي يمكن أن أتوقعها من استفساراتهم وقد تصورت، من خلال الاعتقاد البسيط جداً بقصص العرب المبالغ فيها، سلسلة من التلال المخضوضرة التي تغطيها النباتات وتزينها غابات الأشجار الباسقة ويسكنها قوم بسطاء يثيرون الاهتمام تشكل عاداتهم وظروفهم واستعمالاتهم ميداناً مناسباً للبحث. وأمام القارئ أضع نتائج مثل هذه التوقعات.

النساء يتجولن بلا خمار وحيثما التقيناهن، كن يؤدين أعمالهن في رعاية الكروم أو يقمن بأعمال أخرى ذات صلة بالزراعة أو يحملن الماء فوق رؤوسهن بعد أن يأتين به من الينابيع في أواني تشبه تلك المستعملة في الهند. كما أن المشي المستمر في الهواء الطلق منح مشيتهن مرونة وحرية كما مُنحت بشرتهن صفاءً وحمرة لم نصادف مثلها عند الإناث في المناطق السفلى. لقد جعلت هذه الصفات، علاوة على صفة المرح والقوام الممشوق الفارع ذي التقاطيع الجميلة، جعلت منهن موضوعاً مثيراً للانتباه أكثر من أزواجهن الشرفاء. لقد ندمت أكثر من مرة– عندما كنت أتجاذب أطراف الحديث معهن– بأن القدر لم يمنحهن مصيراً أقل خشونة من هذا على الرغم من جمال وجوههن وقوامهن. ومع هذا فإنهن يشتركن مع غيرهن– لأسباب محلية وغيرها– في وجودهن في أسفل سلم الظروف الاجتماعية، فيبدو عليهن الرضا لما آلت إليه أمورهن وربما نشك في إمكانية أن يزيد أي تغيير من مقدار سعادتهن العامة.

الخميس، الحادي والثلاثون من ديسمبر / كانون الأول: بات من الضروري لنا الآن العودة إلى نزوى إذ كنت أتوقع رسائل تخص مواصلة رحلتي، إلا أن عقبة غير متوقعة برزت أمامي فأثارت انزعاجي كثيراً. فقد شكا الناس الذين أتينا بهم من (تنوف) من شدة البرد وكانوا يرغبون في العودة بعد وصولنا (شيرازي) مباشرة، وقد أيدهم وشجعهم في هذا المسعى دليلنا العربي. وفي يوم أمس باتوا أكثر إلحاحاً على نحو غير مألوف، لكنهم، بعد أن رأوا لا مبالاتي، انتهزوا فرصة غيابنا عن البيت واخرجوا كل محتويات الحقائب التي وضعنا فيها ما لدينا من متاع وكسروا بعض الحاجيات ورحلوا. أصبحنا بهذا لا نملك، ونحن في طريق عودتنا، أي وسيلة للخروج ولما كنا ندرك مدى ولع القرويين بالمشاجرة، فإنني رغبت في

الرحيل قبل أن يحدث ما يدفعهم إلى مزيد من الإزعاج. لهذا السبب، توجهت في هذا الصباح إلى الشيخ الذي لم يظهر أي رغبة في مساعدتنا، لكن بعد حديث استمر ساعتين – لأن العرب لا يقومون بأي عمل مهما كان تافهاً إلا بعد حديث مطنب– وافق، لقاء تقديم هدية له، بأن يزودنا بالحمير ومرافقتنا إلى (بركة الموز). تم إعداد كل شيء في الساعة الثامنة والنصف وعندئذٍ استأنفنا هبوطنا إلى (نزوى) سالكين طريقاً أخرى تدعى(درب مويدن) Moidien ويقع اتجاهها على درجة 13 شرقاً. غير أنني لا أرى ضرورة لأن أصف بالتفصيل إلتواءات ومنعطفات ذلك الطريق الذي سلكناه.

كان يبرز أمامنا ومن وسط الوادي تل هرمي الشكل يقع على قمته برج مهدم ذو أبعاد عظيمة وبناء ضخم. ويقال أن هذا المبنى كان في السنوات الأخيرة يستخدم مسجداً. ولم أتمكن من التأكد من تاريخ بنائه لكن التقاليد تؤكد بأنه يستخدم مكاناً للعبادة من الأجداد الوثنيين. على أي حال، لو كان الأمر صحيحاً في كلتا الحالتين بأنه كان يستخدم لذلك الغرض، فإن متسلقي الجبال لابد قد اندفعوا بدافع الحماس الديني أكثر مما هم عليه الآن – إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار وعورة الطريق إلى القمة وشدة انحداره.

بعد أن سرنا باتجاه الجانب الغربي من الوادي، وكان الطريق يؤدي في بعض الأحيان إلى عدد من التلال الأخرى، والكثير من الأراضي غير المستوية التي تمتد مسافة لا بأس بها من ورائه، ويصل في أحيان أخرى إلى مكان قريب من الحافة، وصلنا في الساعة العاشرة والنصف إلى قمة أحد الممرات ومن هناك شاهدنا منظراً مدهشاً للوادي من تحتنا. كانت الكروم والأراضي المدرجة تمتد ثلاثة أو أربعة أميال من (شيرازي) والى الأسفل من ذلك، كانت ثمة أراضٍ مزروعة تظهر هنا وهناك على مد البصر. كما كانت هناك سلسلة من برك الماء الفسيحة وكانت البركة الواحدة الجميلة التي تجتمع وتتآلف مع البركة الأخرى تشكل نقيضاً تاماً لخط الظلال الهادئ الذي تشكله الجدران الرائعة أو الصخور المعلقة على كلا الجانبين. استغرق وصولنا قاع هذا الممر وقتاً، حيث وصلنا في الساعة الثانية عشرة بعد أن غَذَذْنَا السير إليه. لم يكن هناك سبب يدفعني إلى الهبوط إلى أسفل، وكان ينبغي لي أن أفكر بأن ما من مخلوق يتمتع بكامل قواه العقلية على استعداد لمحاولة القيام بهذا الهبوط، إلا أن

دليلنا العجوز الشيخ، وبعد أن قطع نصف المسافة بلغ به الإعياء كل مبلغ، وعلى الرغم من احتجاجنا كلنا، اعتلى ظهر حماره وبهذا أكمل بقية المسافة. وقلت له: «صديقي سَعْد! لو أنك حاولت ذلك لدَقَقْتَ يقيناً عنقك». فرد علي: «ربما يحدث ذلك، لكن الله أكبر. إنني منهك».

كانت الدرجات المصنوعة من حجارة غير مهندمة والتي يبلغ عرض الواحدة منها ثلاثة أقدام قد اصطفت على امتداد الحافة المُنحدرة، بارزة من وجه جرف عمودي تقريباً. في هذه الأماكن التي يكون فيها عرض الصخور غير كاف، فإنها باتت شديدة الانحدار. وإذا ما أخذنا هذا الأمر بنظر الاعتبار، إضافة إلى العديد من الصعوبات الأخرى التي تم التغلب عليها بمثابرة ملائمة، فإنه لا مناص من القول بأن العقل الذي استطاع أن يفكر في عمل كبير كهذا وينجزه لابد وأن يكون، في بلاد كالجزيرة العربية حيث الأشغال العامة الضخمة تكاد تكون غير معروفة تماماً، إنّ عقلاً كهذا لابد وأن يكون من نماط غير عادي. أصبحنا الآن نهبط داخل (وادي مويدن) الذي يمتد محتفظاً باسمه من شيرازي وحتى (بركة الموز) وفي كل المناطق التي سرنا فيها، لم يكن عرضه يتجاوز مائة خطوة. أما التلال فترتفع ارتفاعاً عمودياً يصل في بعض الأحيان إلى حوالي 2000 إلى 3000 قدم. وبهذا فهي تشبه جرفاً عظيماً وكانت لدينا فرصة طيبة لدراسة البنية الجيولوجية لهذه السلسلة. ويبدو أن جميعها كانت تتكون من:

1- صخور كلسية شاهقة.

2- صخور رملية حمراء قديمة ذات عروق زجاجية.

3- طبقات من العروق الزجاجية والغرانيت.

وقد انشطرت كتل عظيمة من جوانب هذه السلسلة وسدت قصر الوادي مما اضطرنا إلى السير من حولها أو من فوقها. وثمة جدول ماء كبير يقطعها في الوسط، كما انتشرت بعض القرى الصغيرة وبساتين النخيل ومساحات من أراض مزروعة هنا وهناك، حتى وصلنا أخيراً في الساعة الخامسة إلى قرية بركة الموز الواقعة عند مدخل الممر حيث ينفتح بعد ذلك باتجاه السهل.

وعندما كنا نتناول طعامنا في المساء، لم نستطع منع أنفسنا من أن يهنئ أحدنا الآخر لعودتنا من الرحلة، التي جعلتنا بفضل توكيد العرب المستمر الذين أخبرناهم بها، نصدق باستحالة تحقيقها إلا بعد بذل جهد جهيد وتحمل مخاطر شديدة. في البركة أو (بركة الموز) ثمة حصن يحتوي على قلعة فسيحة الأرجاء جميلة المظهر يملكها شيخ (السويق) وينتشر من حولها العديد من البساتين الكبيرة والمزارع الواسعة. والأشجار في هذه البقعة لا تعد ولا تحصى، ومن هنا جاءت التسمية. وثمة نهر كبير يدعى (الفلج) يزود المنطقة بالمياه، وتتمتع البركة، بسبب موقعها بجو بارد جميل تهب نسماته من الجبل الأخضر وتشتهر بكونها ذات مناخ صحي جداً.

الأول من يناير / كانون الثاني: بعد أن كافأت الشيخ بالهدية الموعودة، التي فرح بها أشد الفرح، حصلنا على عدد جيد من الحمير وانطلقنا إلى (نزوى). وبعد مغادرتنا المكان بوقت قصير، استقبلنا شيخ المنطقة بحرس من خمسين رجلاً يعتلون صهوات الإبل. وعلى الرغم من أن الشيخ كان يبدو متعالياً في سلوكه مع أتباعه وأشد تباهياً من الزعماء الآخرين في ردائه عندما يكون في المدينة، إلاّ أنه هنا، وبالمقابل، يشترك مع أتباعه في لبسه، إذ لا يرتدي أكثر من قطعة قماش ملفوفة حول وسطه ويضع عمامة فوق رأسه. ولما سألته عن سبب ذلك أجاب بأن المرء إذا ما ارتدى ثياباً تجعله يبرز بين بقية الأفراد، فإنه سرعان ما يميزه رماة البدو من بين رفاقه باعتباره القائد أو الزعيم، وسيكون على الأرجح أول الذين يلقون مصرعهم. كان هذا الكلام مسلياً. إلا إنني اضطررت إلى أن أعزو ذلك إلى سبب آخر. فالأشخاص الذين يعيشون في المدن والواحات المنتشرة انتشاراً واسعاً في الصحراء، لا يفقدون – بسبب رحلاتهم المتكررة من مكان إلى آخر– إلا قدراً قليلاً من ارتباط البدوي الحقيقي بالعيش في الصحراء أو التنقل في أرجائها، بل وتبدو عليهم مظاهر الفرح الشديد عندما تضطرهم مناسبة أو حادثة للقيام بذلك. وكما لاحظت في مثل هذه المناسبات، فإن أفعالهم تتجه كلها إلى التشبه – إلى أبعد حد ممكن– بالبدو في الملبس والسلوك. إن التبدل من حيث المظهر بدءاً برزانة البدوي المقيم وحسن تصرفه لينتهي بالضحك والمرح والنزوات الجامحة عند البدو المتنقّل، إنما يبعث على السرور كثيراً.

بعد أن شاهدت جماعتنا وقد امتطى أفرادها الحمير، لم أستطع منع نفسي من الاستفسار من الشيخ عن السبب الذي يحول بينه وبين تطبيق إجراءات فعالة ضد جماعات اللصوص الذين يكثرون في المنطقة. قال ابن عريش Arish: «إن جمالنا، كما ترى، حيوانات لطيفة جداً، ولا املك سبباً يجعلني أرتاب في شجاعة رجالي. لكن اللصوص يقتربون جماعات جماعات تتألف كل واحدة منها من ثلاثين أو أربعين شخص، ويأتون بالعديد من الجمال التي توضع فوقها السلع المسروقة قبل أن تكون هناك فرصة لإعداد قوة لمقاومتهم، ومن ثم يهربون إلى الصحراء. ولما كنا لا نعرف الأماكن التي يرتادونها، فإننا لا نستطيع اللحاق بهم. علاوة على ذلك، كلما حاولنا مطاردتهم، وجدنا أن ابلنا لا تستطيع مجاراتهم في العدو. ولو كان لدي مجموعة من ثلاثين جواداً، فإنني سأحارب ستة أشهر ليتمان المرور الآمن للذهب خلال أي جزء من أجزاء الأراضي المجاورة».

خلال رحلتي في هذه البلاد، بغرض التعرف على سلوك البدو وحياتهم الداخلية، فقد اختلطت بكثرة معهم، وطالما نمت وعشت في أكواخهم وخيامهم. وفي جميع المناسبات، استقبلوني استقبالاً ودياً، وأحسنوا ضيافتي في جميع الأحوال بما هو فوق طاقتهم. وقد أثبتت صفتي كطبيب فائدة كبيرة لي على الرغم من أنني لابد من أن أعترف بأنني كنت كثيراً ما أتعرض للإحراج في حالات لا تستوجب ذلك أو لا طائل من ورائها. وللعرب أفكار فريدة تخص الدواء – الدواء بالمعنى العام الشامل– طالما أنهم لا ينظرون إلى أي نتائج محدودة من استخدام دواء ما، بل يلتهمون بشراهة كل ما يعطى لهم من أدوية. ففي صباح يوم من الأيام رميت خارج الباب بعض الحافظات المتضررة التي تحتوي على حبوب الحديد والراوند. لكن العرب الذين شاهدوني وأنا أتناول هذه الحبوب من داخل الصندوق الذي أحمله دوماً معي لأرميها خارجاً، كانت لديهم فكرة أخرى؛ وبعد أن تدافعوا إلى المكان وانضمت إليهم بعض الفتيات، جمعوا الحبوب وشرعوا بالتهامها. لقد كان لدي دوماً مرضى من غير البشر كالجياد والابل والحمير وفي بعض الأحيان القطط. إن من الأخطاء التي كان يرتكبها الأوربيون هي عدم القيام بمهمة التطبيب للحيوانات، لأن العربي لن يفهم السبب الذي يجعلك تقدم العلاج لعبد من العبيد يمكن تعويض خسارته

بمبلغ لا يتجاوز الثلاثين أو الأربعين دولاراً- بينما لا تفعل ذات الشيء بالنسبة للحيوانات التي هي أكثر قيمة وأهمية إنه لأمرٌ مقبول ويتماشى مع الأفكار الأوروبية أن نتحدث عن رفعة الإنسان على الحيوان، إلاّ أن الرجل الآسيوي لن يفهم السبب الذي يدفعك إلى عدم علاج الحيوان. برهنت ممارستي للتطبيب أن مجاله واسع جداً، فإذا لم نكن في سفر، فإن الجزء الأول من النهار مخصصٌ للعلاج. كنت دوماً أحمل معي كميات كبيرة جداً من الحبوب المصنوعة من العنبر المخلوط بالأفيون واكتشفت – استناداً إلى خاصية العنبر التي يفترض أنها موجودة- بأنني لا أستطيع أن أقدم للعربي هدية أفضل منها. ومع اقتراب وقت الظهيرة، خرجت للسير بمفردي مصطحباً معي بندقيتي بعد أن دونت ملاحظاتي، ثم رافقني بعد ذلك حشد من الصبيان الذين كانوا يجمعون الأزهار والأعشاب الصحراوية. ولكي أتجنب شكوكهم، عزوت بعض الخصائص الطبية للمواد التي كانوا يحملونها، وهنا لم يندهش العرب البتة لعنايتي المفرطة بهم.

كل الشرقيين ينهضون مبكراً. فالعرب يأوون إلى مضاجعهم في الساعة العاشرة تقريباً وينتهي نومهم الأول بعد منتصف الليل بوقت قصير. الطبقات الفقيرة ترقد فوق حصران مفروشة على الأرض. أما الذين يعيشون في ظروف أفضل، فينامون فوق هيكل سريري فقط بأربعة أرجل تقطعه الحبال. وعلى الرغم من أنني عرفت بدوياً في إحدى رحلاتي عبر الصحراء يسافر ثلاثة أيام والعديد من الليالي دون أن يغمض له جفن باستثناء غفواته وهو على ظهر جمله، إلا أن مثل هذا البدوي ينام القسط الأعظم من النهار في المدينة أو المخيم دون أن يجد في ذلك عقبة تحول دون نومه في الليل ويعبر عن دهشته لأنني لا أحذو حذوه. وحالما يبزغ الفجر، يبدأ العربي بأداء شعائر الصلاة قائلاً: «لا اله إلا الله، محمد رسول الله»، ومن ثم يبدأ بإيقاظ أولئك النائمين من حوله (إذ أنهم ينامون على شكل جماعات في الصحراء وعلى ظهر السفينة) ويدعوهم إلى الانضمام إليه في صلاته التي يبدأها عادة بتلاوة آيات من القرآن الكريم مشيراً إلى أن الصلاة خير من النوم. ويتناولون أول وجبة طعام ويسمونها el moza (المزّة؟) بعد ذلك مباشرة. وإذا كان الشيخ حاضراً، فإن طعام الفطور يتكون من القهوة والرز والسمك والخضروات. أما الطبقات الأكثر فقراً فتكتفي بالتمر

والخبز اليابس. وتتناول الطبقة الأولى من السكان وجبة أخرى في منتصف النهار، تتكون من لحم مطبوخ بعدة أشكال وفواكه. إلا أن الوجبة الرئيسية عند كل الطبقات هي تلك التي يتناولها السكان وقت غروب الشمس. كان عشاؤنا يتكون من حَمَلْ أو خروف مسلوق بكامله ومحشو بالرز والبهارات. وتمتلئ الأطباق بعظام لحم الضأن والمرق والكاري. وليس ثمة حاجة للكراسي أو المناضد هنا، بل يؤتى بجميع المأكولات وتوضع فوق حصران دائرية الشكل فوق الأرض مباشرة. ويتخذ الناس مجلسهم من حول هذه الحصران دون أن يعيروا اهتماماً لأي قاعدة من قواعد الأفضلية. كل ما هنالك أن أحدهم يطلب إليه البدء بتناول الطعام، ومن ثم يقول «بسم الله» فيرددها الجميع من بعده وعندئذ تمتد عشرات الأيدي في الأطباق. ولا تقدم المشروبات في أثناء تناول الطعام لكن جرعة واحدة من الماء تعقب الانتهاء منه، ومن ثم يقول الجميع «الحمد لله» وينهض الضيوف في حين يترك بقية الطعام للعبيد والخدم.

يقدم سلوك البدوي بعض التناقضات الفريدة. فهو شخص كسول على الرغم من قدرته على القيام بأعمال تتطلب جهداً شاقاً. وهو يبقى ضمن نطاق مخيمه أسابيع عديدة، يأكل ويشرب القهوة ويدخن النرجيلة ومن ثم يمتطي صهوة بعيره وينطلق صوب الصحراء في رحلة يقطع خلالها مائتين أو ثلاثمائة ميل. ومهما عانى من الحرمان أو التعب، فإنه لا ينطق بكلمة تذمر واحدة. وإزاء هذه العادات الكسولة في أوقات أخرى، يمكننا ملاحظة أن القرآن الكريم يُحرِّمُ كل أنواع ألعاب الحظ، وان تصرفاتهم البسيطة والفظة تحررهم تماماً من مباهج الحياة الأكثر تمدناً(*). وفي خلال وصفي لإقامتي مع بدو بني بو علي، قدمت وصفاً لرقصة الحرب التي يؤدونها، وهي رقصة رشيقة وجميلة. أما بقية أنواع التسلية لديهم فهي تافهة وتختلف كل الاختلاف عن تصرفاتهم الرزينة. وأحد هذه الأنماط من التسلية يتمثل في لعبة الرجل الأعمى التي يلعبها الأولاد في إنكلترا. وثمة لعبة أخرى تتمثل في إخفاء

(*) هذا الوصف غير الدقيق لشخصية البدوي رغم احتكاك المؤلف المباشر بها واقحام موضوع تحريم القرآن لألعاب القمار يدلأن على أن المؤلف ينطلق من أحكام مسبقة طابعها النظرة الاستعلائية والعداء الديني مما شكل حاجزاً بينه وبين من عرفهم من البدو على عكس رحالة أوروبيين لاحقين مثل Bent و Doughty و Thesiger كانوا أكثر قرباً إلى فهم طبيعة سكان البادية.

خاتم، أو أي أداة زينة أخرى، تحت واحد من الأكواب المقلوبة. ويكمن سر اللعبة في اكتشاف مكان وجود الخاتم. وهناك طلب كبير على رواة الحكايات المحترف بهم. وقد شعرت غالباً بدرجة عظيمة من المتعة وأنا أشهد أثر حكاياتهم في الناس الذين يصغون إليها. وهم لا يقدمون بأي فعل، وقلما يبدو عليهم الحماس أو الكلام بصوت أعلى مما يجب، لكن اختيار مجموعة المفردات التي تنساب بلا أي جهد، بل بقوة وطلاقة وتفرد وبقوة ذاكرة لا يبدو عليها الوهن، يحدث من الآثار ما يجعل أعظم خطيب فخوراً بذلك. فكل المشاعر التي يرغب في ظهورها تبرز في مثل هذه المناسبات.

وفي حالة غياب وسائل التسلية الأرقى من هذه، وبغياب الأدب والفنون، وبسبب حرمانهم من حكومتهم وطبيعة بلادهم من أي فرصة تؤدي إلى التطور العقلي، فإنه مما لا يدعو إلى الدهشة أن نفس أنماط الخرافات والسذاجة – التي كانت سائدة قبل قرون قليلة في أوروبا– لا تزال باقية في الجزيرة العربية. ويعتقد الكثيرون بوجود قوة للسحرة وأن السحر يتمثل في تحويل البشر إلى ماعز. وثمة زعم يفيد بأن هناك علامات تشير إلى وجود مثل هذه الأشياء التعسة. وإذا ما أراد البدوي أن يقدم على شراء شاة، فإنه يتحرى تلك العلامات بجد ورزانة. ومع هذا لم أستطع إقناعهم رغم إلحاحي بأن يكشفوا لي عن طبيعة تلك العلامات. وهناك قصص أخرى رويت لي ذات طبيعة مشابهة، ولكن بما أنها لم تكن مثيرة للاهتمام فإنني أمسك عن الحديث عنها. وتعزى قوة طلسمية إلى بعض الكلمات لهذا يضع هؤلاء العمائم والتعاويذ كغيرهم من المسلمين لكن استخدامها ليس شائعاً وسط عرب المدن.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الحادي عشر

بركة الموز – سمائل – السيب

من خلال ما شاهدته حتى الآن من البلاد، وما خلصت إليه من العديد من العرب والشيوخ الذين قطعوا الطريق مرات عديدة، لم أجد سبباً يدفعني إلى القيام بأي شيء سوى التقدم صوب (الدرعية) عاصمة الوهابيين بعد أن فرغت من تقصي الجزء الشمالي من عُمان. لهذا السبب رتبت بأن يواصل الملازم (وايتلوك) طريقه إلى (مسقط) للحصول على الأموال اللازمة لرحلتنا إضافة إلى البحث عن شخص له نفوذ واسع يرافقنا وهذا هو السبب الذي دفع به إلى السفر في وقت مبكر من صباح اليوم الثالث من يناير / كانون الثاني، بينما قمت أنا بإشغال نفسي بملء الخريطة الخاصة بطريقي من (صور). ومن هذا التاريخ وحتى الثاني عشر من نفس الشهر كنت منهمكاً كل الانهماك بالخريطة وبالقيام برحلات قصيرة إلى المناطق المجاورة. وفي أثناء عودتي من إحدى هذه الرحلات في صباح الثامن من يناير / كانون الثاني، وجدت أخباراً غير متوقعة في انتظاري.

فعندما قدمت طلباً للحكومة للحصول على إجازة والقيام برحلتي الحالية، طلبت إعلام الوكيل البريطاني في مسقط (روبن بن أصلان)، وهو شخصي يهودي، بأن يدفع لي مبلغاً من المال حيثما وجدت ذلك ضرورياً ولكن بسبب خطأ ما، ناجم عن ضغط في الأعمال عند مرور رسالتي بالقنصل، لم يتم أي رد بخصوص تلك الفقرة بالذات. لكن لدى الإشارة إلى مكتب الوزير، ساد الاعتقاد – عندما زودت بشهادة توضح أنني أقوم برحلتي بموجب تعليمات من الحكومة البريطانية وتطالب بتسهيل مهمتي وتقديم كل مساعدة ممكنة لي من أولئك الذين يرغبون في الاحتفاظ بصداقتهم معها– بأنها ليست ذات أهمية كبيرة، وأنني عندما كنت في مسقط حصلت على مبلغ كبير من المال. لهذا السبب، فإن دهشتي كانت عظيمة لما علمت من (وايتلوك) في هذا الصباح أن الوكيل رفض دفع قوائم حساباتي إلا إذا حصل مسبقاً على موافقة نائب القائد (جي. بي. آينز) المسؤول عن السفينة (بالينوروس)

الراسية آنذاك في الميناء والتي صدرت إليه التعليمات – وكنت أظن أنه في بومباي– بأن يقدم كل مساعدة ممكنة، لكنه، لدوافع لم أفهمها، لم يوافق هذه المرة.

كما أن العديد من التجار في (مسقط) رفضوا تزويدي بالمال اللازم، وكان يحثهم على ذلك الوكيل نفسه. وفي خضم هذه المعضلة غير المرضية وغير المتوقعة، لم يكن في وسعي أن أعرف كيف أواصل الرحلة لو لم أستلم رسالة من الإمام يوضح فيها إنه علم بما آلت إليه أموري فأصدر أوامره بأن تكون مصروفات إقامتي من خزانته الخاصة. إن المعارضة التي صادفتها في أماكن غير متوقعة نهائياً (وقد نشرت خارج البلاد على الفور) لم تخلق الشكوك إزاء نزاهة آرائي فحسب، بل أيضاً أثارت الأسئلة حول ما إذا كنت الشخص المؤتمن حقاً الذي حاولت أن أظهر به. لهذا السبب، كانت مشاعر الامتنان غير اعتيادية عندما وجدت نفسي وقد تخلصت من النتائج المحتملة لهذه الظنون بكرم من الأمير. وعلى أي حال، فإن التأخير الذي تسببت فيه هذه الحادثة أدى إلى نتائج أكثر خطورة وعرقلت عرقلة تامة أهداف رحلتي مؤقتاً.

مرت بضعة أيام قبل أن تصل رسائلي إلى الملازم (وايتلوك). وفي أثناء هذه الفترة حذرني الشيخ مراراً بأنني أعرض صحتي للخطر ببقائي فترة طويلة في نزوى. إن الغرباء القادمين من أي منطقة من عُمان قلما يمكثون ثلاثة أيام أو أربعة إلا وتهاجمهم حميات خطيرة. إلا أنني كنت واثقاً من صحتي العامة التي كانت بحالة ممتازة فلم أعر نصائحهم إلا القليل من الأهمية.

في اليوم العاشر، أصيب جميع خدمي بالمرض وفي اليوم الثالث عشر أصبت بالمرض بدوري. كانت الحمى قاسية جداً وفريدة، وكانت النوبة تحدث مرتين في اليوم ولا تترك المريض في بعض الأحيان يومين اثنين. لقد هاجمتني الحمى ونجم عن ذلك هذيان لثمان وأربعين ساعة بعد ظهورها أول مرة. لم يكن أحد يشرف علي فبت وحيداً كئيباً وحتى اليوم الثامن عشر، كنت لا أدري ما يدور من حولي. وأظن أن بعض العرب الذين أرسلهم الشيخ اهتموا بي بعض الوقت. وصلت الحمى في الليلة السابقة أقصى درجاتها، ثم بدأ يطرأ تغير نحو الأحسن. وسرعان ما بدأ الدم البارد يسري في عروقي ثانية واستعدت ملكاتي ورويداً

رويداً تحسنت أحوالي على الرغم من أنني كنت ضعيفاً وواهناً جداً.

في اليوم العشرين، انضم إليّ الملازم (وايتلوك) الذي لم يكن حظه بأسعد من حظنا. فقد كان يعاني بدوره من الحمى التي ألمت به في (مسقط) فتركته في منتهى الضعف حتى لم يعد يقوى على السير أو الوقوف على قدميه دون مساعدة. وكان قد جمع مبلغاً ضرورياً من المال وعقد اتفاقاً مع أحد الشيوخ، بحضور الإمام، يقضي بتزويدنا، لدى وصولنا إلى (البريمي)، بمائة من أتباعه يصحبوننا إلى (الأحساء) ومن هناك إلى (الدرعية). ولكن في الوقت الراهن كان من الضروري التخلي عن كل خططنا. فمواصلة الرحلة ونحن بهذا الوضع الصحي مستحيل. كما أن البقاء في نزوى يعني القضاء على الفرصة الوحيدة في شفاء بقية المرضى الذين بدأت صحتهم تتدهور تدهوراً سريعاً. وهنا تخليت عن كل رؤياي العظيمة وعزمت، رغم وخز الضمير القاسي، على مواصلة التقدم والسفر على الفور إلى (السيب) الواقعة على ساحل البحر حيث كنت أظن أن الجميع سيستعيدون عافيتهم نظراً لظروفها الصحية الجيدة.

في الثاني والعشرين من يناير، غادرنا (نزوى) بصحبة الشيخ وحوالي خمسين رجل من أتباعه في ظروف تختلف إلى حد ما عن الظروف التي صاحبتنا عند دخولنا أول مرة. فقد كنا في تلك المرة في تمام الصحة والعافية، وكنا نبتهج بفكرة زيارة أماكن مجهولة. أما الآن، وبعد أن هدّنا المرض وأنهك كاهلنا، بات مظهر رفاقنا ووضعهم لا يدعو إلى الحسد. فقد أخذ أحد الخدم يسقط من على ظهر حماره باستمرار واضطر البدو في نهاية المطاف إلى وضعه فوق ظهر أحد الجمال.

بعد أربع ساعات وصلنا (بركة الموز) التي سبق أن لاحظت بأنها تتميز بمناخ حسن. وهنا وجدت استحالة مواصلة الرحلة بسبب حالة الجماعة، لهذا نصبت الخيمة وقررت المكوث بضعة أيام. استمرت صحتي ومعنوياتي بالتحسن في بركة الموز، إلا أن بقية الأفراد لم تتحسن صحتهم إلا قليلاً. كان العرب لطيفين وزودونا بكل ما هو ضروري، وفي السادس والعشرين من يناير/ كانون الثاني، قمنا بتقويض الخيمة واستأنفنا رحلتنا بعد أن ساد الاعتقاد بأن الجماعة باتت في وضع قوي يكفي لمواصلة السير.

بعد أن غادرنا بركة الموز في الساعة الحادية عشرة صباحاً، واصلنا سيرنا مدة أربعين دقيقة وسط بستان من النخيل وفوق أرض مزروعة بعدها دخلنا في وادٍ صخري ضحل انتشرت على سطحه هنا وهناك بعض نباتات السُنْط. وفي الساعة الواحدة والنصف مررنا بقرية (أزكي)، ذات النخيل الوفير، والموقع الخلاب، إذ كانت تستقر في تجويف تحت بعض التلال التي انتشرت فيها مدن أخرى. وفي الساعة الثانية مررنا بقرية صغيرة تدعى (Karrut) وفي الساعة الثالثة من بعد الظهر وصلنا بلدة (إمطي) حيث توقفنا لقضاء الليل.

الأربعاء، السابع والعشرون: في الساعة الحادية عشرة صباحاً غادرنا بلدة (إمطي) التي تضم حوالي ثلاثمائة منزل. وكانت على مقربة من هذه البلدة قرية مساوية لها من حيث الحجم تدعى (تهامة). ومن هذه المنطقة بدأ طريقنا على امتداد أحد الوديان الصخرية يدعى وادي (رويحة) تحف به التلال على ارتفاع خمسمائة قدم من كلا الجانبين ثم مررنا ببعض القرى الأخرى وبساتين النخيل وكنا نشاهد المياه والمزروعات الكثيفة طيلة النهار. كما شاهدنا العديد من القوافل المؤلفة من ثلاثين إلى أربعين ناقة وهي تمر بنا محملة بالأسماك الطازجة، وبخاصة القرش، في طريقها إلى المدن الداخلية. لقد كان اقتراب رَتْلٍ طويل من الإبل وهي تمشي الهوينا في هذه الوديان الوعرة والضيقة من أكثر المشاهد جمالاً وتأثيراً. وقبل أن نبزغ من وراء أحد رؤوس التلال، كنا نسمع أولاً حادي العيس وهو يكسر طوق الجو الشديد الحرارة فيغني بعض الأغاني التراثية بصوت عال. كان لكل ناقة راكبها الخاص بها. ولما بات منظر القافلة كلها مكشوفاً، كانت البنادق والسيوف تدل على انعدام الأمن في مجمل البلاد، في حين أن أغطية الإبل المزركشة وألوانها الفاتحة والخيوط الصوفية الطويلة المتدلية من السروج المتعددة الألوان والتي تكاد تلامس الأرض، تبرز بروزاً واضحاً من بين الصخور الدكناء الكئيبة المنتشرة من حولها. كان النسيم عليلاً والسماء تغطيها السحب السوداء طيلة النهار. في الساعة الرابعة توقفنا في قرية (بيا) (Byah).

الخميس، الثامن والعشرون: أحدث أصحاب الإبل هذا الصباح جلبة شديدة. وبسبب نزوة من نزواتهم، أنزلوا كل الحاجيات من فوق ظهور الإبل بعد أن كانوا قد حملوها تواً ورفضوا مواصلة الرحلة وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً كانوا يوشكون على العودة إلى (نزوى)

وتركنا نتدبر أنفسنا بأنفسنا. وفي هذه اللحظة بالذات وصل شيخ عجوز أرسله شيخ (نزوى) على افتراض أن مثل هذا الأمر قد يحدث. وسرعان ما أعاد النظام إليهم وفي الساعة الثانية عشرة غادرنا القرية. كانت البلاد التي نقطعها تمتد بمحاذاة واد وهي تشبه المناطق التي أتيت على وصفها يوم أمس. كانت القرى والمياه العذبة وفيرة. وتظهر هذه كلها على الخارطة، ولن يفيد أي هدف مجرد وضع أسمائها لأنها لا تتميز بأي ميزة خارقة. كانت التلال الممتدة على الجانبين مكونة من صخور متبلورة ومتساوية في الارتفاع تقريباً. وكانت تبدو من حيث الشكل ذات مظهر هرمي ووعرة ودكناء وفيها عروق ذات لون رصاصي فاتح. ومع هذا فثمة تغير كبير في مظهر التربة. ففي حين أخذنا نقترب من الساحل، كانت تبدو رملية أكثر وذات لون فاتح. وبدلاً من أن نجد البساتين في السهول المنبسطة وفي داخل الواحات، بدأنا نشاهدها هنا في الوديان الضيقة وبدلاً من الأفلاج، شاهدنا غدران الماء كلها المؤدية إلى البساتين فوق سطح الأرض. الفواكه والحبوب أخذت تشح أكثر فأكثر ولم يعد ما يمكن رؤيته سوى أشجار النخيل. في الساعة الخامسة توقفنا في الطرف الجنوبي الشرقي من بلدة (سمائل) التي تعد محطة في منتصف الطريق بين (مسقط) و(نزوى). واتخذنا أحد الأكواخ الصغيرة جداً والنظيفة في آن واحد مأوى لنا. كان ثمة غدير من ماء عذب يترقرق من أمام الباب. وبسبب الإنهاك والوهن من مشاق رحلتنا في ذلك اليوم، ولكي أستمتع بعذوبة نسيم الماء العليل، فرشت سجادتي تحت إحدى الأشجار. وفي هذه الأثناء مر أحد الأعراب وتوقف أمامي وهو يحدق بي، فبان عليه التأثر لحالة الحزن البادية على ملامحي وسلم علي وأشار إلى غدير الماء النقي الذي كان ينساب قرب قدميّ وقال: «أنظر أيها الصديق: الماء الجاري يفرح النفس» ثم انحنى قليلاً وتركني بعد أن وضع كلتا يديه فوق صدره، وهي التحية الصامتة التي يتبعها أهل الشرق. كنت في وضع يمكنني من أن أخمن مقدار العاطفة. وقد كشف سلوك ابن الصحراء الكثير من مشاعر العطف حتى أنني لا أرجع إلى الحادثة – على الرغم من تفاهتها– دون أن تستبد بي العاطفة. حظينا بالكثير من الاهتمام والمجاملات من لدن شيخ البلدة. وعبر عن بالغ قلقه لرؤيته وضعنا الصحي وتوقع بثقة عالية أن نسترد عافيتنا تماماً في السيب. الأكثر من هذا، أنه عرض علينا السماح لاثنين من عبيده بمرافقتنا حتى الساحل،

وهذا ينم عن تحررٍ شديد لأن القليل من المسلمين يرغبون في إعطاء عبيدهم للنصارى.

الجمعة، التاسع والعشرون: في الساعة العاشرة والدقيقة الخمسين تركنا محطتنا المريحة ولم نصل الطرف الآخر من (سمائل) حتى الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخمسين. وعلى امتداد المسافة كلها، كانت المياه وفيرة. وفي المرتفعات القائمة على كلا جانبي الوادي، الذي يبلغ عرضه قرابة ربع ميل، شيدت الأبراج للمراقبة على مسافات متباينة وكان منظرها وهي متربعة فوق قمة صخرية وعرة خلاباً. وعند نهاية بستان (سمائل)، وجدنا بستاناً آخر مساوياً له في الكثافة يقطعه على نحو عرضي ووراء البستان، وباستثناء قرية صغيرة، يغدو الوادي صحراء قاحلة حتى وصلنا في الساعة الخامسة والدقيقة العشرين إلى (Furza) حيث يوجد حصن صغير مشيد فوق أحد التلال الغربية ومن حوله العديد من البيوت الجميلة. تعذبنا كثيراً بسبب حالتنا الضعيفة الراهنة من حرارة الجو التي كانت في بعض الأحيان لا تطاق في هذه الوديان الضيقة. وفي مثل هذه الحالات، غالباً ما كنت أعبر عن إعجابي بصبر البدو الذين كانوا يسيرون طيلة النهار إلى جوار إبلهم لا ينتعلون سوى صندل رثٍ لا يقيهم حرارة الرمال الشديدة ورؤوسهم عارية معرضة لأشعة الشمس الحارقة، ولا تند عنهم كلمة واحدة تنم عن التذمر أو نفاد الصبر، وفي المساء يكتفون بعشاء مؤلف من التمر والماء. وإذا ما هاجمهم المرض أو الألم، تراهم يظهرون نفس روح الصلابة والثبات الموروثة فيهم. وفي هذه المرة كان يصحبنا رجل عجوز يعاني من ألم باطني مما دفعه مرات عديدة إلى الترجل من على صهوة ناقته ليتلوى على نحو مؤلم جداً فوق الرمال. ومع هذا، فما أن تنتهي النوبة حتى تجده راضياً لا ينطق بكلمة واحدة تنم عن سخطه. وَيُعَوِّدُ هؤلاء البدو أولادهم من مرحلة مبكرة على كبت كل شكل من أشكال العواطف ومهما كانت شدة مصيبتهم، فإن كل ما يقولونه هو: «الله أكبر».

السبت، الثلاثون: في الساعة العاشرة والنصف واصلنا رحلتنا مرة أخرى، وكان سطح الأرض أجرد، مجدباً كما كان حاله يوم أمس وفي الساعة الثانية عشرة والنصف، وصلنا وادي (خور)، الذي كان يجري فيه جدول ماء كبير جداً ويصب في البحر؛ كان جدول الماء جميلاً ورقراقاً، ويبلغ عرضه في بعض الأحيان عشرين قدماً، مع برك ماء غير منتظمة يبلغ

عمقها ستة إلى ثمانية أقدام في حين تمتد بساتين النخيل على كلا الجانبين. بعد ذلك ارتقينا أرضاً مرتفعة وشاهدنا البحر. وبعد أن واصلنا رحلتنا فوق السهل البحري وصلنا في تمام الساعة الثالثة والدقيقة الخمسين مدينة (السيب) حيث أقمنا في حصن دائري صغير قرب ساحل البحر. لم تكن هناك أي مبالغة في جو مدينة السيب، إذ بعد أن استرحنا من عناء الرحلة، استرد جميع أفرادنا عافيتهم على جناح السرعة. ولكي نضمن عدم انتكاسة صحتنا، وهو أمر يخشى منه في مثل هذه النوبات أكثر من المرض نفسه، فقد قررت البقاء حتى اليوم العشرين. ولما وجدت بعد ذلك أننا بتنا كلنا في صحة جيدة، كتبت رسالة إلى الإمام في (مسقط) طالباً منه تزويدنا بأحد المرشدين ليدلّني على البريمي، نقطة الوهابيين الحدودية. وعلى الرغم من أن موسم القوافل قد مرّ أغلبه، فإنه لم يكن لدي سوى سبب بسيط لأن أرتاب في قدرتي على الوصول مع قافلة صغيرة إلى الدرعية. لهذا السبب، كانت خيبة أملي شديدة عندما عرفت من جواب سعادته بأن الوهابيين قد قاموا قبل بضعة أيام بغارة مفاجئة على الأجزاء الشمالية من عُمان وأنهم استولوا على العديد من المدن قرب (صحار) ونهبوها وأحرقوها، وأن سكان مدينة (عبري)، الواقعة على الطريق المؤدية إلى (البريمي)، اندلعت المعارك بينهم وبين جيرانهم، وان سعادته يفضل ألا استأنف رحلتي في ظل الأوضاع الحالية غير المستقرة. لم أفكر البتة بأنني أستطيع أن أكمل المهمة التي كلفت بالقيام بها دون مخاطرة. وهذه فرصة تتضمن دراسة وتقصي نصف الإقليم تقريباً، وبدا هذا مبرراً للاستمرار في رحلتي حتى نهايتها. كما أنني لم أشعر باليأس من قدرتي في الوصول إلى (الدرعية) إذا ما تمكنت من الوصول إلى (البريمي). لهذا السبب، نقلت تمنياتي إلى الإمام وعبرت له عن شكري لمودته. ولسعادتي البالغة في صباح اليوم الرابع والعشرين أنني وجدت قرب خيمتي رجلاً محترماً جداً معروفاً في جميع أرجاء البلاد على أهبة الاستعداد لمرافقتنا.

كانت البيوت في مدينة (السيب) متباعدة عن بعضها ومشيدة على شكل مجموعات من بيتين أو ثلاثة بيوت وسط أشجار النخيل. ويمكن الحصول منها على اللحوم الطازجة والفواكه والخضروات. أما السوق فكانت عامرة بالبضاعة قياساً إلى عدد السكان القليل. وعند سماع الإمام بنبأ وصولنا صدرت الأوامر حالاً إلى الشيخ ليزودنا بكل ما نريد، وقد

امتثل الأخير كل الامتثال لتلك الأوامر. ومن وقت لآخر وصلتنا من الأمير نفسه بعض الهدايا الصغيرة المكونة من الفواكه المستوردة من بلاد فارس والمعلبات وغيرها من المواد التي فكروا أنها قد تكون ضرورية لنا في وضعنا الصحي الضعيف. وليس لدي أدنى شك في أن تماثلنا السريع للشفاء إنما كان يعود بالدرجة الأساس إلى الاهتمام الشديد الذي لقيناه.

هنا أود أن أعزو إلى نفسي صفة الأنانية بدلاً من أن أغفل ذكر الحكاية التالية لأنها تدل على المشاعر الكريمة التي عزوتها في أماكن أخرى لهذا الأمير العظيم. لقد لوحظ سابقاً خلال إقامتي في (مسقط) أن رجلاً فرنسياً يحتضر في مركب قريب من المركب الذي كنت فيه. ومع هذا، فإنني رغبة مني في ألا تفوتني فرصة احتمال شفائه من خلال تغيير المناخ، قمت باستئجار قارب ونقله إلى (السيب)، البلدة التي تتمتع بمناخ صحي أفضل من (مسقط) ومُنحت الأشخاص الذين اشرفوا على عنايته بضع دولارات لسد تكاليف نفقاته في حالة بقائه حياً أو دفنه في حال وفاته. ولما ذكرت هذه الحالة للأمير، ضرب عصاه المُنحنية بقوة على الأرض وقال بعنفوان شديد: (إنه رجل).

عندما نفكر بأن عادة تقديم الهدايا، الشائعة عموماً في بلاد الشرق، مبعثها في معظم الحالات دوافع ظاهرية وليست سخية وان سموه لم يكن يجهل العداء القومي بين فرنسا وإنكلترا، فإن الأمر يتطلب (في آسيا في الأقل) تلك المشاعر المجاملة، وهي من صفاته البارزة التي ساعدته في تقدير الدوافع التي لابد – استناداً إلى حكمه– أن يكون قد تأصل فيها ذلك الفعل الإنساني الذي ألمحتُ إليه باختصار وهنا في أوروبا لا يعرف إلا القليل عن هذا الأمير المتنور. وكانت هديته الأخيرة المناسبة لبحارنا ملك سفينة الحرب الكبيرة المزودة بكل شيء، ورغبته في إقامة تحالف أوثق مع بريطانيا العظمى قد جعلاه يبرز سياسياً في حين أن تشجيعه السخي للعلوم والفنون قد جذب أنظار المجتمع المثقف الواسع التأثير الذي مُنحه مؤخراً شرف العضوية فيه.

إن هذه الأحداث تافهة ولابد من توضيح سبب ذكرها. الحق، إنني إذا أردت أن أدرج كل عمل من أعمال الود والإحسان الذي لقيناه من الأمير خلال إقامتنا في عُمان، فإن هناك

صفحات قليلة من هذا الكتاب يندر أن تذكرها. إن القول بأن أفعاله قد قوبلت بمشاعر مختلفة وأكثر سمواً من تلك المشاعر التي عادة ما ننظر بها إلى حسنات العظام، إنما يعبر تعبيراً ضعيفاً عن رأيي به وذكرياتي عنه. إلا أن هذه الأفعال إذا ما أيقظت مثل هذه المشاعر فإنها قد تنقل فكرة إلى الآخرين عن المزاج والروح اللذين تصدر عنهما.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثاني عشر

بركاء – المصنعة – السويق

الخامس والعشرون من فبراير / شباط: في الساعة الثانية والدقيقة العاشرة غادرنا مخيمنا. كانت حياتنا في هذه البقعة في منتهى الكآبة والرتابة مما دفع الجميع إلى عدم الشعور بالحزن لمفارقتها. ولغرض عدم إغراء القبائل المتهورة التي سنوشك على الاختلاط بها بنهب ما نملك، فقد قللنا من متاعنا حتى بات عبارة عن صندوق واحد والجزء الداخلي من الخيمة. وبهذا انخفض عدد الإبل إلى خمسة وهو نفس عدد أفراد المجموعة.

بعد مغادرتنا ضواحي القرية، واصلنا حتى الساعة الرابعة والنصف اجتياز سلسلة من الحدائق والمناطق المزروعة بالنباتات الكثيفة. وكانت حقول القمح والشعير تبرز من بين التربة السوداء. وفي الساعة الخامسة والنصف، داهمتنا عاصفة شديدة فشعرنا بالسعادة عندما حصلنا على مأوى في مبنى بائس يدعى حصن Bedowih. هطلت الأمطار بغزارة، وكان البرق والرعد شديدين حقاً. في بعض الأحيان انقلبت العاصفة إلى إعصار وبان الهلع على الإبل حتى أنها، رغم أنها تجولت بعيداً بحثاً عن العشب، تجمعت من حول الباب كلما انفتح وسعت إلى الدخول. كانت بعض النساء اللواتي لحقن بالجماعة من (السيب) يبكين طيلة الليل من شدة الخوف والبرد، إذْ كان السقف في المكان الصغير الذي احتشدنا فيه يسمح بنفاذ الماء في كل اتجاه، وكان كل واحد منا مبللاً تماماً. وشعرت بسعادة غامرة عندما انبلج الصبح وسمح لنا بالخروج من جحرنا وتدفئة أوصالنا المتشنجة.

الجمعة، السادس والعشرون من فبراير / شباط: ملأت أمطار الليلة الفائتة قيعان جميع الجداول الجافة. وبعد أن فاضت المياه فوق ضفافها، بدأت تندفع اندفاعاً شديداً صوب البحر. وتمكنا بسهولة من قطع جميع هذه الجداول ونحن على ظهور الإبل، لكن في حالات كثيرة، كانت أقدام الحمير البائسة التي تسير أمامنا، تزل في عنف التيار وتوشك على الهلاك. كان كل جزء من أجزاء الطريق يمتلئ بمياه الفيضان ونتيجة لذلك أضعنا أي أثر

للطريق وبعد التخبط والتعثر إلى الحد الذي غطتنا فيه الأوحال، أقنعت (علي ابن ميغاتي) (Megati) بالتوجه إلى ساحل البحر. كان الفلاحون الذين صادفناهم في طريقنا في سعادة غامرة يتوقعون حصاداً وفيراً وكلأً غنياً ترعى فيه قطعانهم. والحق أن مما يثير الدهشة الشديدة ملاحظة التحول الذي تحدثه زخة مطر واحدة في سطح هذه البلاد. فأكثر البقاع الجرداء والمجدبة تصبح مكسوة بطبقة رقيقة من العشب مما يغير معه وجه البلاد. إلا أن هذا لا يدوم طويلاً، لأن قطرات الندى في الليل توفر الغذاء لفترة قصيرة من الزمن وتعقبها حرارة الشمس الشديدة التي تحيل كل شيء بعد أسبوع أو عشرة أيام إلى قفر وجفاف كما في السابق.

كانت (بركاء) في السابق مصيفاً للإمام، وفيها تخلص الإمام بواسطة خدعة بارعة من خاله شديد المراس سيف بن Buddu(*).

تشتهر (بركاء) حالياً بحصنها الذي يبدو واضحاً من جهة البحر نظراً لارتفاعه الشاهق وحجمه الضخم. وقد نصبت فوقه ثلاثون قطعة مدفعية، إلا أنها لا تلقى عناية كبيرة مما يتعذر إطلاق نار نصف عددها. ومع هذا فالعرب يعتقدون أن الحصن منيع، ولكن بقدر ما يتعلق الأمر بهم فإنهم على خطأ لأن الجهل المطبق في مثل هذه الحالات يشترك فيه المهاجمون والمحاصرون، وتكفي الوسائل التي يمتلكها الطرف الأول لقهر المزايا التي يمتلكها الطرف الثاني. كانت امرأة (السيد هلال) موجودة في هذا المكان أثناء زيارتي ولهذا السبب لم يسمح لنا بالذهاب إلى ما هو أبعد من أحد الأبراج القريبة من المدخل. ومن قمة هذا البرج، حصلت على مجموعة قياسات دقيقة ومنظر جميل للمدينة والمناطق المجاورة لها. كان الحصن محاطاً، وعلى بعد مسافة مائتي ياردة من كل جانب، بسور ذي أبراج مستدقة، وفي المنطقة المحصورة بينهما - أي السور والحصن- بعض البيوت الجميلة.

وشاهدت أن العديد من هذه البيوت ذات أعمدة في مقدمتها وتدعم رواقاً غير مهندم

(*) كذا في الأصل الإنجليزي وصوابه ابن عمه بدر بن سيف. وقد حدث ذلك عام 1807م في قرية تسمى (نعمان) وفقاً لما ورد في المصادر التاريخية العمانية. تجدر الإشارة إلى أن بعض المصادر التاريخية العمانية تذكر أن بدر بن سيف كان خال السيد سعيد وابن عمه في نفس الوقت.

البناء. لم يسبق لي ملاحظة مثل هذا الطراز في أي جزء من أجزاء جزيرة العرب. أما بقية المنازل فهي عبارة عن أكواخ تضم بين جدرانها العدد الأكبر من السكان.

يبلغ عدد سكان المنطقة حوالي أربعة آلاف نسمة بما في ذلك النساء والأطفال. ويشتغل عدد كبير من هؤلاء السكان، كما هو شأن بقية الأجزاء الساحلية، في الصيد، في حين يهتم الآخرون برعاية أشجار النخيل. أما السوق فمزدحم ويتقاطر عليه البدو من مختلف المناطق المجاورة لشراء الحبوب والأقمشة، كما أن كل ما يتوفر في (مسقط) تجده متوفراً هنا. والمرسى في (بركاء) عبارة عن مكان مفتوح لرسو السفن لا يوفر أي حماية من الرياح. وتنطبق الملاحظة نفسها على سكان كل مدينة تقريباً في الساحل، ولهذا لا نجد إلا عدداً قليلاً من مراكب (البغلة) تقوم بمهام تجارية على امتداد الساحل. ويتم نقل البضاعة من (مسقط) وإليها بوساطة قوارب صغيرة حمولتها تتراوح بين ثلاثين إلى أربعين طن. ومع ازدياد الأحوال الجوية سوءاً، فإنه يسهل جذب مثل هذه الزوارق الصغيرة إلى الساحل لتتفادى هيجان البحر.

وتبلغ العائدات الإجمالية في (بركاء) ما بين ثلاثمائة إلى أربعمائة دولار سنوياً. وتأتي هذه العوائد بالدرجة الأساس من التمور التي تفرض عليها رسوم تقدر بعشرة بالمائة شأنها شأن كل الصادرات والواردات. ويحتفظ الإمام بقوة صغيرة تقدر بمائتي رجل تدفع رواتبهم جزئياً من هذه الضرائب.

الأحد، الثامن والعشرون: أمضينا النهار ونحن نستمع إلى بعض قضايا المحاكم ذات الصلة أساساً بالديون والمخالفات البسيطة التي يحكم فيها القاضي. هطلت الأمطار مدراراً طيلة اليوم، وتعذر علينا السفر، إلا أننا استمتعنا استمتاعاً كبيراً ونحن نراقب المشاهد الكثيرة التي تحدث في السوق. فالبائع يضع مختلف حاجاته في كومة أمامه ويجلس إلى جوارها. وإذا ما اقترب أحد المشترين، فإنه يتم التوصل إلى اتفاق بين الاثنين بعد كلام قصير. لكن انظر إلى الاختلاف. فعلى مسافة بضع ياردات، تجلس امرأة تبيع الحبوب، فتقترب منها إحدى النساء بهدف الشراء، فتتواصل حرب الكلمات بين الاثنتين إلى قرابة نصف ساعة دون أن تبدو أي بارقة أمل بالتوصل إلى نتيجة. وثمة غلام ومعه سلة تمر يضعها فوق رأسه وهو يرزح

تحت ثقلها وينادي على بضاعته ونوعية التمر الجيدة وسعره. وثمة رجل يعتمر عمامة يسير جيئة وذهاباً وهو يحتذي صندلاً في قدميه. وعلى مسافة قريبة بعض القصابين الذين يوزعون لحم البقر والضأن على الناس المتجمهرين من حولهم بعد أن يزنوها بميزان خشبي فج تستخدم فيه الحجارة بدلاً من المعايير المألوفة.

الاثنين، التاسع والعشرون من فبراير / شباط: بعد أن غادرنا (بركاء) في الساعة الثامنة، شرعنا باجتياز مختلف القرى والمدن الواحدة تلو الأخرى، وقد أوردتها كلها على الخارطة. يتم صيد الأسماك في هذه البقعة بكميات كبيرة باستخدام شباك يبلغ عمقها عدة مئات من الأقدام، ويتم نقلها بالقوارب. ويثبت الجزء العلوي منها بقطع خشبية صغيرة تصنع من سعف النخيل في حين أن الجزء الأسفل مثقل بالرصاص. ويرتبط بكل جانب من الشبكة حبل ويفيد في سحبها إلى الساحل بثلاثين أو أربعين رجلاً. وبهذا فإن كمية السمك الذي يتم اصطياده عظيمة جداً. وبعد أن يستهلكوا حاجتهم منه، يتم تمليح القسم الباقي ونقله إلى الداخل. وعندما تكون الشباك ملكاً عاماً للقرية كلها، وهذا أمر مألوف، فإن الإنتاج يوزع بين أفراد القرية جميعاً، حيث يقتسمونه بالتساوي. أما إذا كانت ملك أشخاص معينين، أو ملك إحدى الشركات، فإن أولئك الذين يسهمون بالمساعدة يحصلون على ما يوازي جهدهم في الصيد.

عند وصولنا أول مرة إلى (المصنعة)، توجهت بادئ ذي بدء إلى منزل الشيخ، وبعد انتظار قرابة ساعة في الفناء وسط عبيده ودون أي حماية من الشمس، انتابني الغضب إلى حد ما، وتوجهت إلى بستان نخيل صغير يبعد قرابة ميل من المدينة حيث نصبنا خيمتنا.

في صباح اليوم التالي زارني الشيخ الذي جاء مستفسراً عن سبب مغادرتي البلدة دون رؤيته. وحاول أن يبدو بمظهر أو بحالة سيئة بقدر ما تسمح له به هيئته وأخذ يروح جيئة وذهاباً أمام أتباعه الذين كان يبلغ عددهم حوالي ثلاثين رجلاً. وبعد أن جلس، وأوضح سبب زيارته، شرحت له ببساطة إنه ليس من عاداتنا المألوفة أن نظل واقفين في انتظار أي شخص أمام بابه مدة طويلة كالمدة التي قضيتها في انتظاره عند باب بيته، وقلت له إنه إذا كان يدرك ذلك فإنني أشعر بالأسف حقاً لأنه لم يعر أهمية تذكر لشخصية ضابط إنكليزي

كما فعل هو ومن ثم يفترض أن هذا الضابط في وسعه تحمل مثل هذه المعاملة، وإنه إذا كان عبيده خدمنا، فإنهم سيلقون عقاباً صارماً نتيجة تقصيرهم. وهنا عبّر عن شدة دهشته لكل هذا الذي تظاهر بأنه يسمعه أول وهلة، وقال إنه كان يؤدي فرض الصلاة وإن الأمل يراوده في ألاّ أفكر ثانية بالمسألة. ثم استأذن بالانصراف بعد ذلك مقسماً على أن ينتقم من خدمه – وهذا ادعاء زائف كله– إذْ كان هؤلاء أنفسهم يقفون من حوله. لكن من الإنصاف القول إن مثل هذا التصرف ليس شائعاً على أي حال، إلا إذا كان الشيخ عديم الشأن والأهمية، كما هو الأمر في مثل هذه الحالة، ويحاول إضفاء الهيبة على نفسه أمام عيون أتباعه فيترك الأشخاص، مهما كان موقعهم، ينتظرونه طويلاً عند زيارتهم له(*).

تشكل أشجار النخيل على امتداد هذا الساحل بستاناً واحداً مستمراً حتى (خورفكان)، وهي مسافة تقدر بمائة وخمسين ميل، ويقول العرب إن المسافر قد يسير على امتداد هذه المسافة كلها دون أن يفقد الظلال. وتشكل التمور صادرات عُمان الرئيسية، وتصدر كميات كبيرة جداً إلى الهند حيث يُستخدم القسم الأعظم منها في صنع العرق الحكومي. ويهوى أبناء الطبقة الوسطى من السكان المسلمين والهندوس التمور إلى درجة كبيرة، حيث تستورد أفضل أنواعها من البصرة والبحرين، أما التمور العُمانية فتأتي في المرتبة الثانية. وثمة طرق عديدة لحفظ التمور، فالبعض يتم تجفيفه ببساطة وينظم في خطوط. أما الطريقة الأخرى فتتمثل في حفظه داخل سلال. وعلى الرغم من أعداد النخيل الهائلة، إلا أن لكل نخلة مالك خاص بها، ونتيجة لذلك، فإن الخلافات بين أقرباء أحد المتوفين المالكين للنخلة شائعة إن لم يحرر المتوفي وصية يحدد بها من يرث نخلته. ومع اقتراب وقت الظهيرة، غادرنا مخيمنا، وواصلنا رحلتنا على امتداد الساحل، ونحن نمر بالقرى والمدن الصغيرة. ويبدو أن المكان يكثر فيه الحطب، الذي يجمع على شكل حزمة كبيرة توضع على امتداد الشاطئ حتى تتمكن القوارب المارة من الرسو لشرائه وتحميله على الفور. وفي تلك البقعة مررنا بهيكل عظمي لأحد الحيتان وبعدد كبير من جذور الأشجار والأخشاب

(*) يتضح للقارئ من هذه الحادثة غطرسة وصلف المؤلف وجهله بأن طبيعة العلاقة بين السلطان في مسقط وشيوخ القبائل ليست علاقة سيد بعبيده وبالتالي على الرحالة الأجنبي أن يقيم جسور علاقة وديّة مع هؤلاء الشيوخ وأن يتحلى بالصبر والحكمة لكن أنّى لشاب مغامر وجريء أن يتصف بهذه الصفات في أوقات المحن والشدائد.

المهملة وأنواع عديدة من الشوك البحري. لقد كان ساحل البحر يتكون بالدرجة الأساس من أجزاء متناثرة من المحار الممتاز ولهذا جمعت عدداً من الأنواع الجميلة جداً منها.

في الساعة الثالثة والنصف وصلنا إلى (السويق) ووجدنا الشيخ غائباً يبحث عن الوهابيين الذين كانوا على مقربة من المكان كما قيل. غير أن زوجة الشيخ استقبلتنا بكل حفاوة وأمرت بإعداد بيت ومأوى لنا في الحال. وكانت أوامر هذه السيدة دقيقة وواضحة. فقد قالت مخاطبة عبيدها: «اسهروا على راحة هؤلاء السادة، ولا تتركوهم بحاجة إلى أي شيء وإلا فسوف تقطع أعناقكم». وعلى هذا الأساس حظينا بكل أنواع الطعام الطيبة التي قدمها لنا مطبخ الشيخ.

وعند الغروب عاد الشيخ بعد رحلة بحث خائبة. كنت قد أتيت برسالة إلى هذه الشخصية المتميزة من حكومة بومباي، إذ كان يعتقد بأنه ذو نفوذ واسع على البدو في المنطقة الشمالية من عُمان. وربما لم يبعث في نفسه شيء من السرور والارتياح قدر ما بعثته هذه الرسالة، ولهذا فإنه لهذا السبب من جهة، ولطبيعته المحبة لضيافة الآخرين عن جهة أخرى، سهر على راحتي خلال إقامتي.

يبلغ (السيد هلال)(*) وهو ابن عم (السيد سعيد) الخامسة والثلاثين من العمر. أما من حيث شخصيته فهو يأتي بالمرتبة الثانية بعد الأمير نفسه. وهو شخص ذو قامة فارعة، وشخصية مهابة وبارع في كل الفنون الحربية. ويحب الصيد وبقية أنواع الرياضة حباً شديداً. وعلى الرغم من هزاله، فإنه يعد أقوى بني قومه إضافة إلى رشاقة حركته. كما أنه شديد السخاء. وقد سمعت العرب في مسقط يذكرون أنه عند زيارته الإمام تلقى هدية منه مقدارها ثمانمائة أو ألف دولار. وما أن مضت ساعتان على استلامه الهدية حتى وزعها كلها بين أتباعه.

عندما كانت المراكب تزور هذا الساحل سنة (1828)، كان جزء كبير من المناطق المحيطة به، بما في ذلك بساتين كثرى Kothra الواسعة وغيرها من العديد من المدن على

(*) هو هلال بن محمد بن أحمد بن سعيد البوسعيدي ابن عم السيد سعيد. اغتيل سنة 1862م في مكيدة خطط لها وراح ضحيتها قيس بن عزان كما تشير إلى ذلك المصادر التاريخية العمانية.

ساحل البحر، تابع لهذا الزعيم. ولكن بعد مرور وقت قصير على استيلاء شيخ (صحار)(*) على أراضي الزعيم، بأمل زيادة عدد قواته حتى يتمكن من العمل بكفاءة أكبر ضد الإمام، قام بتقديم عرض إلى العديد من الشيوخ الصغار وأتباعهم يفيد بأنهم إذا انضموا إليه وتخلوا عن (السيد هلال)، فإنه سوف يلغي جميع الرسوم والضرائب التي فرضها عليهم ذلك الزعيم. كان العرض مغرياً تصعب مقاومته، وفي غضون أيام قليلة وجد (السيد هلال) نفسه وقد انتزعت منه كل أراضيه وعائداته وسلطته وأصبح بالنسبة إلى الإمام كمن أحيل إلى التقاعد بعد أن كان يملك نفوذاً قوياً حتى في مواجهة الإمام نفسه. وحدثت حادثتان تتصلان بهذا الصراع الذي يكشف عن قوة النساء العربيات ونفوذهن على نحو ينبغي عدم التغاضي عنه.

لقد اضطر (السيد هلال) قبل بضع سنين – إثر وعد بالحماية– إلى السير إلى (مسقط). ووجهت إليه بعض الاتهامات بمحاولة تخريب سلطة الإمام وذلك بتحريض البدو على التمرد. وما أن تناهى ذلك إلى سمع زوجة الشيخ وهي أخت (السيد سعيد) حتى أرسلت الرسل لجميع القبائل البدوية التي كانت تحت نفوذ زوجها وأعدت العدة لتزحف شخصياً على مناطق نفوذ الإمام. لكن قبل وصول أي مساعدة، أرسل الامام قوة إلى (السويق) للاستيلاء على الحصن مؤكداً أن الشيخ سيكون مصيره الموت ما لم يستسلم الحصن. ولما وصلت الرسالة إلى المرأة الجريئة قالت: «عُد أدراجك. عُدْ أدراجك نحو أولئك الذين أرسلوك وأخبرهم بأنني سأدافع عن الحصن بكل ما أملك من قوة، وإن شاءوا تقطيعه إرباً أمامي، فإن ذلك لن يغير شيئاً من عزيمتي». وهكذا دافعت عن الحصن ببسالة ومهارة عظيمتين مما حدا بقوة الإمام إلى رفع الحصار والمضي نحو (مسقط) بعد أن تكبدت خسائر في الأرواح وإضاعة في الوقت. وبعد مضي عدة أشهر. بات الإمام واثقاً من بطلان التهم الموجهة إلى الشيخ وسمح له بالعودة إلى مقر ولايته.

وكشفت أخت الشيخ(**) عن سلوك مماثل عندما كانت مسؤولة عن نفس الحصن أثناء

(*) لعل المؤلف يعني بشيخ صحار حمود بن عزان بن قيس إذ ثار في عام 1831م واستولى على صحار وشناص.

(**) يتخبط المؤلف في شخصية هذه السيدة فقد سبق أن ذكر أنها زوجة السيد هلال وهنا يجعلها أختاً له والمصادر العمانية تذكر للسيد هلال أختاً اسمها جوخة دافعت عن حصن (السويق) المذكور فلعلها المقصودة هنا. وربما أراد المؤلف أن يتحدث عن شخصيتين الأولى زوجة السيد هلال والثانية أخته والله أعلم.

تعرضه لهجوم مباغت شنه شيخ (صحار). كان شيخ (صحار) في طريقه إلى (الرستاق) على رأس قوة مؤلفة من مائتي رجل تقريباً دون أن تبدو منه بادرة تشير إلى إنه سيشن هجوماً عليها. لكنه استدار بغتة ووضع كل قوته أمام الأسوار. على الرغم من أن الشيخ كان غائباً، فإن المكان كانت تسهر على أمنه هذه السيدة التي أغلقت البوابات وجمعت رجال الحامية وألقت فيهم خطبة رنانة. وفي نهاية المطاف استخدمت المدافع المنصوبة فوق الأبراج استخداماً جيداً مما حدا بالشيخ إلى التخلي عن كل مشروعه بعد أن مكث ثلاثة أيام وبذل العديد من المحاولات الفاشلة لقيادة جنده ثانية لشن الهجوم.

ويقال إن (السيد هلال) يكن شديد الاحترام لهذه السيدة التي يخشاها والتي لولا نصيحتها وتعاونها لما كانت له أي أهمية.



الفصل الثالث عشر

شيخ السويق

يعيش (السيد هلال) في أبهة أكبر من أبهة أي زعيم آخر التقيته في عُمان. فعدد العبيد الذي يعملون في منزله يتجاوز المائة كما يقال، يرتبط عشرون أو ثلاثون منهم به شخصياً ويرتدون زياً أنيقاً. وتم إعداد وجبة طعام في مطبخه تتألف من مختلف الأصناف وتكفي لثلاثين أو أربعين شخصاً، قُدِّمت في أطباق نحاسية كبيرة. وكان مثل هذا الطعام يقدم لنا مرتين في اليوم منذ وصولنا. وكانت ثياب الجميع على الطراز الفارسي الأنيق. وفي مثل هذه المناسبات، تنتشر الأواني الصينية الزرقاء المذهبة، والأطباق الزجاجية ودوارق الماء التي وضع فيها الشربت وغير ذلك من الأدوات الثمينة. وكان الشيخ يقضي ساعات طويلة معنا بعد العشاء. وكنت أحب كثيراً أن ادفعه للحديث عن مختلف الموضوعات ذات الصلة بالقبائل في المنطقة الشمالية من عُمان. وقد زودتني أحاديثه بالكثير من المعلومات الممتعة والقيّمة.

ذات مرة كان برفقة أحد الرواة، وكان يبدو مفضلاً عنده. وقال الشيخ: «كلما أحسست بالحزن أو بالاضطراب، فإنني أرسل في طلب هذا الشخص الذي سرعان ما يعيدني إلى حالتي النفسية المألوفة». ومن خلال طبقة الصوت العالية التي كانت تُلقى بها الحكاية، فإني لم أتمكن من متابعة خيط القصة وعندما ذكرت له هذا الأمر، أرسل لي الشيخ مخطوطة القصة التي استفاد منها الراوي. ومع اختلاف بسيط، وجدت أن القصة تماثل قصة السندباد البحري المعروف جيداً لدى قراء (ألف ليلة وليلة). وعندما قرأت هذه الحكايات المدهشة أول مرة بلغتي الأم، فإنني لم أفكر يوماً ما بأن قدري سيجعلني مستقبلاً أصغي إلى القصة الأصلية في مكان متجانس جداً معها وبعيد.

مدينة (السويق) عبارة عن مدينة صغيرة مسوّرة تضم حوالي سبعمائة منزل. أما الحصن فهو متين البيان وضخم نصبت على أبراجه بعض المدافع ويكاد يتوسط البلدة ويسهر على

حمايته عبيد منزل الشيخ. ومن عادة العرب أن يحتفظوا بقطعتين أو ثلاث قطع من المدفعية خارج مدخل الحصون. وبينما أمر من أمام هذه ذات يوم بصحبة الشيخ، استفسرت منه عما إذا كان وضع هذه المدافع بهذا الشكل أمام الحصن يشكل نقطة ضعف لان الحصن قد يُباغت بهجوم وتستولي القوة المهاجمة على هذه المدافع وتتمكن على الفور من نسف البوابات وتدخل بيسر وسهولة. وهنا قهقه الشيخ وقال: «إن حروبنا تختلف إلى حد ما عن حروبكم. فقد سنحت لي فرصة المشاهدة في (بني بو علي). ففي المقام الأول، فإن العرب، وفي جميع الاحتمالات، لا يفكرون في القيام بمثل هذا العمل. وحتى إذا قاموا به – إذ أننا لا نحمل مدافع عندما نذهب للحرب– فإنني ارتاب في إمكانية قدرتهم على امتلاك كمية كافية من البارود، وحتى إذا امتلكوها، فلا أعتقد أنهم يعرفون كيف يحشونها بعد ذلك».

يقطن العدد الأكبر من سكان (السويق) في أكواخ صغيرة خارج الأسوار ويصنعون العمائم، بيد أن القسم الأعظم منهم يشتغل في الصيد أو الزراعة شأن بقية المناطق الساحلية. وسكان البلدة خليط من أقوام عدة، إلا أن التسامح يسود فيها كما هو الحال في (مسقط) حتى أن للشيعة مسجدهم الخاص بهم.

الجمعة، الرابع من مارس / آذار: في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والأربعين غادرنا المدينة برفقة الشيخ وحوالي أربعين فارساً. وبعد أن خرجنا من البساتين وأصبحنا في السهول الشاسعة، عمد هؤلاء إلى تسليتنا بعرض لأساليب هجومهم في المعارك. وفي أثناء هجومهم وتوقفهم فجأة، أظهروا سيطرة عالية على جيادهم وكانوا يستخدمون في ذلك أداة قاسية جداً. ولم تكن الجياد مزودة بركاب[*] ولا بسروج بل استعاضوا عن الأخيرة بقطعة قماش محشوة بالقطن توضع على ظهر الحيوان.

ويعد الرمح سلاحهم الرئيس المدهش الذي يبلغ طوله حوالي خمسة عشر قدماً تزينه عند أحد طرفيه خصلة من ريش أحمر وأسود. ولا يترك الفارس سلاحه هذا بل تراه يحمله

(*) الركاب: حلقة معدنية تعلق على جانبي السرج يضع الشخص فيها رجله.

بنفس الأسلوب الذي كان يحمله به فرسان أوروبا القدماء. وكانت الثياب الجميلة المزركشة من (نجد) تبدو رائعة عندما تعدو الجياد بكامل سرعتها فوق السهل وبمختلف الاتجاهات. وفي هذه المناسبة، تراهم يناورون حيث يمسك كل فارس بفخذ الآخر ويسير معه جنباً إلى جنب مما يدفع الجواد إلى الانطلاق بأسرع ما يستطيع. واصلنا طريقنا مسافة خمسة أو ستة أميال بصحبة هذه المجموعة المرحة التي كانت في أوج النشاط والإثارة. كان (السيد هلال) يعتلي صهوة جواد جميل تقدر قيمته بثلاثة آلاف دولار، وكان جواده دوماً في مقدمة الجياد في كل تمرين. في هذا المكان ترجل عن صهوة جواده وودّعنا وقد انتابه القلق على مستقبلنا ونحن نطرق أراضي جيرانه الذين تصعب السيطرة عليهم. صافحنا جميع أتباعه ومن ثم سرنا في طريقنا كما يقول (جون بنيان)(*).

تمتد البساتين والأرض المزروعة لمسافة تبعد عن الساحل بمقدار ثلاثة أميال. أما فيما وراء ذلك، فإن السهول تكتنفها عدة جداول ماء ضحلة تكونت أصلاً وسط التلال خلال الأمطار الأخيرة. وكانت أشجار السمر الضخمة تزين سطح الأرض. ويمكن مشاهدة راعٍ من رعاة الغنم العرب وقد جلس يستريح تحت ظلالها في غالب الأحيان مع عدد كبير من كلاب ضخمة لمساعدته في السيطرة على القطيع الذي يأكل الكلأ من حوله. لكن مزماره وعصاه غائبان. وعوضاً عنهما تراه يحمل رمحاً وبندقية.

في الساعة الواحدة وصلنا مخيم البدو الكبير في (Kothra)، وكان طريقنا يتجه من (السويق) صوب الشمال الغربي. كان المخيم عبارة عن بيوت مشيدة بالطين ولوقاية السكان من زخات المطر، فإن سقوفها شيدت على شكل هرمي يشبه مخازن الضلال الإنكليزية.

أخبرني دليلي (سيد ابن مطلك)(**) بأن الوهابيين اقتربوا من هذه البلدة ليلاً قبل أربع سنوات تقريباً وهم يضمرون هجوماً عليها، وإضرام النار فيها كما هو دأبهم. لكن بسبب مشاجرة السكان المستمرة من جهة وتوقع هجوم من جهة أخرى في نفس الليلة، فإنهم

(*) John Bunyan (1688–1628) كاتب إنجليزي ولد في ايلستو بيدفورد شاير من أشهر مؤلفاته (The Pilgrims Progress)

(**) كذا في الأصل الانجليزي وصوابه (علي بن Megati).

ظلوا في حالة استعداد دائم، ولم يكتشفوا هوية عدوهم الذي هاجمهم إلا بعد أن كبدوه خسائر كبيرة. لقد كانت أعمال العنف عند هؤلاء المتطرفين تثير هلعاً شديداً مما كان يدفع بالسكان إلى نسيان كل خصومهم عند اقترابهم منهم؛ وتتحد جميع القبائل للدفاع المشترك. ولم تكن هذه الغزوات بلا فائدة، فقد أثبتت في العديد من المرات، كما في هذه المرة، إنها وسيلة للجمع بين قبيلتين من القبائل ظلتا سنوات طويلة في حالة صراع وبعد ذلك يحدث التزاوج فيما بينهما وينعقد بذلك تحالف وثيق لا تنفصم عراه.

لقد باتت الآن قبائل (آل سعد) و(آل بو سعيد) (Sheid) و(آل هلال) متحدة اتحاداً كونفدرالياً ويقدر عددها الإجمالي بثلاثة آلاف رجل. وتملك هذه القبائل أعداداً لا عد لها ولا حصر من بساتين النخيل ومزارع الحبوب والسكر والقطن والنيلة. وفي وسط هذه البساتين يوجد عدد من الحصون. فقد كان أفراد هذه القبائل يصعب انقيادهم ولا يعيرون اهتماماً (للسيد سعيد) أو شيخ (صحار). وعلى الرغم من أنهم كانوا يدفعون ضريبة العشر إلى شيخ (السويق)، إلا أنهم اصبحوا الآن في حالة عداء غالب معه.

وكانت التوقعات تفيد بأن خلافاً ما سيؤدي في هذه الفترة إلى حدوث اضطرابات، ولهذا السبب، سلكت جماعتنا طريقاً دائرياً طويلاً لتجنب مضاربهم. وقد تم تسوية الخلاف قبل عودتي لأننا مررنا بهم دون أي مشكلات. وفي الساعة الرابعة غيرت المنطقة من ملامحها. فقد أخذت الوديان العميقة والضيقة تقطع التلال، وكانت كثيرة العشب ترعى فيها أعداد كبيرة من الأغنام. وفي الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والأربعين وصلنا إلى قرية (الفلج).

بدت المنطقة كلها في حالة من الذعر الشديد بسبب توقع هجمة يقوم بها الوهابيون. وكان (علي بن نجاتي) (Megati) يستفسر باستمرار عن أخبار كل من التقينا به في الطريق. من جهة أخرى، كان ظهورنا وسطهم عبارة عن مشهد مُسلٍ من الذعر والفوضى. فالأولاد والبنات يصرخون، والرجال يهرعون إلى سلاحهم، والكلاب تنبح بلا انقطاع بينما هرعت النساء وهن يحملن أطفالهن بين أيديهن وصرخاتهن تضفي نغمة جميلة على مختلف الأصوات التي رحبت بنا. وعبثاً حاول علي رفع صوته ليعرف بنا، إلا أن ذلك لم يكن إلا

سبباً لزيادة الفوضى. عندئذٍ اقترحت أن تتوقف الجماعة عندما وصلنا إلى مرتفع من الأرض وأرسلنا عبداً واحداً لتهدئتهم وتوضيح الأمور لهم، فتحقق الأمل المنشود، وما هي إلا دقائق قليلة حتى تحلق من حولنا الرجال والنساء وهم يثرثرون ويقهقهون بمتعة توازي ذعرهم السابق. بعد ذلك أرسلوا لنا وجبة طعام من لحم الضأن المسلوق والرز يكفي لمعظم أفراد الجماعة.

السبت، الخامس من مارس /آذار: وجدنا في هذا الصباح أن حارسنا رحل خلال الليل مع الإبل والرجال وحمار (علي) على الرغم من التعليمات التي تلقوها من (السيد هلال) في (السويق) التي تقضي بمرافقتنا حتى (عبري). غير أنني سعدت لما أظهره الشيخ من غضب وما صبه من لعنات عليهم وعلى آبائهم وأجدادهم، حتى أنني نسيت وضعنا البائس وتأخرنا الاضطراري. لكننا طلبنا من الشيخ بعد تناول فطورنا بأن يتوجه إلى إحدى المدن الصغيرة القريبة منّا حيث اعتقدنا أن قافلة ما مرت بها يوم أمس وأن عدداً من أفرادها ربما أمكن اصطحابهم معنا. وعند الظهر، عاد الشيخ وبمعيته عدد كبير منهم.

تقع بلدة (الفلج) في تجويف خلاب جداً ولا يزيد عدد بيوتها عن مائتي بيت تتوسط الأشجار التي تلقي بأوراقها الخضر اللامعة عليها ومن حولها حتى لم يعد يشاهد منها إلا جزء قليل. ولا يكفي الوصف المجرد وحده لإعطاء فكرة عن الأثر الفريد الذي يحدثه هذا التجويف الذي تحف به الخضرة إذا ما قورن بمظهر التلال ذات اللون الأبيض أو البنّي الفاتح التي تحيط به. في الساعة الواحدة والدقيقة العاشرة غادرنا (الفلج) مع ثلة من الحرس لا تزيد عن ستة أفراد، أصرّ الشيخ على أن يرافقوننا. بدا أصدقاؤنا الجدد بمظهر اللامبالاة على الأقل في ثيابهم. كما أن بنادقهم علاها الصدأ. أما فيما خلا ذلك، وفيما يخص المعدات وتنوع الأعمار والأشكال، فإنهم لم يكونوا نماذج رديئة ممن جنّدهم (فولستاف)(*). يضاف إلى ذلك، أنهم كانوا يمتطون ظهور حميرهم التي كانت صغيرة الحجم هنا إلى حد ما. وكان التناقض الذي يمثلونه إزاء أولئك الذين يمتطون ظهور حيوانات رائعة وأرسلوا لغرض حمايتهم لم يغب حتى عن ناظر علي الرزين والهادئ، إذْ ما

(*) جون فولستاف (1459–1378) ضابط انجليزي استطاع في عام 1429 هـ إلحاق الهزيمة بجيش فرنسي في معركة «الولكة».

تبين أن من شأنه السفر وإياهم حتى ترك حماره الذي أعطي له عوضاً عن الحمار الذي فقده، واعتلى صهوة أحد الإبل. كان طريقنا يمتد مسافة لا بأس بها على حافة أحد الوديان ويطلق عليه اسم (وادي الكبير) وكان قاعه مبللا في الوسط بفعل أحد الغدران فتشكلت على الجانبين بعض البرك الضحلة. اجتزنا اليوم بعض أعشاب الحنظل كما مررنا بنوع من الأدغال القصيرة ذات فاكهة صغيرة حمراء اللون تشبه في حجمها ونكهتها ضرب من التوت البري الذي يعشقه البدو. وفي الساعة الرابعة دخلنا وادي (رصة الخروص Russut El Kutoos) بعد أن هبطنا في أحد الممرات وفي الساعة الخامسة والربع توقفنا عند قرية (سيدان) (Sidán)، وهناك فرحنا بمحل إقامتنا الذي كان عند فتحة الممر حيث يبدو وسط مجموعة من الجبال الشاهقة. كانت القمم الوعرة المدببة لهذه الكتل الظليلة، وهي تبرز بالتعاقب أمامنا، مكسوة بآخر ما تبقى من شعاع الشمس الآخذة بالمغيب. أما بقية السلاسل الجبلية المنخفضة فكانت قد ضاعت وسط كآبة المغيب. وكان في وسعنا مشاهدة سيل جبلي عرضه خمسون ياردة يبرز من وسط السلسلة ثم يأخذ طريقه على امتداد الوادي وبين الصخور ومن فوقها علاوة على عقبات أخرى تحدد قعره. وسرعان ما أضرمنا ناراً كبيرة على ضفته وأعددنا طعام المساء. بدأنا نفكر في المستقبل ونحن نجلس من حول النار نستمتع بدفئها وبحيويتنا ومعنوياتنا المألوفة كما من قبل، ذلك المستقبل الذي تظهر آفاقه عفوياً عندما يستعيد الذهن مرونته وإيقاعه بعد أن أنهكه المرض لحين. إنني أعتقد، وأنا تحت تأثير رد الفعل الغريب هذا، بأن أي حادث أو مغامرة، مهما كانا خطرين أو عنيفين، لن يكونا ضارين بنا شريطة أن يوفرا قدراً من الإثارة.

السادس من مارس / آذار: بعد أن أخذنا صورة سريعة لمدخل هذا الممر والجبال المجاورة له، واصلت رحلتي في الساعة العاشرة والنصف بين أرجاء الوادي. لم يكن هناك أي طريق باستثناء السير على امتداد قعر جدول الماء الذي كان في بعض الأماكن عميقاً وسريعاً جداً في بعض الأحيان مما كاد يتسبب في زلة قدم جوادي. وكانت تنتشر على كلا الجانبيين بعض بساتين النخيل ومجموعة متناثرة من الأكواخ. وفي الساعة الثانية من بعد الظهر، صادفنا فرع جدول ماء إلى جهة الغرب وعلى امتداد وادي ثلة (Thilah). أصبحنا

الآن وراء سلسلة الجبال الواطئة في طريقنا صوب القسم الرئيسي منها، وهي سلسلة ترتفع ارتفاعاً شديد الانحدار وتشكل جروفاً يبلغ علوها ما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف قدم، وتنتهي بأشكال مدببة وحادة. وتتكون هذه الجبال من مواد كثيرة كالميكة والإردواز والفلسبار مما جعلني أصرف وقتاً طويلاً في معاينة التواءات الميكة الفريدة. وكانت الألوة والأدغال القصيرة والأعشاب العطرية التي ترعى فيها بعض الأغنام هي العلامات الوحيدة التي صادفناها وتدل على حياة النباتات. وفي الساعة الخامسة والنصف توقفنا فوق قمة تل صغير. وبدا واضحاً أن كل مخاوف علي إزاء الوهابيين قد أخذت بالازدياد إذ أنه أوقف حارساً محملاً ببنادق محشوة للسهر طيلة الليل. وأدركت من خلال بعض الأسئلة العرضية التي وجهتها له بخصوص الموضوع بأن مخاوفه كانت ناجمة عن ظروف الطريق الذي نسلكه حالياً والذي لا يسيطر عليه (سيد سعيد) بل يسيطر عليه خصمه (محمد)(*) في (صحار).

الاثنين، السابع من مارس/آذار: في تمام الحادية عشرة والنصف استأنفنا رحلتنا على امتداد وادي ثلة (Thilah) واجتزنا مداخل عدد من الوديان الجانبية. وبات طريقنا الآن شديد الالتواء والانحراف مما يصعب وصفه. في الساعة الثانية والنصف ارتقينا أحد التلال وكان ارتفاعه حوالي ثمانمائة قدم، إلا أنني لم أتمكن من مشاهدة أي شيء من قمته سوى تلال وصخور مجدبة وكئيبة. وبعد اجتيازنا هذا الوادي، وصلنا أراضي (بنو كلبان) الذين أفرح إقرارهم بسلطة الإمام صديقي سيفاً الذي عبّر عند ترجله لأداء الصلاة عن رضاه بأن قدّم لناقته أكثر من نصف تجهيزاته من التمور. وواصلنا الرحلة لمسافة ثلاث ساعات على امتداد الوادي الذي يدعى وادي (كلبان)، وهو اسم السكان الذين يقطنون فيه، واجتزنا مجموعة كبيرة من أشجار الألوة التي تشبه إلى حد كبير مثيلاتها من الأشجار في الهند أكثر مما تشبهها في (سوقطرة). في الساعة الخامسة والدقيقة الخمسين توقفنا في المنطقة المسماة (مسكن) قرب بعض مناطق القمح المسيّجة التي بدت بمنأىً عن دخول قطعان الحيوانات بعد بناء سياج من أغصان شجرة السدر الشائكة. إن مسكن قرية صغيرة ويبدو إنها أخذت

(*) كذا في الأصل وصوابه (حمود بن عزان).

اسمها من توسطها بين التلال. وقد سعدت كل السعادة وأنا ألاحظ وسط هذه البساتين أن المراحل المختلفة لنمو النباتات تبدو أمامي لكل نوع على حدة. فأشجار النخيل، مثلاً، تظلل أوراق السنة. أما السدر والمانجو وموز الجنة والتين فقد جددت خضرتها. أما أغصان الكروم فلا تزال عارية بلا أوراق، في حين انشغل الفلاح على مقربة منها بحصاد ذرته. وهكذا نرى أمامنا الآثار المميزة لكل فصل، والتي نتجت لأسباب مختلفة، مجتمعة في آن واحد.



الفصل الرابع عشر

مقنيات – الدريز – عبري

الأربعاء، التاسع من مارس / آذار: أخذ تقدمنا في هذا الجزء من البلاد يبدو شاقاً وبطيئاً بسبب انقسامه إلى مقاطعات منفصلة، كل واحدة منها تبدو مستقلة عن الأخرى، ولا تعترف إلا قليلاً بأي سلطة. ولما كان أولئك الذين يوفرون الابل لمقاطعتهم نفسها لن يسمح لهم بالتقدم مسافة أبعد، فقد نجم عن ذلك أننا تأخرنا في عقد صفقة للحصول على تجهيزات جديدة لدى دخولنا حدود المنطقة الأخرى. إن هذه المسألة التي استغرقت في بعض الأحيان ساعتين أو ثلاث ساعات من حرب الكلمات التي لا تنقطع، جعلتني سعيداً، وأنا أحيلها إلى (علي) الذي قام بواجبه على خير وجه وبكل ما يملكه العربي من موهبة في الجدل والمناظرة. إن صبر الشخص الإنكليزي –بصرف النظر عن كثرة رحلاته– سوف يخونه بلا ريب في مثل هذه المناسبات بعد مرور بضع دقائق. وبهذا لن يتمنى العربي الماكر ما هو أكثر من هذه الفائدة. كانت الصفقات تبدأ عادة بصوت واطئ إذ يعلن أحد الأطراف عن قيمة البضاعة التي تكون عادة عشرة أضعاف السعر الذي يريد أن يتقاضاه أو يتوقع من الطرف الآخر أن يمنحه إياه. فيكون الجواب عبارة عن استهجان ونظرة تعجب مصطنعة، وبعدئذٍ يغدو الجدال أكثر إثارة وتُحوِّلُ الجماعات مقاعدها من مكان إلى آخر. في بعض الأحيان كان صوت (علي) يُسمع وهو يصرخ فيطغي على صوت منافسه، وفي أحيان أخرى، يتضاءل حتى لتحسبه خائفاً. وكنت بالكاد أسمع صوته بنغمة تدل على الرثاء أو التأنيب أو الاعتراض أو التوسل. وفي نهاية المطاف، ينهض وينسحب ويصب اللعنات والسباب على جشعهم الذي لم يعرفه أحد من قبل، إلا أن شخصاً ما أو شخصين من المتفرجين يلحقان به ويعيدانه إلى حيث يتكرر المشهد نفسه حتى تسوّى القضية. لا بد لي من أن أكرر أيضاً بأن أي مخلوق، باستثناء العربي، في ميسوره أن يتحمل التجربة التي يتعرض إليها صبره وهو ينظم هذه الصفقات المطولة جداً. وحتى عندما يبدو للجميع أن

المسألة قد حُسمت، فإن هناك أمراً ما يظل بحاجة إلى الابتزاز، إن كمية إضافية من التمور لهم شخصياً، أو علفاً لقطعان ماشيتهم، هو من أفضل ما كانوا يطالبون به. إنني غالباً ما تأخرت ساعات طويلة في أثناء رحلتي هذه، بدلاً من أن أعطي ربع دولار، وهو المبلغ المطلوب كما كان (علي) يقول. عندما كنت في (جعلان) حاولت أن أتبع خطة مغايرة أول الأمر. إلا إنني سئمت الدفع قبل أن أطالب بالمال. الحق أن تجربة أيام قليلة أقنعتني بأن أي تنازل يؤدي إلى المطالبة بمبلغ أكبر من الذي أقدمه. وعلى وجه العموم، فإن الحمالين من بين البدو كانوا دوماً مجموعة من الناس المخادعين والكذابين والجشعين. إلا أنهم على الرغم من ذلك لديهم خصال حميدة، ومن بين هذه الخصال نفورهم من السرقات التافهة. فأنا لم أفقد أي قطعة مهما كانت عديمة الشأن من بين متاعي، كما إنني رأيت بأنهم يبحثون عن أي شيء مفقود بقلق أكبر بكثير من قلقي. وفي أثناء توقفنا، فإنهم كانوا على استعداد دوماً لجلب الحطب والماء والقيام بغير ذلك من الواجبات.

ثمة طبقة من الرحالة الذين يقومون برحلاتهم في بلد ما وقد وطدوا العزم على إغماض عيونهم عن كل ما من شأنه الا ينسجم مع أفكارهم الخاصة بهم. وهم أما يتجاهلون أو لا يذكرون إلا قليلاً النقاط غير المستحبة عند شخص ما، كما إنهم عموماً رفاق أكثر مدعاة للسرور من الرجال الذين ينشدون اتجاهاً معاكساً. إن التقدير الصحيح لسلوك أي شعب لا يمكن معرفته إلا من خلال معرفة تامة برذائل كل ذلك الشعب وفضائله على حد سواء. ومن شأن نتيجة البحث أن تكون الرذائل والفضائل موزعة توزيعاً متساوياً، وهو أمر قد لا يظهر أول الأمر. إنني بعد أن نظرت للمسألة بهذا المنظار، وأدركت إن من غير الحكمة إصدار الأحكام التعميمية، فقد حاولت دوماً أن أدوّن بإخلاص انطباعاتي عن أولئك الذين ألقي بي في وسطهم سواء كان ذلك التدوين يشير إلى صفات جيدة أو رديئة. أنني لم أفكر البتة بأن القارئ من شأنه أن ينظر إلى الحسنات والسيئات عندهم إلا على أساس النظرة التجريدية، وليس على أساس إعطاء صورة قومية تكون، حسب الوصف الذي قدمته، غير منصفة مثلما يكون من غير الإنصاف تقييم السلوك الإنكليزي على أساس سائق مركبته أو عربته.

العاشر من مارس / آذار: في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثلاثين رحلنا عن (مسكن) باتجاه (مقنيات) وفي الساعة الخامسة توقفنا قرب القلعة حيث يقطن الشيخ وزير Wasser(*) زعيم قبيلة (بني كلبان). وفي غضون دقائق قليلة، جاء الشيخ لاستقبالنا على الرغم من أنه بدا يشكو من التهاب في العينين. وعندما قدمت له رسائل (السيد سعيد)، التي كانت مكتوبة بلهجة شديدة، وتتضمن طلباً عاجلاً بأن يسهّل لنا المرور، بدا عليه الاضطراب الشديد وقال: «في كل يوم تقريباً ثمة أفراد يسافرون وحدهم إلى (عبري) ويتعرضون لسرقة ملابسهم الرثة التي يسترون بها ظهورهم، ورغم ذلك يُطلب مني أن أقودك بأمان في حين أن اسم الإنكليزي وحده يكفي لاجتذاب العديد من قطاع الطرق». وأخبرته بأنني أدرك المخاطرات التي قد تواجهني في رحلتي قبل أن أبدأ بها بزمن طويل وعلى هذا الأساس، فإنني سأسعى إلى تحمّل أي أذى عن طيب خاطر. كنت بكلامي هذا صادقاً كل الصدق، حيث أننا لم نجلب معنا أي شيء باهظ الثمن.

أمضينا هذا المساء ومعظم اليوم التالي ونحن نفاوض الشيخ، ولما وجد أنه ليس في وسعه الحيلولة دون استمرار الرحلة، وافق على أن يزودنا في الصباح بأفضل الحراس وأكثرهم عدداً مما قد تسمح به الظروف عنده.

على الرغم من أن (مقنيات) كانت مدينة كبيرة، إلا أن شأنها تضاءل حتى باتت غير مهمة منذ الصدمة التي تلقتها إثر غارة الوهابيين عليها سنة 1800. فقد استولى الوهابيون على القلعة واحرقوا المنازل ودمروا العدد الأكبر من الأشجار. استطعت أن أحدد موقع (مقنيات) من خلال ملاحظة وقت الظهيرة وتحولات النجوم بأنها تقع على خط عرض 23 درجة و21 دقيقة و25 ثانية شمالاً. وقد دهشت هنا، مثلما دهشت في العديد من الأماكن الأخرى من عُمان، للعناية القليلة التي يبذلها السكان في دفن موتاهم. فبعد أن يتم غسل الميت، يُلف بقطعة قماش ويدفن بمراسيم غاية في البساطة. ولا يزيد عمق القبر عن ثلاثة أقدام، وبعد الدفن، توضع صخرة فجة، بلا أي كتابة، عند رأسه، وأخرى عند قدميه.

(*) كذا قلت لعله تصحيف وصوابه (ناصر).

خلال إقامتي في هذا المكان، توفيت امرأة من أقرباء الشيخ. فسار هو وجميع الأقرباء من الذكور في الجنازة حتى القبر. في هذه المدن لا تُوجد ندّابات، إلا أن النساء من جارات المتوفاة يجتمعن ويواصلن على مدى ثمانية أيام، من شروق الشمس حتى غروبها، العويل والبكاء.

الحادي عشر من مارس / آذار: كانت سلسلة (الجبل الأخضر) تمتد إلى الجنوب والجنوب الشرقي، كما كانت تبعد مسافة خمسة وثلاثين ميلاً. ووجدت أن الشيخ قد جمع حرساً قوامه سبعون رجلاً قلما يشير مظهرهم إلى احترام أكثر من الاحترام الذي يتصف به أولئك الذين رافقونا من (مسكن)، رغم أن خيولهم أفضل. في الساعة العاشرة والنصف غادرنا ضواحي البلدة وتقدمنا غرباً بسرعة كبيرة ونحن نجتاز الحقول. أرسل مرافقونا بعض المستطلعين إلى جهتي الشمال واليمين علاوة على مجموعة أخرى تتقدمنا في السير. وعلى الرغم من كل مخاوفهم، فقد وصلنا إلى قرية (هيال؟ Ayal) في الساعة الواحدة والنصف دون أن نصادف في طريقنا إنسياً واحداً. كان طريقنا يمتد بمحاذاة وادٍ عريض تحف به التلال من كلا الجانبين، وهي تلال ذات سفوح مُنحدرة أو تمتد منفصلة مكونة بذلك تلالاً هرمية منعزلة بعضها عن بعض مقطوعة من الجزء الأعلى، إلا أنها بنفس الارتفاع والاتجاه الذين تتصف بهما السلسلة المتصلة من التلال. بعد مغادرتنا القرية وحصولنا على حارس آخر، دخلنا وادياً آخر عريضاً يجري في وسطه غدير ماء ضيق. وفي الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين أمضينا ليلتنا في قرية صغيرة تُسمى العارض.

الثاني عشر من مارس / آذار: في الساعة العاشرة اصطحبنا حارسنا الذي أمضى الليلة داخل أسوار القرية وانطلقنا في رحلتنا ونحن نعبر مجموعة من السهول الرملية المجدبة تشبه السهول التي عبرناها يوم أمس. كانت الريح ساكنة تماماً. وفي حين كنا نجتاز بين الفينة والفينة الوديان الضيقة التي كانت تعترض طريقنا كان تركيز درجة الحرارة فيها لا يطاق تقريباً.

في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخمسين مررنا ببستان وبلدة (الدريز) التي كان سكانها في حالة عداء مع الجماعة التي ترافقنا. ونتيجة لذلك درنا من حولهما دون أن نضطر إلى دخولهما. في الساعة الواحدة والدقيقة الخمسين وصلنا بلدة (العينين Inan) التي

يعيش فيها شيخ القبائل. قبل سنوات قليلة، كان هذا الشيخ واسع النفوذ لا في المناطق المجاورة حسب، بل في وسط أقوى القبائل النجدية أيضاً. بيد أن سلطته أصبحت تقتصر اليوم على بلدة (العينين) حيث يعيش داخل أسوار قلعتها. قادنا طريقنا إلى وسط البلدة ولاحظت أن الزراعة تتركز في مناطق محصورة توازي بقية المناطق في عُمان. بعض الأشجار باسقة، ولابد من ملاحظة الفرق الشاسع بين الظلال والعتمة اللذين بدأنا نتوغل الآن وسطهما وغبار الطريق وحرارته الذي افترقنا تواً عنه. وبعد أن مررنا ببلدة أخرى مشابهة، وصلنا في الساعة الثالثة والدقيقة الخمسين بلدة عبري. وما أن اجتزنا السوق حتى ساروا بنا إلى فسحة مكشوفة أمام بيت الشيخ حيث بقينا ننتظر مع أمتعتنا مجيئه. وعند غروب الشمس زارنا الشيخ، وفكرت أن في وسعي أن أتصور من خلال نظرة خاطفة شخصية الرجل الذي سنتعامل معه. وعلى وجه العموم، يمكن القول إن شيوخ المدن في عُمان هم أشخاص جذابون جداً، مُهابون وذوو سلوك يبعث على الرضا. إلا أن هذا الشيخ كان على عكس ذلك تماماً إذ ليس فيه ما يوحي بمظهر الشيخ ولا صفاته. وعندما أخرجت رسائل الأمام شرع في قراءتها وانصرف دون أي رد. وبعد مضي ساعة من الزمن أرسل رسالة شفوية تفيد بأن علي ألا أضيع أي وقت وأن أغادر البلدة على الفور، لقد ظن، وهو يخبرني، بأنني لم أدرك بأن البلدة تحتشد بحوالي ألفين من الوهابيين. كان هذا يشكل نبأ بالنسبة لنا. فقد أصبح لقاؤنا بهم في وقت مبكر أكثر مما كنا نتوقعه. لكننا لم نظهر إلا الهدوء وتصرفنا بكل برود. وفي هذه الأثناء، أعددنا العدة لنصب خيمتنا، وبعد أن أكملنا ذلك، أرسلنا رسولاً إلى الشيخ ليخبره برغبتي في رؤيته. في حوالي الساعة التاسعة صباحاً، جاءني الشيخ بصحبة بعض الدهماء قال: أنهم من أقربائه. وبعد ذلك وجهت الحديث مباشرة إلى الموضوع واستفسرت عنه عن عدد الرجال الذين في وسعهم أن يطلب منهم مرافقتنا إلى (البريمي). ثارت ثائرته وأقسم بأن الطريق خطر جداً وأنه لا يستطيع أن يزودني ولو برجل واحد. كنت غير مستعد لسماع رفضه، إلا أنني حاولت بكل وسيلة ممكنة أن أثنيه عن قراره، وأوضحت له أن مخاطر الطريق يعرفها جيداً (السيد سعيد) عندما كان يحرر الرسائل وأنه سيغضب غضباً أكيداً عندما يعلم أن أوامره لم تنفذ. وألمحت إلى أنني سأكافئه إذا ما رضخ لمطالبي، إلا أنه ظل ثابتاً لا يتزحزح عن موقفه. وأخيراً أخبرته أنني لا

أستطيع التفكير بالعودة إلا إذا أعطاني رسالة إلى الأمام توضح موقفه الحالي. واستفسرت منه أن كان حقاً قد أرسل رسالة شفوية تطلب مني مغادرة البلدة، فأنكر ذلك لكنه كرر ذلك بصورة غير مباشرة بعد عشرة دقائق وانصرف.إننا لم نألف منه عروض المساعدة والتجهيزات أو توفير محلات الإقامة التي كنا نألفها من شيوخ عُمان الآخرين، إذ كان هدفه يتمثل في إخراجنا من بلدته بأسرع ما يستطيع. وكل ما سمعته وشاهدته أعطاني سبباً واهياً لأن أؤخر إرغامه في هذا الصدد. كان الوهابيون قد أخذوا يحتشدون بأعداد غفيرة من حولنا وبدوا في انتظار أي مبرر للبدء بالشجار. في مثل هذه الحالات الطارئة لا أتبنى إلا خطة واحدة وهي أن أبعد أي قطعة سلاح عن متناول الأشخاص الذين يرافقونني. كنا أنا و(وايتلوك) مسلحين وكنا ندرك كل الإدراك العواقب التي قد تنجم نتيجة الاستخدام المتسرع للأسلحة. كان عدد الرجال قليلاً عموماً، ولم تكن ثيابهم بأكثر من وزرة ملفوفة على وسطهم. كانت ملامحهم دكناء وشعرهم طويل. ولم أدرك إلا بعد وقت ليس بالقصير أن هؤلاء ليسوا سوى مجموعة تابعة لـ (سعد بن مطلق) الذي ذكرت أفعاله المتوقعة ومن ثم هزيمته في التفاصيل التي أوردتها عن (بدية). لهذا السبب كانت وضعيتنا محفوفة بالمخاطر والفرصة الوحيدة في هربنا تتمثل في الاعتماد على ثباتنا وسلوكنا لأنهم كانوا آنذاك يتقدمون للهجوم على أجزاء من مقاطعة الشيخ وكان هو أملنا الوحيد بالنجاة.

أعلن (علي) الذي يملك فكرة رهيبة عن معارفنا الجدد بأنه لا يستطيع النوم وأن الوهابيين كانوا يحومون من حول الخيمة وأننا إما سنتعرض إلى السرقة أو القتل حتماً قبل بزوغ الفجر. وهنا انتابت مترجمي الفارسي المتين البنية الذي تبلغ قامته ستة أقدام، نوبة من الخوف. ثمة سبب لمخاوفه، لأن الوهابيين يكرهون الفرس باعتبارهم من شيعة الأمام علي أكثر مما يكرهون أي طائفة أخرى من المسلمين. وعندما عاد الشيخ وقدم لي رسالته إلى الإمام، أدركت أن من العبث الذي لا طائل من تحته محاولة بذل أي جهد آخر لثنيه عن قراره. لهذا السبب لم أقم بالمحاولة. وفي هذه الأثناء، انتشرت الأخبار في كل مكان بأن إنكليزيين قد توقفا في البلدة ومعهما صندوق مليء بالدولارات، إلا أنه لا يحتوي في الواقع إلا على بضعة ثياب نحملها معنا. واجتمع الوهابيون وغيرهم من القبائل للمداولة في الموضوع في حين أخذت بقية فئات المجتمع الدنيا تخلق الفوضى والضوضاء. لقد كان

الشيخ أما يفتقر إلى التأثير أو أنه كان خائفاً من ممارسته ومن الواضح أن أتباعه كانوا يرغبون في الإسهام في السلب والنهب. لقد آن الأوان للقيام بعمل ما.

ناديت على (علي) وطلبت منه ألا يقوم بأي ضوضاء ولا أي فوضى وأن يجمع الإبل دون تأخير. في هذه الأثناء كنا قد قوضنا الخيمة بينما كان الحشد يزداد عدداً كل دقيقة. كانت الإبل على استعداد فما كان منا إلا أن اعتلينا ظهورها. كان حادي الإبل يريد الآن تقديم مسوغ لهم كي ننطلق، فلحقوا بنا وهم يحدثون مختلف الأصوات، لكننا تمكنا أخيراً من الاندفاع إلى الأمام بينما ظلوا هم يرموننا ببعض الحجارة. وصلنا ضواحي البلدة دون حدوث أي إزعاج. لقد كنت أسمع دوماً عن السلوك غير اللائق لسكان هذه المنطقة. وكان العرب الذين يعيشون على مقربة من المكان يقولون بأن المرء إذا أراد الدخول إلى (عبري) فإن عليه أن يكون مدججاً بالسلاح أو أن يكون شحاذاً يرتدي وزرة تلف وسطه، ومصنوعة من نوعية غير جيدة. وهكذا، تنتهي للمرة الثانية آمالنا في الوصول إلى (الدرعية) من هذا المكان. إلا أنني على الرغم من ذلك لم أشعر باليأس، بل عقدت العزم على التقدم إلى الأمام صوب (السيب) وحط الرحال فيها والسعي من ميناء (شناص) إلى التوجه إلى (البريمي). كانت لدي رسائل موجهة إلى زعيم الوهابيين، ولو كان في مستطاعي الوصول إليه لما بات لدي شك في مواصلة رحلتي بأمان إلى المدينة الأولى.

تعد (عبري) واحدة من أشد المدن ازدحاماً بالسكان في عُمان. القليل من سكانها، ممن ينتمون إلى قبيلة (Yaknah)، يمارسون الأعمال التجارية بمختلف أنواعها، ويقتصرون في مقايضتهم على ضروريات الحياة ويعيشون على ما تنتجه بساتين النخيل وحقول الذرة التي يملكونها. أن الأعمال الزراعية في أجزاء أخرى من العالم تتصف بأنها تضفي طبيعة إنسانية على سلوك الناس وتلين عريكتهم. أما في هذه الأماكن، فإنها لا تحدث مثل هذا الأثر، حيث أن المزارع يسعى من خلال التظاهر بالعنف بقمع أو كبت كل المشاعر الرقيقة. أنني أتخيل أنهم اضطروا إلى ذلك بسبب رغبة –عند اجتماعهم بجيرانهم من البدو– في التعويض عن النظرة الدونية التي ينظر بها أولئك الجيران إلى كل من يمتهن مهنة أقل مدعاة للهدوء والسلامة من مهنتهم.

وتعد النيلة والتمور والسكر من أهم صادراتهم، أما الرز والتوابل والقماش القطني الأبيض الذي يرسل لغرض صبغه باللون الأزرق فهي أهم الواردات. مررنا بالعديد من المناطق المزروعة بالشعير، وعند هبوط الظلام توقفنا قرب مخيمنا القديم في قرية (Ayal).

بخلاف توقعات (علي)، أمضينا الليلة ولم ينقص منا إلا بعض الحاجيات التافهة التي نستحق أن نفقدها لأنها تُركت خارج الخيمة.

الرابع عشر من مارس / آذار: ظلت القرية برمتها تقريباً تحرسنا الليلة الماضية بناء على تحريض من (علي). ذبحت ثلاثة أو أربعة أغنام لهم. غير أن بندقية وسيفاً وبعض الحاجيات الأخرى سرقت منا أما لأنهم كانوا تواقين جداً للعشاء أو لسبب أخر. من خلال أسلوب سفرنا الحالي لم يكن في وسعنا الاستغناء عن هذه الحاجيات، لهذا السبب طرحت المشكلة على الشيخ فطرحها بدوره على وجهاء البلدة. وبعد جلبة شديدة وجدال حاد، تقرر إعادة الحاجيات.

عندما حُلّت المشكلة ولتحويل العار والعقوبة الناجمة عن ذلك فيما بعد عن السارق الذي أعتقد لأسباب أفترضها بأنه من أقرباء الشيخ، فإن هذا أصدر تعليماته بأن المواد المسروقة ينبغي وضعها في غضون نصف ساعة في مكان غامض من البستان. وهناك تم العثور على الحاجيات في الوقت المحدد.

الفصل الخامس عشر

صحار – شناص – دبا

في بلد يميل فيه السكان إلى العدوانية، فإن الرحالة سيحسن صنعاً أن لم يعد من نفس الطريق التي جاء منها إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً. ففي المرة الأولى التي يمر فيها، فإن مروره ذاك يكون قبل أن يستفيق السكان من أثر مفاجأة الزيارة. أما في الزيارة الثانية، فإنه سيغدو موضوع حديث طويل واستفسار، وإن كانوا ميالين إلى الشر، فإنهم سيبحثون عنه طويلاً حتى يجدوه. أن أحداث اليوم والأمس، علاوة على العديد من الأحداث التي وقعت فيما مضى، أثبتت لي صحة وجهة نظري.

ففي طريقنا إلى (عبري)، مررنا بـ (العينين) دون إثارة دهشة كبيرة. لكن أخبار عودتنا كانت قد سبقتنا، ونتيجة لذلك فقد استقبلنا وسار من وراءنا العديد من الشبان والأطفال عند مدخل البلدة وفي أثناء اجتيازنا لها، وهم يصرخون ويرجموننا بالحجارة. حتى الشيخ نفسه، الذي كان مجاملاً في زيارتنا الأولى، لم يرغب في تركنا نواصل الرحلة دون أن نقدم له الهدايا، إضافة إلى الهدية التي قدمتها له لقاء إزعاجه. لهذا لم يكن أمامي أي خيار سوى الرضوخ. وتجدر الإشارة إلى أن هي المرة الأولى التي فقدت فيها شيئاً تافهاً، أو تعرضت فيها إلى الابتزاز، في مجمل عُمان، باستثناء بعض المواد التي فقدت في (عبري).

في ظهيرة اليوم التاسع عشر من مارس / آذار، وصلنا مرة أخرى إلى (السويق)، حيث استقبلنا (السيد هلال) بكل المودة التي سبق له أن استقبلنا بها. وضحك كثيراً، ولم يندهش، للاستقبال الذي لقيناه في (عبري)، وكانت دهشته الوحيدة على ما يبدو أننا نجونا بجلدنا. واكتشفت أنه بعد أن تلقى أنباء عن حركة الوهابيين إلى أمام، أرسل رسولاً يطلب منا العودة إليه، لكن ذلك الرسول أخطأنا ومرّ بنا ولم يتعرف علينا في الطريق.

لم يشجعني الشيخ على مواصلة الاستمرار في الرحلة إلى (البريمي). وقال: «ومع هذا، أن كنتَ راغباً في بذل آخر محاولة، فإنني سأزودك بقارب ينقلك إلى (شناص) وسنخبر

الشيخ هناك أن يرسلك إلى غايتك مع أحد الحرس».

في الثاني والعشرين من مارس / آذار، انطلقنا للسفر إلى ذلك الميناء ووصلناه بعد ظهر الخامس والعشرين. كان الساحل الممتد بين هاتين البلدتين تكثر فيه المدن والقرى الصغيرة وتساءلت أن كانت هذه المنطقة واحدة من أكثر المناطق ازدحاماً بالسكان. وكانت أهم المدن وأكبرها هي (صحار).

أما فيما يخص الناحية التجارية، فإن (صحار) تأتي بالمرتبة الثانية بعد (مسقط). وفيها حوالي أربعون سفينة تعرف باسم (البغلة)، كما أن علاقاتها التجارية مع بلاد فارس من جهة، والهند من جهة ثانية جيدة جداً. ويقدر عدد السكان بحوالي تسعة آلاف نسمة، إلا أن بعض هؤلاء السكان، الذين يعيشون في قرى مجاورة، يعدّون من ضمن هذا العدد. أن (صحار) مدينة قديمة ومنها انطلقت السفن العربية ومن موانئها صوب الصين في غابر الأيام. ووجدت أن العديد من المؤلفين القدامى قد أتوا على ذكرها. وكانت المدينة معروفة باسم (صحار) عند البرتغاليين. وفي سنة 1829، وخلال حكم القاصر (لأحمد(*) بن عزّان)، شيخ البلدة الحالي، احتفظ الإمام بحكم المقاطعة لنفسه، وكان يميل إلى الاحتفاظ بها، كما كان الاعتقاد سائداً، إلا أن مشاريعه باءت بالفشل على يدي الشيخ الشاب الذي لجأ إلى الخديعة واستولى على الحصن ومنذ ذلك الوقت احتفظ بها على الرغم من المحاولات العديدة التي بذلها الإمام لإخراجه منها. ثم أعقب ذلك إعلان السلم بينهما، لكن بما أن أراضي هذا الزعيم تمتد بهيئة شريط ضيق باتجاه الجنوب الشرقي من (صحار) إلى (الرستاق)، وداخل أراضي الإمام، فإن (السيد سعيد) لا يزال، كما يُعتقد، ينظر إليه نظرة حسد، وأنه يتحين الفرص للإطاحة به. أن حكومة هذه المقاطعة لينة ومنتظمة وتشبه في عناصرها حكومة (مسقط)، غير أن حاكمها يتميز بالجرأة والتهور والتقلب. وكلما تحدث الإمام عنه لقبه بلقب المجنون.

هناك عشرون أسرة يهودية تقريباً في (صحار) ولديها معبد صغير. وهذه الأسر من نفس

(*) كذا في الأصل الإنجليزي وصوابه حمود بن عزان.

طبقة يهود اليمن، ويقيمون أودهم بإقراض المال بالفائدة مثل يهود اليمن. ويسميهم العرب بـ (أولاد سارة) ويشمئزون منهم كل الاشمئزاز، ويُجفف الليمون هنا ويصدر بكميات كبيرة إلى الخليج العربي.

في أثناء زيارتي، كان الشيخ منهمكاً في نزاعه مع الوهابيين الذين نهبوا العديد من مدنه وأرغموه على البقاء داخل حصنه في (صحار). وكان الإمام يرغب في رؤية قوة الشيخ وقد ضعفت وأهينت، لهذا السبب لم يتدخل ولم يقدم أي مساعدة، لكنه جعل رجاله يمتلكون عزماً موازياً لعزم زعيمهم، لأن الصراع سيتقرر عمّا قريب. سكان ساحل البحر محاربون لا يكترثون لشيء، وما أن يصولون صولتهم في قلب قوات العدو عند ظهورها حتى يجد نفسه قد تخلى عنه معظم جنوده الذين كانوا يشكلون أفراداً من هذه الفئة، ولم ينجح في الهرب إلا بعد شجاعة تنطوي على التهور. ومنذ ذلك الوقت تعلم أن يكون أكثر حذراً.

يسود الاعتقاد بأن (الشيخ هلال) كان يتطلع إلى السيطرة على (عُمان) كلها. ويعتقد الكثير من أبناء الطائفة الأباضية -لأسباب ذكرتها في مكان آخر- بأن الإمام الحالي قد خرج عن العقيدة الصحيحة، وعلى هذا الأساس، فإن (حمود بن عزّان) يتخذ مواقفه. وهو يتظاهر بالورع الشديد. وقد منحه الله موهبة البكاء، ولهذا السبب يُشاهد وهو يبكي ساعات طويلة دون أن يكلم أحداً. كما أنه يتطلع إلى روح النبوة، وهو رقيق كحجاب المرأة ونجح في أن يخلق وسط العديد من الناس الذين تكلمت وإياهم نفس المشاعر التي يرغب في أن يخلقها.

إن العوائد المالية التي يحصل عليها (حمود بن عزّان) تتأتى عن طريق ميناء (صحار) الذي يدر عليه عشرة آلاف دولار سنوياً. كما أنه يفرض رسوماً على مدينة (الرستاق) تقدر بخمسة آلاف دولار. غير أن هذا ليس إلا أكثر من نصف المبلغ الإجمالي الذي يحصل عليه (السيد سعيد) عندما كان يسيطر على البلاد لأن (حمود) كان يدفع قسماً من المال لقاء اعترافهم بسلطته. يُلاحظ أن ساحل عُمان الممتد من (مسقط) إلى (شناص) يخلو من الموانئ، ولا يوجد من ملاذ على امتداد هذه المسافة كلها سوى بعض الخلجان المائية الملحية الضيقة أو الأخوار، كما يسميها العرب، وهي ذات عمق يكفي لمرور السفن

الصغيرة. ولهذا السبب لا يملك السكان إلا عدداً قليلاً من المراكب الكبيرة التي يمكن دخولها في الخور، أو سحبها إلى الشاطئ، وفي موسم التمور، تتبع نفس الخطة حتى إكمال عملية الشحن، ومن ثم تنطلق نحو وجهتها. غير أن المواصلات مع مختلف الموانئ يتم براً أكثر منه بحراً على وجه العموم. ولهذا السبب، يكثر الطلب على الحمير والإبل. ويبلغ سعر الحمار الجيد حوالي خمسة عشر إلى ثلاثين دولار، وتتصف الحمير بأنها أسرع من الإبل في العدو، حيث تبلغ سرعة الحمير ثلاثة أميال ونصف الميل في الساعة بينما تبلغ سرعة الإبل ميلين وثلاثة أرباع الميل في الساعة. وتكون خطوات الحمير قصيرة وسريعة خلال الجزء الأعظم من اليوم. وعدد الحمير في عُمان يوازي عددهم في البحرين، ويتم تصدير عدد كبير منها إلى جزيرة فرنسا عن طريق البحر.

أما (شناص) فهي بلدة صغيرة ذات حصن وبركة ماء ضحلة وفي وسع القوارب الصغيرة فقط الرسو فيها. ويقال أنها تسلم الإمام ثلاثة آلاف دولار سنوياً، غير أن هذا المبلغ لا يكفي لإطفاء نفقاتها. ففي غضون الحملة ضد (رأس الخيمة) في سنة 1809 خسرت قواتنا(*) في هجومها على الحصن العديد من الرجال. وقام سلطانها في تلك السنة بالتخلص من نير الإمام وانضموا إلى القراصنة، واحتشدوا في مدخل الخليج بضعة أشهر. لكن ما أن سقطت (رأس الخيمة) حتى عادوا إلى حكمه وسمح الحصن فيها بدخول مجموعة من الجنود البلوش الذين أبقاهم عنده لقاء أجر. وجدت أن الشيخ غائب، ولم نستطيع الحصول من أولئك الباقين معه على أي إجابة لأسئلتنا، كما لم نحظ بالمجاملة. إلا أنني عندما هددت بترك الميناء وإخبار الإمام بالاستقبال الذي جرى لنا، انتابهم الذعر، ومع حلول المساء، ساعدوني في إرسال رسالة الإمام إلى (السيد بن مطلق) زعيم الوهابيين؛ وقد كان لدي أسبابي التي تجعلني أعتقد أنه موجود في (البريمي). كما أرسلت أيضاً رسالة قلت فيها إذا كان يرغب في استقبالي فإنني أود أن يرسل قوة صغيرة لمرافقة الجماعة من ساحل البحر وحتى موضع إقامته لأن المناطق الواقعة ضمنها تشهد حالة كبيرة من عدم الاستقرار والاضطراب. أمضيت الفترة الزمنية التالية على إرسال

(*) أي قوات حكومة الهند البريطانية.

رسائلنا في جمع المعلومات ومعاينة المنطقة المحيطة بنا التي سأقدم لكم وصفاً لها.

ثمة تشابه شديد في الملامح العامة لهذا الجزء من عُمان، ولهذا فليس من الضروري الدخول في تفاصيل دقيقة. لهذا سأقدم وصفاً عاماً للبلاد وسكانها مبتدئاً بساحل البحر.

وبالنسبة للمنطقة الممتدة من (شناص) إلى (رأس مسندم)، الذي يمثل الطرف الشمالي الشرقي من الجزيرة العربية، (وهو ما أطلق عليه الإغريق اسم (Maceto) و(Acabo) بينما يسميه العرب (رأس الجبل) أو (رأس التلال) فإن الاتجاه العام للساحل هو الشمال الشرقي. وعلى امتداد هذه السواحل تكثر الخلجان العميقة والمغاور والجزر الصغيرة التي تزداد عدداً ويزداد عدم انتظام ملامحها العامة عند اقترابها من الرأس. ويستمر هذا الحال حتى على الجانب الغربي من قنة الجبل. وثمة قمة جبلية ضيقة لا يتجاوز عرضها خمسمائة ياردة تفصل بين (خليج خصب) و(غبة قريعة). وربما لا توجد في العالم سوى مناطق قليلة جداً تتسم بمثل هذا اللا انتظام الذي تتصف به المنطقة الواقعة بين هذا البرزخ والرأس.

تمتد سلسلة من القرى وبساتين النخيل من (شناص) وحتى (دبا)، وهي المنطقة التي يبدأ منها السهل البحري والمسماة بالباطنة على الخريطة. وللإمام في (دبا) حصن، وكان فيما مضى من الزمن يحصل من القرية على عوائد مالية قليلة تقدر بأربعة آلف دولار. ويمكن الحصول من هذه المنطقة على الماء والخضراوات وقطعان الماشية بجميع أنواعها. وفي المنطقة قوارب قليلة تستخدم في جلب الحبوب من شواطئ بلاد فارس. ويتشابه كل من (خورفكان) و(خور كلبا) في مساحتهما وفي الإنتاج الذي يوفرانه لـ (دبا).

وهناك سلسلة جبلية تمتد من (دبا) وحتى الجهة الشمالية، وترتفع هذه السلسلة ارتفاعاً مباشراً عن البحر وفي أماكن كثيرة تبدو خلابة آسرة. والشاطئ الوحيد الذي يصادفه المرء هو الواقع عند طرف الكهوف حيث توجد رمال أو مخلفات من المحار والمرجان المكسر الذي قذفته قوة الرياح والموج. ومن سلسلة الجبال الرئيسية، التي يبلغ معدل ارتفاعها حوالي ألفين وخمسمائة قدم، وفي منتصف الطريق تقريباً بين الساحلين الشرقي والغربي لسلسلة الجبال الداخلة وسط البحر، تمتد الوديان الجانبية باتجاه البحر. ويمكن

الوصول إلى (البريمي) عن طريق (شناص) بوساطة (وادي الخور) و(وادي uttar). وثمة طريق آخر من (الفجيرة) يمتد عبر السلسلة باتّجاه (الشارقة) التي يستغرق الوصول إليها يومان ونصف اليوم. وتنتشر بعض غابات النخيل على ضفاف الأنهار التي تلتف على امتداد القعر. أما فيما عدا ذلك، فلا توجد سوى القليل من المزروعات، ويشكل خط الواحات الممتد من (عبري) وحتى (البريمي) حدود المساحات الزراعية في ذلك الجزء من عُمان. ومن هناك وحتى شواطئ الخليج العربي، فالأرض عبارة عن امتدادات من الرمال القاحلة. وعلى مسافة رحلة يومين من (شناص) –على بعد أميال جنوب وادي (tuttar)– على الطريق المؤدية إلى (البريمي) توجد مجموعة من ثلاثين قرية يطلق عليها اسم (بلدان بني كعب) وقد أخذت اسمها من اسم القبيلة التي تقطنها. ويبلغ عدد السكان حوالي ألفاً وخمسمائة فرد؛ وعلى الرغم من أن هؤلاء السكان هم من الوهابيين، إلا أنهم يوفرون الحماية لكل من يلجأ إليهم مهما كان دينهم ومهما كانت جريمتهم.

وإلى الجنوب من هذه المنطقة الصغيرة توجد مدينة (البريمي) التي تشبه في ملامحها العامة ومساحتها بلدة (بدية)، وتحتوي على بضعة قرى وترويها الجداول الكثيرة. ويوجد حصن فيها أيضاً، نصبت فوقه بعض المدافع الصغيرة تعود لقبائل (الغافرية) التي ترفض الاعتراف بسلطة الإمام. ويقدر عدد السكان بألفين، لكن بتدفق الوهابيين عليها، ازداد عدد السكان خلال هذا الموسم ثلاثة أضعاف. ويتصف هؤلاء السكان بالهمجية ويكرهون زيارة الغرباء. وعلى الرغم من أن حرارة فصل الصيف شديدة جداً، إلا أن مناخ (البريمي) يعد أفضل مناخ في عموم عُمان، ويساوي مناخ نجد الذي يقول عنه الجميع أنه أفضل مناخ في الجزيرة العربية.

ومن (دبا) وحتى (رأس مسندم)، والمنطقة ذات التلال المحصورة بين السلسلة الرئيسية والبحر، يبدو المكان مجدباً وخالياً من الماء. أما الماء الذي يتم الحصول عليه من ساحل البحر فغير مستساغ. أمّا مجموعات أشجار النخيل الوحيدة التي تبرز أحياناً من داخل أحد التجاويف أو الأماكن المنعزلة، فتبدو صورة مناقضة تماماً لصورة التلال الكئيبة المعتمة، إذْ تبدو يانعة مخضوضرة. ولا توفر الأعشاب القليلة النامية في قيعان الوديان

الرملية والأعشاب الطبية والشجيرات الغريبة عن الصحراء إلا كلأً بسيطاً لقطعان الماعز الكثيرة التي نصادفها دوماً. وتوجد أيضاً الشجرة التي تدر الحليب، وتنمو وسط شقوق الصخر، وعلى الرغم من الطبيعة المرة للعصير المستخلص من هذه الأوراق، والذي يتصف بالقدرة على كشط البشرة إذا ما وضع عليها، فإن الماعز والإبل تتغذى عليه(*). الأغنام قليلة وهي تسرح فوق الصخور دون راعٍ، إلا أنها تعلم متى تعود عند المناداة عليها عندما يصبح من الضروري حلبها. والمسافة التي يظل فيها أصحابها قادرين على مناداتها بعيدة جداً، ويستطيع هؤلاء الحديث مع بعضهم بعضاً دون صعوبة عبر التجاويف التي يبلغ عرض بعضها مسافة نصف ميل.

يسكن عموم المنطقة قوم يتحدثون بلهجة تختلف عن لهجة القبائل(**) التي تسكن المناطق الأخرى من عُمان، وهم يبعثون على الدهشة في تمسكهم ببراريهم الموحشة، وهم لا يغادرونها إلا نادراً باستثناء الحالات التي يتم فيها تشغيلهم لقاء أجر في موسم حصاد التمور على ساحل (الباطنة) وفي زياراتهم لجزيرة (لارك) حيث توجد جماعة صغيرة منهم تعمل في صيد الأسماك وتمليحها. كما أنهم ينأون عن جيرانهم وقد استفسرت عنهم في المدينة بلا طائل. وقبل أن تقوم سفن المسوحات بزيارتها، لم يسبق لهم مشاهدة أي أوروبي ويظهرون الدهشة لرؤية النظارات الطبية والساعات اليدوية وغير ذلك من الحاجيات المثيرة التي كان في وسع أكثر المتوحشين من هولندة الجديدة عرضها أمامهم(***). وهم عموماً فقراء جداً لا يسترون أنفسهم إلا بوزرة صغيرة، ويسكنون في أكواخ دائرية صغيرة مشيدة بالحجارة، ويبلغ ارتفاعها حوالي أربعة أقدام، فوق شريط ساحل البحر. وهناك أماكن سكن أخرى ضمن المناطق المحمية ببعض الصخور التي تشكل عائقاً طبيعياً، وتكون الواجهة والجانبان مشيدين في هذه المناطق، أما العدد الأكبر منهم فيسكن في الكهوف والتجاويف. وفي إحدى المرات، عندما تقدمت إحدى سفن المسوحات كثيراً من الساحل، وساد الخوف من إمكانية جنوحها، احتشد الرجال

(*) هي شجرة العشر.

(**) يتناول المؤلف هنا قبيلة الشحوح.

(***) المقصود بهولندا الجديدة هو أستراليا حالياً وقبائلها الأصلية تعرف بـ (الأبورجين).

المسلحون فوق التلال، بعد أن كانت هذه قبل بضع دقائق خالية من أي بشر، وزحفوا إليها من كهوفهم للحصول على حصتهم من الغنيمة المتوقعة.

وتشكل التمور غذاءهم الرئيس إضافة إلى السمك المملح. أما الرز فلا يكاد يكون معروفاً عندهم، غير أنهم يحصلون على الشعير والقمح بكميات قليلة. وقد أكّد البعض بأن هؤلاء السكان لهم بشرة أقل سواداً ويتكلمون لغة تختلف عن لغة سكان الإقليم. إلا أن كلا الرأيين خاطئ. فالذين التقيت بهم كانت بشرتهم أكثر سواداً من بقية العرب، ولا تختلف لغتهم عن اللغة المستعملة في عُمان، بل هي تختلف اختلاف لهجة اليمن عن لهجة الحجاز. وقد استوطنت جماعة من الفرس في (كمزار) وفي (خليج خصب)، ولا يزال أحفاد أولئك الأسلاف يعيشون فيها حتى الآن وربما خلق هذا الافتراض أولئك الذين شاهدوا أولئك الأحفاد.

ويسكن في المنطقة الصخرية الموحشة هذه عدد كبير من الناس لا يقل بأي حال عن خمسة عشر ألف نسمة. وتمتد على الشواطئ الشرقية والغربية العديد من القرى. وفي وسع شيخ خصب أن يخضع تحت سيطرته خمسة آلاف رجل. أما شيخ (بخا) فلديه حوالي ألفي رجل، كذلك فإن لدى زعماء بقية القبائل أعداداً مساوية لهذا العدد من الرجال. ويربون الدواجن داخل بيوتهم بما في ذلك البط الذي لا أتذكر أنني شاهدته من قبل في أي جزء من أجزاء الجزيرة العربية.

الفصل السادس عشر

ساحل القراصنة

بقي لنا أن نتحدث عن القراصنة(*)، وهم قوم غير معروفين هنا إلا قليلاً، إلا أن قوتهم وتأثيرهم كانا ولا يزالان يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالأحوال السياسية للقبائل في هذا الجزء من الجزيرة العربية. وهم يحتلون جزءاً من الساحل ضمن الخليج العربي وينحصر بين سلسلة الجبال وساحل البحر ويمتد هذا الجزء باتجاه (خصب) وحتى جزيرة (البحرين) وهي مسافة يبلغ طولها ثلاثمائة وخمسين ميل. وتحمل هذه المنطقة على الخريطة اسم (ساحل القراصنة).

يمكن إرجاع تاريخ هؤلاء القراصنة إلى عهود موغلة في القدم. ففي تفسير (ابن حوقل) للقرآن الكريم(**)، يخبرنا المؤلف بأنه قبل إطلاق سراح بني إسرائيل من الأسر المصري، استولى رعايا أحد ملوك القراصنة في هذه البقاع على كل سفينة ثمينة تمر بهم. وقد ساعدهم امتلاكهم عدداً قليلاً من الموانئ في مدخل الخليج العربي وقربه -حيث لا يتجاوز عرض المسافة أكثر من ثلاثين ميل- على رؤية كل السفن القادمة ومهاجمتها. ولم يقتصر سلبهم ونهبهم على هذه المنطقة حسب، إذ لم تستثن مجمل الحدود الجنوبية للجزيرة العربية والحدود الشمالية للهند من عملياتهم التدميرية. وأثبتوا للبرتغاليين في أثناء إقامتهم القصيرة في الهند بأنهم مصدر قلق واضطراب مثلما كانوا كذلك بالنسبة لنا(***) في الربع الأخير من القرن الثامن عشر.

ظل إمام (مسقط) في حالة حرب دائمية مع هؤلاء اللصوص. ففي سنة (1805) واجههم

(*) يقصد المؤلف هنا قبيلة القواسم والتسمية تعكس حدة المواجهة التي أبداها سكان الخليج العربي تجاه الأطماع الاستعمارية ورفضهم للوجود الأجنبي على مياههم وسواحلهم البحرية.

(**) كذا في الأصل الإنجليزي ولا يعرف للمذكور تفسير للقرآن فقد كان جغرافياً ورحالة ومن أشهر كتبه (صورة الأرض) توفي عام 367هـ/978م.

(***) أي للانجليز.

(السيد سلطان) وهو عم(*) الأمير الحالي، قرب (لنجه) وبعد معركة حامية الوطيس لقي مصرعه. أما السيد سعيد فقد ساعدنا في كل محاولاتنا لاستئصال شأفتهم.

ليس من الضروري هنا الآن البحث في الدوافع التي حدت بالحكومة الهندية إلى تحمل أعمال النهب والسلب التي كان يقوم بها أولئك اللصوص. وربما أمكننا أن نعزو السبب إلى الصراعات التي كنا نشتبك فيها مع مختلف القوى في الهند. لكن إذا كان الأمر كذلك، فإن من المؤكد أن البحرية الهندية -التي تشكل قوة الغرض من تأسيسها قمع القرصنة والقضاء عليها- تلقت تعليمات مفادها ألا تكون عدوانية بأي حال من الأحوال، بل أن يقتصر دورها على صد أي هجوم يُشن ضدها. وتفيد الحكاية التالية في توضيح العلاقة الفريدة التي كانت قائمة بيننا.

كانت هناك سفينتان من سفن (القواسم) ترسوان في منطقة (بو شهر) في الخليج العربي قد أوضحتا للمقيم البريطاني في ذلك المكان بأنهما بحاجة إلى بارود المدافع، فما كان منه إلا أن أصدر تعليماته إلى إحدى السفن الراسية في الميناء بتزويدنا بالكمية التي نحتاجها استناداً إلى التعليمات التي كان يلتزم بها من حكومة الهند بضرورة الاحتفاظ بعلاقات هادئة معهم. وما إن استلمت السفينتان البارود حتى بدأ الهجوم على تلك السفينة التي كانت محملة بالمؤن والبضائع على ظهرها وراسية في الميناء. إلا أن هذه السفينة التي كانت بإمرة ضابط شاب وشجاع (الذي يؤسفني ألا أستطيع ذكر اسمه) قطعت حبل مرساتها وأفلحت في القضاء عليهم بعد دفاع مستميت.

سأضيف حالتين أخريين، تكشفان عن أسلوب تقدمهم عندما ينجح في القبض على إحدى السفن:

في سنة1808، هوجمت سفينة صغيرة تدعى (سيلف)، لا تزيد حمولتها عن مائة طن ومتجهة من (بومباي) وحتى (بو شهر) وعلى ظهرها أحد الوزراء الفرس، قرب جزيرة

(*) كذا في الأصل الأنجليزي وصوابه والد الأمير وليس عمه والحادثة جرت في 30 نوفمبر / تشرين الثاني عام 1804م أما (قيس) عم السيد سعيد فقد قتل في معركة خورفكان عام 1808م ولعل الأمر اختلط على المؤلف.

(كنج)، بوساطة سفينتين كبيرتين من سفن (البغلة) على متن كل واحدة منهما طاقم مكوّن من حوالي مائتي رجل. وبعد معركة قصيرة ولكنها حاسمة، تم اقتياد السفينة وعندئذٍ بدأ العرب بقتل الناجين منها. إلا أن هذه العملية توقفت لحسن الحظ عند ظهور سفينة صاحب الجلالة (نيريد) التي أطلق قبطانها النار على السفينتين بعد أن رأى ما جرى، وأغرقها بمن فيها. أما الحادثة الأخرى –وهي حالة من بين العديد من الحالات الموجودة أمامي– فتشير في تفاصيلها إلى صورة أكثر فظاعة ونفوراً للهمجية المتوحشة.

فقد كانت السفينة التجارية (منيرفا) تتقدم باتجاه (بو شهر) عندما صادفت أسطولاً كبيراً في نفس البقعة تقريباً. وبعد معركة مستمرة استغرقت يومين اقتيدت هي الأخرى، كما هي العادة، بالصعود على ظهرها. وحاول القبطان (هوبكود) الذي أدرك المصير القاسي الذي ينتظره أن ينسف السفينة لكنه أخفق لسوء الحظ، وهنا بدأ ذبح الضحايا. كان أول ما فعله القراصنة هو تنظيف السفينة بالماء والعطور ولما فرغوا من ذلك تم ربط الأفراد وقدموا الواحد تلو الآخر باتجاه الممر حيث أقدم أحد القراصنة على حز رقابهم وهو ينادي بالعبارة التي يطلقونها عادة عند ذبح القطيع: «اللّه أكبر» وكانوا ينظرون إلى ذبح هؤلاء على أنه تضحية لاسترضاء نبيهم. ولإظهار هؤلاء البؤساء الخارجين عن القانون يحملون بعض الصفات المدهشة للشخصية الوطنية التي جعلت من العرب شاذين في تاريخ الأمم المتوحشة، فإن بعض الصفات الأكثر نبلاً امتزجت بوحشيتهم القاسية. إن شخصية النساء وفضيلتهن كانت دوماً موضع احترام، وكان من شأن تصرف معاكس أن يجلب عليهن العار وعلى قبائلهن الخزي. وكان أحد الضحايا من المسلمين فأبقوا على حياته بعد أن جردوه من ثيابه وسلبوه ما يملك، إلا أن الموت كان ينتظر الكافرين بالمرصاد. ولا بد من أن أضيف القول بأن وحشيتهم تزداد سوءاً، كما أوضحت، عندما يواجه انتقامهم مقاومة تكلفهم بعض الخسائر في أرواح رفاقهم(*).

إن الشجاعة التي ليس لها نظير هي بلا شك شجاعتهم وإذا تم أسرهم، فإنهم يتقبلون

(*) يبدو أن هذه الحادثة كانت رد فعل وانتقام لتصرفات شنيعة تعرض لها وراح ضحيتها مجموعة من أقاربهم غير أن تاريخ القرصنة الأوروبي في حوض البحر الأبيض المتوسط وما فعله البرتغاليون أمثال ألفونسو دلبوكرك ما هو أفظع مما رسمه المؤلف لنا هنا.

المصير الذي ألحقوه بغيرهم. وعندما يقعون في أيدي الفرس، أو أية أمة أخرى من الأمم التي تحيط بهم، فلن ينجو منهم أحد. فبعد تدمير واحد من حصنهم، اقتيد العديد منهم إلى ظهر سفننا وهم أسرى. ولما كانوا لا يعرفون ما سيحل بمصيرهم، وقبل أن تضمد جراحهم، سئلوا عن المعاملة التي يتوقعونها. فكان الرد الحازم المميز: «نفس الموت السريع الذي كنا سنلحقه بكم لو كنا في مكانكم».

واليوم قلّة هي تلك السفن التجارية التي تغامر بالإبحار بين الهند والخليج العربي دون أن تواكبها سفينة حربية لحراستها على الإبحار بين الهند والخليج العربي في حين باتت مراكب المواطنين عرضة للسلب والنهب. وقد توقفت الكثير من العمليات التجارية ونفد صبر الحكومة أخيراً.

في سنة (1809) أرسلت حملة ضدهم بقيادة القبطان (وينرايت) في سفينة صاحب الجلالة (شيفون) وترافقها عدة سفن من البحرية الهندية وكتيبة من الجيش من بومباي بقيادة العقيد (سمث). وتم اقتحام معقلهم الرئيس (رأس الخيمة) والاستيلاء عليه، كما أحرقت خمسون من أكبر سفنهم أو دمرت. كما تم إخضاع (لفت) على جزيرة (قشم) إضافة إلى إخضاع العديد من الموانئ الأخرى. وعلى الرغم من أن هذا العمل قد أوقف نشاطهم برهة من الزمن، إلا أنهم سرعان ما شرعوا ببناء موانئهم من جديد، وعادوا تدريجياً إلى ممارساتهم القديمة.

في هذه الفترة الزمنية، اضطرت أعداد كبيرة من الوهابيين بسبب نجاح (محمد علي) وجيشه في جزيرة العرب وسقوط عاصمتهم (الدرعية) إلى الهرب إلى ساحل البحر حيث كانت القبائل هناك بعض القبائل قد اعتنقت مذهب مؤسس الطائفة. وبالنسبة لذلك البدوي المترحل والمتمرد فإن حياة التجوال والمغامرة لدى القرصان، تحمل له الجاذبية والسحر. إنها مجرد نقل مَسْرح العداء البدوي لبقية أبناء جنسه من البشر من رمال الصحراء إلى مياه البحار وقد نجم عن ذلك أن انضم إليهم عدد كبير وأصبحت قوتهم ضاربة حقاً.

لقد كانوا ينطلقون من موانئهم على الجزء الجنوبي من الخليج العربي في سفن كبيرة

وسريعة تزن الواحدة منها ما بين مائتين إلى أربعمائة طن، ويقدر عددها اليوم بمائة سفينة. وكان انطلاقهم يشكل أسطول كبير وكانوا يجعلون جميع سواحل الجزيرة العربية ومدخل البحر الأحمر وشواطئ الهند الشمالية في حالة دائمية من الذعر والإثارة. وكانت المعارك التي تحدث بين فترات مختلفة معارك يائسة وكثيرة تنشب بينهم وبين سفن البحرية الهندية التي اضطرت الآن إلى سلوك طريق آخر يختلف عن الطريق الذي كانت تسلكه فيما مضى من الزمن. وعلى الرغم من أن هجمات القراصنة كانت تُصد أو تُهزم أو يتم اجتياح معاقلهم الرئيسية، لكن لا يبدو أن عزيمتهم قد خارت ولا معنوياتهم في أي وقت من الأوقات. إذ سرعان ما كانوا يبنون السفن الجديدة أو يقومون بشرائها، ويشيدون الحصن الجديدة وبعد فاصل قصير يشنون هجماتهم من جديد.

استحوذت الأحداث المرتبطة بعملياتنا في الهند ضد المهراجات على اهتمام الحكومة وأموالها إلى الحد الذي لم يعد فيه ممكناً توفير القوة العسكرية اللازمة لمعاقبة القراصنة، في بعض الأحيان، إلاّ بصعوبة كبيرة. لكن ما أن تنتهي عملية حتى يظهروا من جديد. وتفاصيل حملة سنة (1819) معروفة جيداً ولا ضرورة لإعادة سردها من جديد. لكن يكفي القول بأنه عندما سقطت بأيدينا (رأس الخيمة) والشارقة وغيرهما من الموانئ، فإن جميع قواربهم تم حرقها أو بيعها وأزيلت قلاعهم من على وجه الأرض. وتم الحصول على معلومات تفيد بأن أساطيلهم تمكنت من الهرب من أمام سفننا وذلك بأن لجأت إلى العديد من المغاور التي تكثر في هذا الجزء من جزيرة العرب، وكان الخوف من المخاطر المجهولة هو الذي حال بيننا وبين اللحاق بهم. وعندما نقل هذا النبأ إلى الحكومة الهندية، قررت وجوب دراسة الأمر دراسة دقيقة. ولما كنت لفترة من الوقت أعمل ضمن فريق الدراسة، فقد سنحت لي أطيب الفرص في جمع المعلومات التي سأفصلها الآن.

إن العلم مدين لهذه الحملات بسبب المسوحات الممتازة في الخليج العربي. وعلى الرغم من الصعوبات والحرمان الذي لقيته هذه السفن عند مواجهتها الطبيعة الخطرة للملاحة والطبيعة الغيورة والعدوانية التي يتصف بها السكان المحليون. والمؤثرات المناخية القاسية التي تبلغ فيها درجة الحرارة حداً لا يطاق، فإنها —سفن المسوحات—

واظبت على مهمتها بنجاح. وكانت النتيجة مرضية كل الرضا لا من حيث إضافة المعلومات إلى ما نملكه من مخزون المعلومات في الجغرافية فحسب، بل أيضاً في تزويد الحكومة بتفاصيل دقيقة عن العديد من القبائل وأحوالها ومصادر ثروتها مما دفعها في خاتمة المطاف إلى دراسة معظم سواحل الخليج العربي على نحو مماثل. ومع هذا، فإن حصر أنفسنا في هذا الجزء، فإن أفضل أسلوب لتفريق القراصنة إنما يكمن في ترك أماكن سكناهم مكشوفة لنا، إذْ طالما ظلت هذه مجهولة عندنا، فإن إحساساً بالأمان الحقيقي أو الزائف، سوف يدفعهم إلى ممارسة أفعالهم السابقة. إلا أن واقعة مسح السفن الإنكليزية لشواطئهم تكفي وحدها لإعطائهم فكرة عن أننا ينبغي أن نحصل على معلومات تامة عنها. لهذا السبب، فإن النتيجة أعطت مسوغاً للتوقعات، إذْ ما أن أكملت المسوحات وأسس نظام المراقبة الدقيق، حتى تحولت أساليبهم ومصادرهم، كإجراء ضروري، من حياة القراصنة إلى التجارة(*). لا تزال تحدث بعض النزاعات القليلة الشأن من حين لآخر بين قوارب مختلف القبائل المتنافسة، لكن معظم سفنهم شرعت الآن بالتجارة في الخليج العربي وبسلام من ميناء إلى آخر ومن هناك إلى الهند أو إلى البحر الأحمر. وربما أمكن طرح السؤال بأن هذا الجزء من جزيرة العرب –ومنذ زمن قديم عندما بدأت التجارة والملاحة، على أيدي الفينيقيين، بمحاولاتها الأولى في البحار الهندية– هل قدّمَ حماية مماثلة لرسو التجار عند إبحارهم على امتداد سواحلها(**)؟

على أي حال، ثمة سبب يدفع إلى الاعتقاد بأن مثل هذا الأمن لم يعد قائماً طالما أننا نواصل سياستنا الراهنة إزاء الزعماء العرب. فلو سحبنا أسطولنا البحري من الخليج مدة موسم واحد فقط، فإنهم سرعان ما يظهرون ثانية. فقد أعادوا بناء جميع مدنهم وربما كانت أكثر كثافة عن ذي قبل. وعندما انتهت سنة (1835) مدة الاتفاقية التي وقعناها سنة (1819) والتي تعهدوا بموجبها الامتناع عن القتال بحراً مع بعضهم البعض، خاطبوا الحكومة الهندية بضرورة أن يلجؤوا إلى تسوية خلافاتهم بالطرق السابقة، وهي خلافات

(*) هكذا يحاول المؤلف اقناع القارئ بأن مسوحات سفينة صنعت معجزة هي في الحقيقة من خيالات أوهامه.

(**) طرح مثل هذا السؤال ينبئ عن جهل المؤلف بتاريخ منطقة الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية ودورها الكبير في التجارة الدولية البحرية في العصور القديمة ويكفي دليلاً على ذلك ما ذكره الكتاب الاغريق والرومان عن بلاد العربية السعيدة.

نشبت مجدداً فيما بينهم. ولما كان الجميع يعرف بأن هذا ليس إلا مبرراً لشن هجماتهم على جيرانهم المسالمين، فقد رُفض طلبهم. لكن قبل ذلك ببضعة أشهر، قام مركب قراصنة يعود لقبيلة بني ياس بالاستيلاء على مركب هندي ونهبه في أثناء تقدمه إلى (بو شهر). لكن مركب القراصنة واجه بعد ذلك مركباً وحيد الصاري، فانتظروا اقترابه منهم وأعدوا العدة للهجوم على ظهره دون أن يردهم رادع. لكن ما أن انطلقت على جوانبهم المهلهلة دفعة من الكرات والإطلاقات النارية حتى أدركوا قوة العدو الذي تحدوه. ولما كانوا على بعد ياردات قليلة من بعضهم بعضاً، فإن الكثيرين منهم لقوا مصرعهم. ونتيجة لذلك تم اقتياد قائد السفينة العربية إلى الهند وقدم إلى المحاكمة في المحكمة العليا وحكم عليه بالسجن أربع عشر عاماً يقضيها في المنفى. لقد كان القسم الأول من هذه القضية مفهوماً جيداً لدى العديد من القبائل على امتداد الساحل، إذْ لم يتكرر وقوع مثل ذلك الحادث. إلا أن العقوبة التي بدأ يسري تنفيذها أثارت حيرتهم كثيراً. وخلال رحلاتي جرى تحذيري مراراً وتكراراً بعدم الاقتراب من أراضي هذه القبيلة التي هددت بالانتقام وبأن تحرق بالزيت أول أوروبي يقع في قبضتهم.

وهنا كما في أجزاء أخرى من جزيرة العرب، وجدت صعوبة شديدة في تحديد عدد السكان، إذْ لا يمكن الاعتماد إلا قليلاً على شهادة زعماء القبائل الذين يرغبون دوماً في تعزيز قوة قبيلتهم والحط من شأن بقية القبائل. وعدد المقيمين فعلياً متذبذب بسبب مسعاهم في البحر وارتباطهم بصيد اللؤلؤ. أما عدد أكواخهم فلا يوفر دليلاً أكثر مدعاة للثقة لأن هذه الأكواخ غالباً ما يهجرها سكانها وتبقى فارغة بعد أن تدمرها الرياح لأنها مشيدة من سعف النخيل دون عناء كبير. ولكن بسبب استفساراتي العديدة، فإنني أميل إلى أن أحدد عدد السكان بحوالي عشرين ألف نسمة باستثناء النساء والأطفال. القبائل الرئيسية هنا هي: (القواسم) و(المناصير) و(بني ياس) و(Mahama)(*)، وتعد القبيلة الأولى أقوى هذه القبائل، إذْ هي لا تملك معظم الموانئ الرئيسية على الساحل العربي فحسب، بل استقروا على الساحل الفارسي أيضاً حيث أصبحت لهم مدن كبيرة وقرى نامية. واسم القبيلة مأخوذ من اسم (ولي) الذي سكن في لسان من الأرض منخفض، وسميت فيما بعد باسم (رأس الخيمة) تلك البقعة

(*) كذا ولا شك أنه تصحيف إذ لا توجد قبيلة بهذا الاسم في المنطقة.

من الأرض التي شيّد عليها أتباعه خيامهم فصارت فيما بعد بلدة صغيرة حملت نفس الاسم نفسه، وسرعان ما اعتنق أفراد هذه القبيلة المذهب الوهابي الذين كانوا متحالفين معهم تحالفاً وثيقاً ولهذا السبب يمكن أن نعزو كراهيتهم الشديدة لأمراء عُمان. ويعد زعيمهم اليوم شخصاً سياسياً ماكراً، وهو يتمتع بقدرات حربية عظيمة إلا أنه يفتقر إلى الشجاعة والجرأة التي تميز العربي. وقد دمرت عاصمته (رأس الخيمة) سنة (1819) لكن أعيد بناؤها فيما بعد وربما كانت جذابة أكثر ويقطنها عدد أكبر من الناس عن ذي قبل. ولو لم تظل سفننا في حالة صلة معهم باستمرار، فإن مما لاشك فيه أن يقوم ببعض الاضطرابات.

القبيلة التي تأتي بعدها في الأهمية هي قبيلة (بني ياس). وكان زعيمها الراحل الشيخ (طحنون)(*) شخصية كبيرة ويتمتع بقدرة فائقة وله قوة اعتيادية مؤلفة من أربعمائة رجل مدججين بالسلاح والعتاد. وعلى الرغم من أن عدد هؤلاء يبدو قليلاً، إلا أنه يكفي لأن يمنحه نفوذاً واسعاً على خصومه وأن في وسعه حشد أربعة آلاف مقاتل في ميدان القتال.

لقد حظيت سفن المسوحات سنة (1828) باهتمام كبير من لدن هذا الزعيم الذي كان شديد الولع بالعديد من الألعاب التي كان الضباط والرجال يقضون أوقات فراغهم فيها عندما كانوا يتعاملون معه، وكان سعيداً إذ يشارك الضباط رجاله في تلك الألعاب. وكانت روح الدعابة سائدة آنذاك. ففي أحد الأيام تقرر أن يتسابق أحد الضباط مع (طحنون) الذي كان أقصر قامة لكنه بالغ الحيوية، محب للتسلية. وبعد بدء العَدْو بوقت قصير، أصبح الضابط في المقدمة، لكن عند اقترابه من الهدف وجد أن الشيخ الصغير يوشك أن يتجاوزه، فما كان منه إلا أن رمى بنفسه في طريقه، فسقط هذا وسط صيحات الضحك من قبيلته. لكنه لم ينزعج، بل نهض وهنأ منافسه على حيلته. وفي المصارعة والقفز وغير ذلك من التمارين الرياضية، كان العرب بارعين فيها، بل كانوا يتفوقون على الأوروبيين.

إن السلطة التي يمارسها هؤلاء الزعماء لا تختلف إلا قليلاً عن السلطة التي تتمتع بها حكومة الشيخ التي سأتحدث عنها الآن. إن سلطة الزعماء –وبسبب الطبيعة العنيفة والقاسية التي يتصف بها المحكومون– لا بد أن تكون بالضرورة ذات طبيعة استبدادية،

(*) الشيخ طحنون بن شخبوط حكم في الفترة (1818–1833م).

لكن للوجهاء كلمتهم أيضاً في فض النزاعات والقضايا التي تخص مصلحة القبيلة. ولا يستشار الشيخ ولا يطلب منه الحضور، كما أن القبيلة تُحكم دون اللجوء إلى العقاب. إذْ بسبب كون العلاقات بسيطة ومفهومة في جزيرة العرب، قلما تحدث الجرائم الموجهة ضد نظام المجتمع. ويحافظ هؤلاء الزعماء في مأكلهم وأسلوب معيشتهم على نفس حياة شيوخ البدو البسيطة، وهذه مسألة غريبة لأنهم لا يعيشون في صحراء معزولة بل على صلات دائمية بالهنود والفرس ولديهم قوة أكبر ومال أكثر مما يجعلهم لا يجدون صعوبة في توفير وسائل الراحة لأنفسهم. إن هذا التنكر للذات لا بد أن يعد طوعياً في الوقت نفسه الذي يحتفظ فيه بالعادات الوطنية.

عندما كنت أقوم برحلة على هذا الساحل سنة (1827)، وأحمل رسائل لشيخ الشارقة سلطان بن صقر(*)، هبت ريح عاتية غير متوقعة تسببت في انقلاب قاربنا. حدث هذا ونحن على مقربة من الساحل لكننا وصلنا بسلام لأننا كنا نعرف السباحة جيداً. وبعد وصولنا الساحل ازدادت الريح ضراوة ومرت ثلاثة أيام لم نتمكن في أثنائها من مغادرة المكان والتوجه إلى السفينة. وعندئذٍ توفرت لدي فرصة لدراسة السلوك الخاص للناس وحكامهم. ولم يهدأ للسلطان بال في الاهتمام بي، وكان إعداد الطعام يتم في منزله قبل أن يرسل إليّ، وفي أحد الأيام دعاني لتناول الطعام وإياه مساءً. واستقبلني في غرفة صغيرة لا تحتوي إلا على منضدة وكرسيين أو ثلاثة كراسي قدمها له قائد سفينتنا، وبعض السجاد الذي جلسنا فوقه. كان الطعام مقتصداً قام بعده شقيق الشيخ بتحميص القهوة وطحنها ثم قام الشيخ نفسه بتقديمها إليّ. ثم جاء أحد الرواة وروى قصة أثارت ضحك الجميع. أما أنا فكنت أجهل اللغة فلم أفهم شيئاً.

(*) الشيخ سلطان بن صقر (الأول) حكم في الفترة (1803-1866م).



الفصل السابع عشر
نهاية الرحلة

ينظر سكان الساحل إلى أنفسهم باعتبارهم أعلى شأناً من البدو أو عرب المدن، وهم أطول قامة من البدو والعرب وسحنتهم أكثر بياضاً وأبدانهم أشد عضلات منهم وذلك حتى بلوغهم سن الثلاثين أو الأربعين وعند ذلك يتحول مظهرهم إلى نفس مظهر الشيوخ وحتى هذه الفترة، فإن بعض أشكالهم تعد نماذج مثالية للقوة كما أن نمو عضلاتهم أعظم بكثير من نمو عضلات أي شعب آسيوي عرفته. وعلى الرغم من أنهم لا يحبون القيام بأي جهد، إذا ما أمكن تجنبه، فإنهم في بعض الحالات التي يتطلب منهم فيها القيام به، فإن الأسلوب الذي يجمعون فيه مجهودهم الشخصي يبعث على الدهشة حيث أن قواربهم الكبيرة جداً التي تزن ثلاثمائة طن تسحب بوساطة القوة البدنية وحسب فوق سطح الماء دون أي مساعدة من أحد باستثناء البكرات. وكلما كانت هناك ضرورة لتدشين قواربنا أو سحبها فوق المسطحات، فإنهم كانوا يفرحون بتقديم المساعدة لكي يتمكنوا من الضحك على ضعف البحارة والخدم والعسكريين الذين يتم استخدامهم غالباً في مثل هذه العمليات ليتجنب الأوروبيون حرارة الجو.

وعندما لا يكون هؤلاء السكان في حالة عداء مع جيرانهم، فإنهم يقضون وقتهم في صيد الأسماك أو الغوص بحثا عن اللؤلؤ أو بلا عمل تماماً لأن العواصف الشمالية الغربية التي تهب طوال الجزء الأعظم من السنة في هذا الخليج تمنعهم من التوجه إلى البحر وعندئذٍ يحصلون على ما يحتاجون إليه من الخلجان الصغيرة التي تتداخل في السواحل. ويستمر فصل صيد اللؤلؤ من يونيو / حزيران حتى سبتمبر / أيلول، أما في بقية الفصول فإنهم يشكون من شدة البرد. وفي أثناء موسم الصيد، يتم توظيف كل فرد قادر على قيادة قارب أو يشارك في قيادته مع غيره، ولا يبقى في القرية أحد من الناس سوى الأطفال والنساء والشيوخ الذين لا يستطيعون القيام بهذا العمل لكبر سنهم.

تمتد ضفة اللؤلؤ من الشارقة وحتى مجموعة (بودلف / بوضلف؟) ويكون القاع عادة من الرمال التي تكثر فيها الأصداف والمرجان المتكسر. ويختلف العمق إذ يتراوح بين خمس إلى خمس عشرة قامة. وحق الصيد على الضفة مشاع للجميع، لكن المشاحنات بين القبائل ليست نادرة الحدوث. وإذا كان وجود إحدى السفن الحربية يحول دون فض نزاعاتهم هذه على الفور، فإنهم يضعون حداً لها على اليابسة حيث يحطون رحالهم لفتح المحار. ولغرض وقف مثل هذه المنازعات، التي لو سمح باستمرارها لأدت إلى حدوث فوضى، فإن سفينتين حكوميتين تمخران عادة عباب البحر قرب الساحل.

أما سفنهم فذات أحجام متباينة وبناء مختلف يتراوح وزنها بين عشرة أطنان وحتى خمسين طناً. وفي أحد الفصول، تبين أن جزيرة البحرين توفر ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة من مختلف الأحجام بينما يوفر الساحل الفارسي ألف مركب وان المسافة بين البحرين ومدخل الخليج– بما فيها ساحل القراصنة– فيها سبعمائة مركب ويقدر ثمن اللؤلؤ الذي يتم الحصول عليه من مختلف هذه الموانئ بـ 40 لاك من الدولارات، أو أربعمائة ألف جنيه. وتحمل مراكبهم طاقماً يتراوح عدده بين ثمانية أشخاص إلى أربعين شخصاً. وبهذا يكون عدد الأشخاص الموظفين في الملاحة في موسم الصيد أكثر من ثلاثين ألفاً. ولا يتلقى أي واحد منهم أجوراً محددة، بل لكل منهم نصيبه من الأرباح الكلية. وثمة رسوم صغيرة تفرض على كل قارب من شيخ الميناء الذي تعود إليه. وفي هذه الفترة يعيشون على التمور والأسماك التي تكثر في هذا المكان وتتصف بنوعيتها الجيدة. ولهذا كانت هدايانا الصغيرة من الرز إزاء هذا الطعام الشحيح تشكل مصدر ترحيب كبير، وهم يغطون أجسادهم بثوب أبيض، لكن على وجه العموم، وفيما عدا وزرة تستر الجزء الأوسط من أبدانهم، فإنهم عراة تماماً. وعندما يوشكون على القيام بأعمالهم تراهم يقسمون أنفسهم إلى قسمين، يبقى القسم الأول في القارب لجذب أولئك المنهمكين في عملية الغوص. أما القسم الثاني فيزودون أنفسهم بسلة صغيرة ويقفزون من جانب المركب إلى البحر ويضعون أقدامهم فوق إحدى الصخور المربوطة بأحد الحبال. وعند إعطاء الإشارة يرخى الحبل ويغوصون إلى القاع وعندما يكون المحار كثيراً، فقد يرسل ثمانية إلى عشرة

أشخاص في كل مرة. وبعد ذلك يهز أحدهم الحبل فيقوم الشخص الموجود على ظهر القارب بسحب الغواص إلى أعلى بأسرع ما يستطيع. إن المدة التي يستطيعون البقاء فيها تحت سطح الماء قد بولغ في تقديرها. والمعدل العام دقيقة واحدة، ولا أعتقد بأنها تتجاوز الدقيقة والنصف إلا في مرة واحدة فقط[1].

ولا تقع أي حوادث في الغالب بسبب أسماك القرش، لكن السمك المعروف بأبي منشار يخشى أمره كثيراً. وقد رُويت لي بعض القصص عن الغواصين الذين قطعت أبدانهم إلى نصفين تماماً بفعل هذه الأسماك المتوحشة التي تتصف في الخليج العربي بأنها ذات أحجام أكبر من مثيلاتها في أي مكان آخر في العالم. ولما كان سلوك هذا السمك غير مألوف عند القارئ العام، فإنني سأضيف بعض الكلمات لوصفه، تكون هذه الأسماك ذات شكل دائري يميل إلى الاستطالة، أما رأسها فمسطح من الجهة الأمامية ويستدق على نحو مفاجئ عند جهة الذنب. ويبلغ طول السمكة ما بين ثلاثة عشر إلى خمسة عشر قدم، ومغطاة بطبقة جلدية ذات لون غامق من الأعلى وأبيض من الأسفل. أما السلاح الفتاك الذي اشتقت اسمها منه فهو عبارة عن عظم مسطح ناتئ يبلغ طوله ستة أقدام وعرضه أربع بوصات ومسلح من كل جهة بفقرات تشبه أسنان القرش.

يعد الغوص ضاراً بالصحة إلى حد كبير ومما لا شك فيه أنه يقصر عمر أولئك الذين يمارسونه بكثرة. ولكي يحتفظ الغواص بتنفسه فإنه يضع قطعة مطاطية فوق منخريه. ولا يدخل القارب في كل مرة يصعد فيها إلى سطح الماء، إذ أن الحبال مشدودة إلى جنبيه فتساعده على التشبث بها، حتى يحصل على النفس اللازم للقيام بمحاولة جديدة. وما أن يملأ الصيادون قاربهم، يتجهون إلى إحدى الجزر التي يكثر وجودها قرب الضفاف، فينصبون خيمهم مع المجاديف والصواري والأشرعة. ويقدرون سعر المحار غير المفتوح بدولارين لكل مائة محارة[2].

---

(1) حدث هذا بحضور المقيم البريطاني العقيد (ستانوس)، إذ ظل أحد الرجال من بين مائة من الحاضرين تحت الماء مدة دقيقة وخمسين ثانية لقاء جائزة مقدارها بضع دولارات. أما في (سيلان) فإن الفترة قلما تتجاوز خمسين ثانية.

(2) تقوم البحرية الهندية بتنفيذ العديد من المهام الموكلة إليها ومنها التنقل على ضفاف اللؤلؤ وهو تنقل مزعج وغير مريح. ويعترف أصحاب الخبرة الجيدة بأن حرارة الجو في الخليج العربي خلال فترة الصيف لا تضاهيها حرارة أي منطقة من مناطق العالم.

ولما كان السكان المحليون يألفون الماء منذ شبابهم، فقد باتوا خبراء في الغوص. أما المسافة التي في وسعهم قطعها سباحة والزمن الذي يستغرقونه في الغوص فيبدو أمراً لا يصدق وسط الأوروبيين. وثمة حالات مشهود لها عن أفراد قاموا بالسباحة مسافة سبعة أميال دون استراحة.

في سنة (1827) كنا نتجول في سفينة تدعى (تيرنيت) قرب شواطئ اللؤلؤ. ولما كان البحر هادئاً والسفينة تمخر عباب البحر باتجاه التيار، كان عدد من الضباط والجنود يطلون من فوق جانبها وينظرون إلى رباننا العربي الذي كان يسلي نفسه بالغوص بحثا عن المحار. وبعد محاولات عدة، أخفق في البحث، وقال: «أما الآن، وبعد أن أصبحت عاجزاً عن جمع المحار، فسوف أغوص لصيد السمك». وهنا سخر الجميع من الفكرة، إلا أنه غاص ثانية، ولدهشتنا جميعا وجدناه يخرج إلى سطح الماء بعد فترة وجيزة ممسكا بسمكة في كل يد. وفسّر لنا ذلك بقوله أنه بينما جلس في قاع البحر، تقدمت منه سمكة وبدأت تقضم بشرته برفق. وانتهز أول فرصة مؤاتية وامسك بالضحية بأن دفع إبهامه وسبابته في خياشيمها المنتفخة.

الثلاثاء، الثامن والعشرون من مارس / آذار: وصلت إليّ في هذا الصباح أخبار تقدم (سعد بن مطلق) إلى (بدية)، تلك المنطقة التي أتيت على وصفها سابقاً، وبذلك قضت على كل الآمال في إمكانية وصولي إلى (الدرعية) بمساعدته. وفي نفس الوقت علمت بأن الإمام قد أرسل الرسل الذين اتجهوا إلى (عبري) لأنهم لم يجدوا لنا أثراً في (البريمي) كما كان متوقعاً.

وبعد أن أصبح الآن ضرورياً وجوب أن أتخلى عن كل مقاصدي في التقدم أكثر داخل البلاد، فقد وطدت العزم على قضاء الأيام القليلة القادمة من هذا الموسم اللطيف على

– فالليالي قصيرة، ولهذا لا تستطيع الأرض أو البحر تبريدها في وقت قصير. وحتى عندما تكون الشمس في الأفق فإنها تبعث على الدفء الذي لا يطاق. ويذكر البحارة أن الشمس تشرق وتبدو قرصاً أحمر شديد الحرارة وبعد مرور بضع دقائق ترفع شدة أشعتها المحرار عشر درجات فهرنهايت. ومنذ هذا الوقت وحتى الساعة الحادية عشرة قبيل منتصف الظهر، عند هبوب نسيم البحر، تكاد الحرارة لا تطاق. وتحت مظلات مزدوجة، يضطجع البحارة معصوبي الرأس بقطع من قماش مبلل، فوق ظهر السفن، أو يستلقون فوق الحافة العليا من جنب المركب، يتطلعون إلى أول النسمات القادمة، ويلهثون من شدة الحر. وبلا أي جهد يبذلونه، ترى العرق يتصبب من كل مسامة. أما الماء فإنه يزيد من الظمأ بدلا من أن يرويه، أما الجلد فيصاب بحالة من التهيج لا ينفع فيه ارتداء أي ثياب، وأي حركة يرافقها ألم عظيم لأنها تسبب تشقق الجلد.

ساحل (مكران) الذي برغم أن أحد المسوحات البحرية التي كلفت نفقات باهظة قد عينت المواقع الجغرافية للمدن فيه، فإن هناك نقصاً في كل المعلومات الخاصة بالسكان. والملاحظات العامة التالية تشمل موضوعات عدة لم أتطرق إليها في الصفحات السابقة.

إنني لم أجد تثبيت حدود المقاطعة أمراً أسهل مما كان عليه الحال عند تثبيت حدود حضرموت واليمن. فتحت اسم (عُمان)، يفهم بعض الجغرافيين كل ذلك الخط الذي يحيط بأقاليم حضرموت والاحساء ونجد. أما بالنسبة لسكان البلاد أنفسهم، فإن مثل هذا التقسيم في الوقت الراهن غير معروف. ولدى حديثهم عن (عُمان)، فإنهم لا يعنون إلا المنطقة الواقعة بين أراضي (جعلان) و(الباطنة). وإذا كانت الأبحاث والاستفسارات التي أقوم بها بلا أي نتيجة مرضية، فإنني في تحديدي حدود المقاطعة عمدت إلى تبني الخطة التي بدت طبيعية جداً وان اعتبرها هي وحدها (عُمان) التي تختلف اختلافاً شديداً، من حيث خصائصها العامة، عن البلاد المحيطة بها والتي تقر بسيادة أمير (عُمان)، على الرغم من أنها قلما تستحق تلك التسمية بسبب بعض الصلات الواهية.

وعلى هذا الأساس، تعد عُمان شريطاً ضيقاً من الأرض يختلف من حيث العرض ولا يتجاوز المائة والخمسين ميل في أوسع المناطق. ويحد عُمان من جهة الشرق المحيط الهندي، أما من جهة الغرب فتحدها صحراء عظيمة وتمتد باتجاه مباشر من جزيرة (مصيرة) على خط العرض 20 درجة و48 دقيقة وخط الطول 58درجة و56 دقيقة مسافة أربعمائة ميل تقريباً وحتى (رأس مسندم) على خط العرض 26درجة و24 دقيقة وخط الطول 56درجة و39 دقيقة حيث تنتهي على شكل زاوية حادة.

ويقسم سكان البلاد هذا الجزء من الجزيرة العربية إلى أربعة أقسام: القسم الأول وهو (جعلان) ويشمل (بني بو علي) وذلك الجزء من البلاد الممتد إلى جنوب شرقي (بدية)؛ القسم الثاني وهو عُمان ويمتد من (بدية) وإلى الشمال الغربي في (مقنيات)؛ القسم الثالث وهو (الظاهرة) ويمتد من (مقنيات) وحتى (البريمي)؛ القسم الرابع وهو (الباطنة) ويمتد على شكل شريط ضيق بامتداد الساحل من (السيب) وحتى (خورفكان). ويمكن توضيح الملامح العامة للإقليم على الوجه التالي سلسلة من الجبال التي تشكل جزءاً من سلسلة أكبر

تحيط تقريباً بجزيرة العرب وتقطع باتجاه مواز للساحل مجمل أراضي الإقليم من مسقط وحتى (صور). أما التلال فتبدو عالية الأماكن القريبة من الساحل، إلا أنها إلى الشمال من ذلك الميناء تتلاشى تماماً.

وفي خط العرض 23 يتجه الجبل الأخضر، وهو عبارة عن سلسلة جبلية تزداد ارتفاعاً، على نحو مستعرض تقريباً من السلسلة السابقة وثمة سلسلة موازية منخفضة تشكل جذور كلا السلسلتين آنفتي الذكر تمتد إلى مسافة بعيدة عنهما. ومن الجبل الأخضر تستمر السلسلة حتى (رأس مسندم) حيث يتشكل منها فرع جديد أو ذراع جديدة يمتد حتى (رأس الخيمة) على سواحل الخليج العربي والمنطقة الواقعة ضمن هذا التشعب والبحر تنفصل إلى مجموعات من الجبال ذات الارتفاعات المتباينة والتي ينتظم فيها كل جبل على حدة. وعلى وجه العموم لا يتجاوز عرض السلسلة اثني عشر أو خمسة عشر ميلاً يبلغ معدل ارتفاع التلال الوسطى أو الأكثر علواً من غيرها ما بين ثلاثة آلاف إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة قدم. ومع هذا، فإن بعض القمم الشاهقة في الجبل الأخضر يصل ارتفاعها إلى ما يقرب من ستة آلاف قدم عن مستوى سطح البحر وباستثناء هذه السلسلة فإن الجبال مجدبة وعقيمة، ويدخل الفلسبار (سليكات الألمنيوم) وطبقات الميكة الزجاجية في تركيب السلسلة المنخفضة، بينما يدخل حجر الكلس في تركيب السلسلة العليا.

بالعودة إلى الخارطة وإلى سرد الأحداث، سيلاحظ بأنني قطعت من (بني بو علي) وحتى (نزوى) خطاً من الواحات، وان المسافة بينهما وبين الجبال الواقعة على ساحل البحر لا تمثل سوى سهول قاحلة تخلو من المدن والقرى. والى الشمال من (السيب)، فإن عرض (تهامة) أو (السهل البحري) يتراوح بين عشرين إلى أربعين ميل. ويرتفع هذا السهل ارتفاعاً تدريجياً عن مستوى سطح البحر وحتى قاعدة السلسلة الرئيسية. وعلى الرغم من عدم وجود أي أنهار تقطعه، إلا أنه يحتوي على بعض جداول الماء التي تستمر طيلة أيام السنة بصب مياهها في البحر[1]. والى الوراء من ذلك، أو في الجهة الغربية من الجبال في

(1) هناك استثناءات، كما قيل لي، فيما يخص الجدول القريب من (رأس قزبات) والجدول القريب من (السيب) الذي يمتد على مجراه الطريق إلى (نزوى).

المناطق الشمالية، فثمة بعض المدن والأراضي الخصبة. وفي بعض الأحيان يبتعد خط الصحراء قليلاً عنها. ومن فوق قمة الجبل الأخضر، واتتني الفرصة خلال أحد الأيام الصافية بالحصول على منظر شامل للصحراء إلى الجنوب الغربي من عُمان. كانت السهول الشاسعة من الرمال المتحركة، التي لا يستطيع حتى البدوي المعتاد على الصعاب اجتيازها إلا نادراً، تنتشر على مد البصر. ولا يوجد هناك أي تل ولا حتى أي تغير في لون السهول يبدل من مظهر المشهد الموحش الرتيب.



الفصل الثامن عشر

الوصف العام لعمان

على هذا الأساس يمكن وصف (عُمان) بأنها صحراء تكثر فيها الواحات وتحتوي وسط جبالها على العديد من الوديان الخصبة. ومع هذا، فإن هذه الوديان بعيدة عن بعضها ولا بد من الاعتراف بأن مساحة الأراضي المزروعة قليلة مقارنة بالأراضي المجدبة، لان الأراضي المحصورة بين الواحات غرباً والصحراء الكبرى عبارة عن سهل قاحل، رملي أو طيني، حسب انتشار الجسيمات فيه، فإما أن تكون من الألمنيوم أو من السيليكا. وتظهر هنا وهناك بعض الأعشاب الغضة التي تتغذى على قطرات الندى الليلية، ولا توفر إلا كلأً قليلاً لقطعانهم القليلة. أما الدروب الكبيرة التي تشغلها قيعان الجداول المائية فتحتوي على طبقة من كتل كلسية دائرية الشكل انتقلت من الجبال وظلت فوق سطوحها وباتت خالية من كل شكل من أشكال الخضراوات باستثناء بعض الشجيرات القصيرة التي لا تأكلها إلا الإبل. وتتصف التربة في (تهامة) بأنها صلبة ورديئة النوعية في بعض الأماكن، إلا أنها تصلح للزراعة إلى حد كبير في الأماكن الأخرى التي يرويها الماء. وفي منطقة الحزام الضيق الذي يحاذي ساحل البحر ويدعى (الباطنة) تزرع كميات كبيرة من الخضراوات والحبوب، في حين يمتد خط مستقيم من أشجار النخيل عرضه أربعة إلى ستة أميال من (السيب) وحتى (خورفكان) وهي مسافة يبلغ طولها حوالي مائتي ميل. ويشير المؤلفون العرب باستمرار إلى نخيل عُمان. كما تكثر الزراعة على امتداد ضفاف جداول الأنهار والأراضي القريبة من المدن. إلا أن المظهر الرئيسي في هذه البلاد هو الواحات التي تنتشر من (بني بو علي) وتمتد بخط مستقيم إلى جهة الغرب والشمال الغربي. وهي ذات شكل مستطيل عادة تمتد على الزوايا اليمنى من الجداول التي تزودها بالمياه. وتختلف مساحاتها، إذ يتراوح محيطها بين ميل أو أقل إلى سبعة أو ثمانية أميال. وقد شرحت عند حديثي عن واحات (بدية) الطريقة الفريدة والمعقدة التي ينقل السكان بواسطتها الماء إليها.

ولأجل الحصول على تربة أفضل وإرواء أسهل، قام العرب بإزالة التربة حتى عمق ستة أو سبعة أقدام وملئها بالماء كلياً أو جزئياً حسب رغبتهم. وبعض هذه الجداول من الأملاك العامة، في حين يملك البعض الآخر منها الأفراد أو الشركات. وفي أحد الأماكن التي يطلق عليها اسم (أم طايف)، بالقرب من (مسقط)، قام الإمام ببناء أحد الأفلاج بكلفة أربعين ألف دولار، غير أن الماء كان عسراً يصعب شربه مما اضطرهم إلى التخلي عنه. وثمة مقاطعة في عُمان الشمالية- حيث يندر وجود هذه الجداول- تستمد قيمتها من موقعها بالنسبة لهم. وبعض هذه الأنهار الثانوية يجف أو يتناقص ماؤه في فصل الجفاف فيتم إرواء الأرض من الجداول الرئيسة. وفي منطقة (نخل) القريبة من (بركاء) دُفع مبلغ مقداره أربعمائة دولار لتوفير الماء ساعة واحدة كل خمسة عشر يوماً، ولما لم تكن لدى الناس ساعات، فقد لجأوا إلى النجوم، حيث يحسبون ظهورها وغيابها بعد أن تعلموا ذلك جيداً.

إن الماء، كما هو معروف، يعطي خصوبة غير محدودة تقريباً للتربة في المناطق ذات المناخ المداري. والتربة في الواحات مشبعة دوماً بالرطوبة. أما الأوراق وغير ذلك من النباتات الخضر لا تحتاج إلا إلى القليل من السماد بعد تفسخها، لتعود إلى الحياة. وتتم الزراعة إلى حد كبير تحت ظلال الأشجار، كما أن المساحات المفتوحة تُترك لزراعة الحبوب وقصب السكر الذي يحتاج إلى أشعة الشمس كي ينضج. ويزرع القمح في الجزء الأخير من شهر أكتوبر / تشرين الأول في حين يتم الحصاد مع بداية مارس / آذار أو في منتصفه. وفي المناطق التي تتوفر فيها وسائل الري الدائم، تنتج الأرض محصولاً واحداً من القمح ومحصولين من الذرة. أما الشعير فيزرع بعد شهر واحد على زراعة القمح. ولا ينمو الرز في عُمان، ولهذا لا يجد السكان ما يكفيهم لسد حاجتهم منه فيستوردون كميات كبيرة من بلاد فارس و(مكران) وتنتج الواحات خمسة عشر إلى عشرين ضعف من القمح، وبنفس المقدار أيضاً تنتج الشعير. أما الذرة فيتراوح إنتاجها ما بين ثلاثين إلى أربعين ضعف. وقد ذكرت في مكان سابق المظهر الفريد الذي تظهر به هذه البساتين خلال مختلف مراحل الإنتاج.

ومن المكان المرتفع للجبل الأخضر، يختلف العديد من الوديان التي تتشكل بفعل السلاسل العليا، عن السهول الموجودة إلى أسفل من حيث التربة وأسلوب الزراعة.

والأرض هنا مصطّبة عادة، كما هو الحال في فلسطين والصين وتزرع فيها مختلف أنواع الأشجار وتنتج مختلف الأثمار التي لا تزرع في أماكن أخرى.

إن الزراعة لم تتقدم إلا قليلاً في (عُمان). وقد لاحظنا أن تربة الواحات الغنية لا تتطلب إلا القليل من المساعدة، ففي حين لا يخشى الرجال أي شيء من تقلبات الفصل، فإنه لا توجد ضرورة لإدارة عملية الزراعة إلا نادراً. أما في الأراضي الصالحة للزراعة الممتدة على الحقول الشاسعة، التي تكون تربتها، رغم اختلاف نوعيتها، قابلة للتطور، فإن المواطنين لا يبذلون أي جهد أو مال لإصلاح الخلل. غير أنني لا بد من أن أستثني المناطق الواقعة ضمن (مُنح) و(نزوى) التي تشتهر بحقولها الشاسعة المزروعة والغنية بكل أنواع الخضراوات بدلاً من أن تكون عبارة عن أراض مهملة أو محروثة إلى حد ما كما هو شأن بعض المدن الأخرى.

وتعتمد المحاصيل في الحقول على الأمطار إلى حد ما، على الرغم من أن أجزاء عديدة تروى بوساطة الآبار، التي يكون البعض منها عميقاً جداً. وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار المصاعب التي تتحملها الأنهار التي تمدُّ الواحات بالمياه، فإننا نستغرب عدم لجوء السكان إلى الوسائل الميكانيكية لاختصار العمل الذي يستتبع هذا العمل. وهنا، كما هو الحال في الهند، تستخدم قطعتان من الخشب تمثلان عادة جذع نخلة، لسبر غور مركز البئر. وثمة بكرة مثبتة في الجزء العلوي من هاتين القطعتين الخشبيتين يمر بها حبل ودلو مصنوع من جلد الثور على شكل حقيبة وفي الجزء الأسفل منه خرطوم ماء. وهناك حبل صغير يرتبط بالطرف الأقصى منه يمتد فوق البكرة وعلى مسافة قدمين عن حافة البئر. وتستخدم الثيران لسحب المياه، ولأجل إضافة قوة الزخم عند الحيوان لقوته، فإنه يُساق أسفل مُنحدر حُفر خصيصاً لهذا الغرض وبزاوية مقدارها خمس عشرة درجة. ويرتبط الحبلان بالنيِّر، وعندما يرتفع الماء إلى حد كاف ينتقل بسرعة إلى الخرطوم الذي يكون في وضع عمودي، فيصبح مشدوداً بقوة ويسحب فتحة الخرطوم إلى أسفل وعندئذ ينتقل الماء إلى خزان صغير.

وعندما تصبح الآبار ضحلة جداً، فإن السكان يستخدمون نفس الأسلوب الذي لجأ إليه المصريون على ضفتي نهر النيل. إذ يتم تثبيت عمود وسط دعامتين ويربط دلو بأحد

الطرفين، بينما تربط حجارة ثقيلة الوزن أو أي جسم آخر بالطرف الثاني. ويساعد الثقل الفلاحين الذين يهزون الحبل المربوط به. ومن الخزان ينتقل الماء في جداول اصطناعية فوق سطح الأرض المجاورة.

إن وسائل الزراعة قديمة وبدائية، والمحراث يشبه المحراث المستخدم في اليمن والذي رسمه (نيبور). وبعد الحراثة، تقطع الأرض إلى أقسام مربعة ذات حافات يسير الماء على امتدادها. وتفيد هذه السدود الصغيرة في الاحتفاظ بالرطوبة على السطح لأطول فترة ممكنة إضافة إلى الحيلولة دون انتشار الماء. وعندما يمتلئ أحد التجاويف يوقف الفلاح الماء وذلك بدفع التراب بقدمه فيفتح بذلك قناة اخرى[1].

وضمن هذه الأراضي المقسمة إلى أجزاء يبذرون البذار يدوياً في أخاديد ضيقة ومن ثم يغطونها فيغدو السطح كله مستوياً. وبهذه الطريقة يوفرون أعداداً كبيرة من البذور التي لا تفسد بسبب تعرضها إلى الجو أو تأكلها الطيور. وتحصد الذرة عادة بالمنجل الذي يشبه الهلال وفيه حزوز تشبه المنشار. ويقوم الشخص الذي يتولى الحصاد بتسليم ما يحصده إلى شخص آخر يعمل على تسويته وجمعه وربطه ومن ثم وضعه في خط مواز للخط الذي فرغ زميله من حصاده. وبعد ذلك تجمع هذه الكميات وتوضع صخرة كبيرة يجرها ثوران فوقها. وفي أجزاء أخرى، ثمة بقعة من الأرض يبلغ قطرها حوالي عشرين قدم ومسيجة بسياج. وهناك وتد مثبت في وسط هذه البقعة مشدود إليها أحد الثيران وعليه النير. ويظل هذا الثور يدور ويدور حتى يتم فصل الذرة. ثم يُستخدم سعف النخيل لعملية الذري في حين يتابع أحد الأشخاص العملية كلها مستخدماً المدمّة. وقد انتابني سرور كبير وأنا أشاهد في هذا المكان، كما هو الحال في فلسطين وأجزاء أخرى من الشرق، إن الثور غير مكمم بكمامة.

وتظهر الأشجار والأدغال مبعثرة على سطح الجزء الأعظم من الصحراء الممتدة بين الواحات. وهناك بعض الأماكن التي تخلو كلياً منها، لكني وجدت في الدروب التي

(1) يذكر أن أحد ملوك آشور كان يهدد باستخدام الصورة نفسها إذ يقول: (لقد جففت بقدمي أنهار الأماكن المحاصرة) وهذا الأسلوب في الجزيرة العربية يعرفه المزارعون البرتغاليون.

سلكتها قرب (بني بو علي) أشجاراً كثيفة ومنها أشجار الصمغ العربي. وأعظم هذه الأشجار يطلق عليها العرب اسم أشجار (الغاف) و(السمر). ويرى الناظر الصمغ وهو يسيل منها. ومع هذا فإن الصمغ العربي الحقيقي لا يتوفر إلا في النوع الثاني على الرغم من أن النوع الأول قد يعوض عن الثاني ولو أنه بنوعية أقل جودة. وتستخدم هذه الأشجار لصنع الفحم، وهناك وصفات طبية يقال أنها تستخرج من لحاء أشجار (الغاف). ويستخدم الخشب لصنع أدوات الزراعة ومقابض البنادق وغير ذلك من المواد التي تحتاج إلى صلابة وقوة. ولا يوجد في (عُمان) خشب يصلح للبناء، فجذوع أشجار النخيل تستخدم عادة في تشييد البيوت وهي قلما تصلح للبناء لأنها ليست صلبة وسرعان ما تتعفن(*).

أما أشجار الطرفاء فكثيرة جداً. وتتغذى الإبل على أغصانها وأوراقها اللينة حيث يجمعها البدو عن طريق ضرب الأشجار بالعصي فتسقط الأوراق فوق قطعة من القماش توضع لهذا الغرض تحت الشجرة، وعلى الجبل الأخضر لاحظت العديد من الأشجار المختلفة التي لا توجد في السهول. وفي بعض القنوات التي تجري فيها المياه، امتدت جذور أشجار التمر الهندي والسدر (النبق) على الرغم من قيعانها الصخرية، ولكن على وجه العموم، نجد أن سفوح الجبال وقممها جرداء، وتنمو أشجار التمر الهندي بكثافة فوق بعض السهول وهي أشجار ضخمة وجميلة إلا أن سكان (عُمان)، شأنهم شأن مواطني الهند، يؤمنون بأن النوم تحتها، وخاصة في الليل، ينطوي على خطر كبير.

ولم أشاهد في عُمان أشجار اللبان أو دم الأخوين على الرغم من وفرتها على التلال في إقليم حضرموت القريبة. ويقول العرب إنها لا توجد غربي مقاطعة (المهرة)(**). وعلى حدود الجداول تكثر أشجار الألوة. وهناك أشجار يسميها العرب (succul) تشبه من حيث توزيع الأوراق والارتفاع أشجار الألوة، وهي موجودة في سوقطرة وعلى ساحل الجزيرة العربية، إلا أنها ذات لون لازوردي بدلاً من أن تكون بنية فاتحة. وهذه الأشجار ريانة وغير

(*) استخدم العمانيون الخشب الصلب لأنواع من أشجا السنط مثل القرط والسدر وهي متوفرة محلياً.

(**) أرض اللبان قديماً شملت منطقة واسعة بما فيها قسم جبال كورسيان بحضرموت أما أشجار دم الأخوين فقد اشتهرت بها جزيرة سوقطرة قديماً ولازالت حتى اليوم.

مسننة. وقد لاحظت أنواعاً عديدة تشبهها إلى حد كبير في الهند ومصر، إلا أنني لست متأكداً إن كان علماء النبات قد صنفوها ضمن أي صنف. ويجمع السكان المحليون كمية قليلة من العصير، إلا أنه غير مستساغ لأنه شديد المرارة، ولهذا لا يتم تصدير أي شيء منه. وثمة أشجار السّنا تنمو بأعداد كبيرة في (عُمان)، إلا أن السكان يستخدمونها على نحو مقتصد في أدويتهم. وهناك نباتات الحنظل التي تنتشر قرب (بدية) وكذلك على امتداد الساحل. ويوجد البطيخ بكميات كبيرة أيضاً وقد انتشر فوق سطح الأرض. وهناك العديد من الشجيرات المنتشرة وسط الجبال التي تفرز سائلاً كالحليب غير أنه حامضي ويمكن أن يتسبب في القروح الجلدية، لكن الماعز يتغذى عليه دون ظهور أي أعراض عليه. كما تشاهد أيضاً الأعشاب العطرية، كالخزامى. ولكن قلما ينتبه إليها لأنها لا تستخدم من الإنسان ولا تثير اهتمام القارئ العام في حين تحظى زهرة الياسمين العربية بالكثير من الاهتمام ولا سيما من السيدات لرائحتها الزكية. وفي المنطقة الشمالية من (عُمان) يوجد نوعان من نبات (الحمّاض) الذي يحبه البدو كثيراً ويستخدم مليناً للأمعاء. وتنمو على ضفاف الجداول نباتات تعرف باسم (قرة العين) يستخدم العرب بذورها للأغراض الطبية.

وفي المنطقة الداخلية من الإقليم، تكون الواحات كلها والأراضي المزروعة القريبة من مدنها وفيرة في إنتاجها، إلا أن العديد من الفواكه لا توجد في البساتين القريبة من ساحل البحر. ولعلي أُعْذَرُ لهذا الوصف الجاف لأنه سوف ينقل، أفضل من أي وصف مطول، فكرة عن المنتجات الطبيعية لبلاد عُدَّت حتى اليوم صحراء. كما لا يجب أن ينسى بأن ما ذكر من الأصناف أعلاه يزرع في بقعة أرض لا يتجاوز قطرها ثلاثمائة أو أربعمائة ياردة.

الفصل التاسع عشر

النبات والحيوان

توجد أنواع عديدة من ثمار البرتقال والليمون الحامض[1] والليمون، ويكفي أن نذكر أن الصنف الأول يحتوي على ثمار البرتقال الحلو والمندرين أو اليوسفي المعروف بالاسم الأول في الصين والهند، وهناك نوع ثالث معروف بقشره الرقيق ذي اللون الأصفر البراق ونكهته الطيبة. أما الليمون الحامض فيشمل ثلاثة أو أربعة أصناف وهناك نوع معروف في الهند باسم الليمون الحلو. أما ثمرة الليمون فهي صغيرة الحجم ونادرة ويقال: إن شجرة الليمون جاءت من بلاد فارس؛ لكن من خلال اسمها العربي وهو الليمون، يمكن القول: إنها جاءت من بلاد أوروبا بوساطة العرب. ويستخلص الشراب من عصير الليمون ويعطى بكميات كبيرة للمصابين بالحمى. كما توجد أنواع كثيرة من التمر الهندي والمانجو يختلف كل نوع عن الآخر بالحجم والنكهة والشكل. لكن أفضل أنواع هذه الفاكهة لا ترقى إلى تلك الأنواع الموجودة في الهند. وفي فصل الربيع عندما تتفتح أزهار هذه الأشجار، تبدو خضرتها مشربة باللون الذهبي مما يجعلها، إضافة إلى أغصانها الواسعة وخضرتها الظليلة، من أجمل ما تنتجه الواحات من ثمار وتوجد فواكه السفرجل على الجبل الأخضر وفي السهول. وتصدر كميات كبيرة من هذه الفاكهة إلى الهند. كما يوجد السفرجل الهندي، كما أن الكروم (الأعناب) تكثر في الجبل الأخضر باللون الأبيض أو الأرجواني الغامق. ويستخدم العنب الأبيض لصنع النبيذ في حين يجفف النوع الثاني ليصبح زبيباً.

وهناك أنواع كثيرة من الموز والبطيخ الأحمر واليقطين واللوز والجوز والتين، وأفضل أنواع التين لذيذ وشهي لكنه أصغر حجماً وأقل نكهة من مثيله التين التركي. ويقوم السكان المحليون بتجفيفه ونظمه في خيط. وهناك النبق والتمور. وتعد التمور، خاصة في السفر، الغذاء الوحيد عند السكان. وتنتج (عُمان) كميات هائلة منه وقد شاهدت بنفسي البساتين

---

(1) يتم تجفيف كميات كبيرة من الليمون الحامض تحت أشعة الشمس ويصدر إلى الخليج العربي.

الواسعة على ساحل (الباطنة)، لكن أفضل أنواع التمور في هذه المناطق تعد أقل جودة من تمور البصرة والبحرين وهي التمور التي تعد أفضل تمور جزيرة العرب. والسكان يحبون حباً شديداً بذور النخل الذكري (حبوب الطلع) وهي ذات رائحة كريهة، لكن طعمها يمكن التعود عليه. وتزرع الحبوب كالحنطة والشعير. أما الرز فيزرع بكميات قليلة. أما الخضروات فتشمل البصل والعدس والفجل والجزر والباذنجان والبقدونس وعدة أنواع من الفاصوليا والبازلاء والخيار والبطاطا الحلوة والخس والنباتات الخضر التي تشبه عند سلقها السبانخ. أما البطاطا الاعتيادية فهي لا تزرع هنا في حين يزرع السمسم بكميات وفيرة جداً ويستخلص منه زيت يقدره العرب كل التقدير. وفي بعض الأحيان يقومون بتحميص السمسم ويستخدم مع الخبز. ويمكننا أن نضيف إلى هذا كله النيلة وشجرة زيت الخروع وحقول قصب السكر الشاسعة. ويزرع القنب أيضاً ولكنه لا يدخل في الصناعة في حين أن بذوره تشكل إحدى مشروباتهم المسكرة الطبيعية.

وتشبه الحيوانات البرية في (عُمان) تلك الحيوانات الشائعة في الأقسام الأخرى من الجزيرة العربية. ففي السهول، تكثر بنات آوى والثعالب والأرانب الوحشية والظباء والجرابيع، بينما لا توجد الضباع إلا في الجبال حيث تحتمي داخل الكهوف والمغاور. وفي الجبل الأخضر توجد الخنازير والماعز وحيوانات صغيرة تشبه الفهد. أما الإبل فينظر إليها في جميع أرجاء جزيرة العرب على أنها هبة لا تقدر بثمن، وتشتهر الابل في (عُمان) بأنها قوية وسريعة. وتعد (نجد) موطناً لتربية الإبل مثلما هي موطن تربية الجياد. إلا أن الإبل العُمانية يتغنى بها السكان في أغانيهم بوصفها الأسرع، فسيقانها أكثر رشاقة واستقامة وعيونها أكثر جحوظا ولمعانا ويوحي مظهرها العام بنسب أعرق من نسب الأنواع العادية من الإبل. وتُروى الحكايات بأن الإمام كان يملك جملين فيما مضى، يبدو أنهما كانا مدهشين. وقد سمعت بعض الناس الذين أثق بشهادتهم يؤكدون بأن أحد هذين الجملين نقل حملاً من (السيب) وحتى (صحار) في رحلة استغرقت ستاً وثلاثين ساعة في حين أنها تستغرق عادة ستة أيام. وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار المرات الكثيرة التي ذُكرت فيها القصة منذ زمن قديم، فإنه يبدو غريبا أننا لا نملك معلومات صحيحة أو حتى مفصلة

فيما يخص عادات الإبل وطباعها وملامحها العامة. ولم أطلع على كتاب عن الحيوانات استطاع أن يقدم، ولو بشكل مقبول، معلومات عن الإبل.

ويمكن تفسير صمت الرحالة إزاء الحيوان الذي يدين له الجميع بالشيء الكثير بالافتراض بأن كل فرد اعتقد بأن الموضوع على درجة بالغة من الأهمية بحيث لا يمكن أن يفوت السابقين أو علماء الطبيعة بصورة عامة. إن الملاحظات التالية علاوة على ملاحظات أخرى متفرقة في هذه الرحلات، تختلف من أوجه كثيرة عن الآراء السائدة. إلا أن الظروف المؤاتية لدراسة الموضوع ساعدتني على أن اطرح هذه الملاحظات بثقة. ومن أوجه أخرى، فإن المعلومات الحديثة تفيد ربما في سد النقص الحاصل في التاريخ الطبيعي لأكثر الحيوانات، (التي وهبها الله للإنسان)، فائدة .

إن جميع عادات الجمل وغرائزه مكيفة لحالته الفريدة والمنطقة التي يعيش فيها. لنتأمل في هذا المخلوق منذ لحظة ولادته. فإذا حدثت الولادة في أثناء رحلة، فإن البدوي[1] يتلقى المولود بذراعيه ويضعه لبضع ساعات فوق ظهر الأم. ولكن عند أول محطة وقوف، يوضع الغريب الصغير على الأرض لاستقبال قبلات والديه ومن ثم يواصل اللحاق بأمه دون مساعدة. ولما كان الجمل يعتاد منذ صغره على السفر المضني مسافات طويلة، فإنه لا يحتاج إلا إلى القليل من التدريب لنقل الأحمال التي تكون ثقيلة قياساً إلى عمره الصغير. كما أن هذه الجمال تبرك طواعية عندما يوشك الجمالون بوضع الأحمال عليها استعداداً للرحلة، وهو أمر ضروري بسبب ارتفاعها. وعندما تريد الإبل الاستراحة فإنها تبرك وهذا هو وضعها الطبيعي، لكن عندما تكون الأحمال ثقيلة الوزن جداً وهي فوق أرض صخرية أو صلبة فإن بروكها يسبب لها الألم. وعندما تبرك تستخدم أولاً الأيدي الأمامية التي تمدها إلى أمام لتفسح المجال للسيقان الخلفية وهي تنوء بحملها الثقيل. وعلى الرغم من أن الأجزاء الصلبة في مفاصلها ذات طبيعة تشبه القرون في صلابتها عند الإبل الكبيرة في السن، فإنها لا تكفي للدفاع عنها ويستحيل على الأوروبي أن يشاهد الإبل وهي تبرك وتنهض دون أن يرثي لها ونتيجة لذلك، فإن البدو لا يسمحون للإبل أن تبرك كي يعتلوا

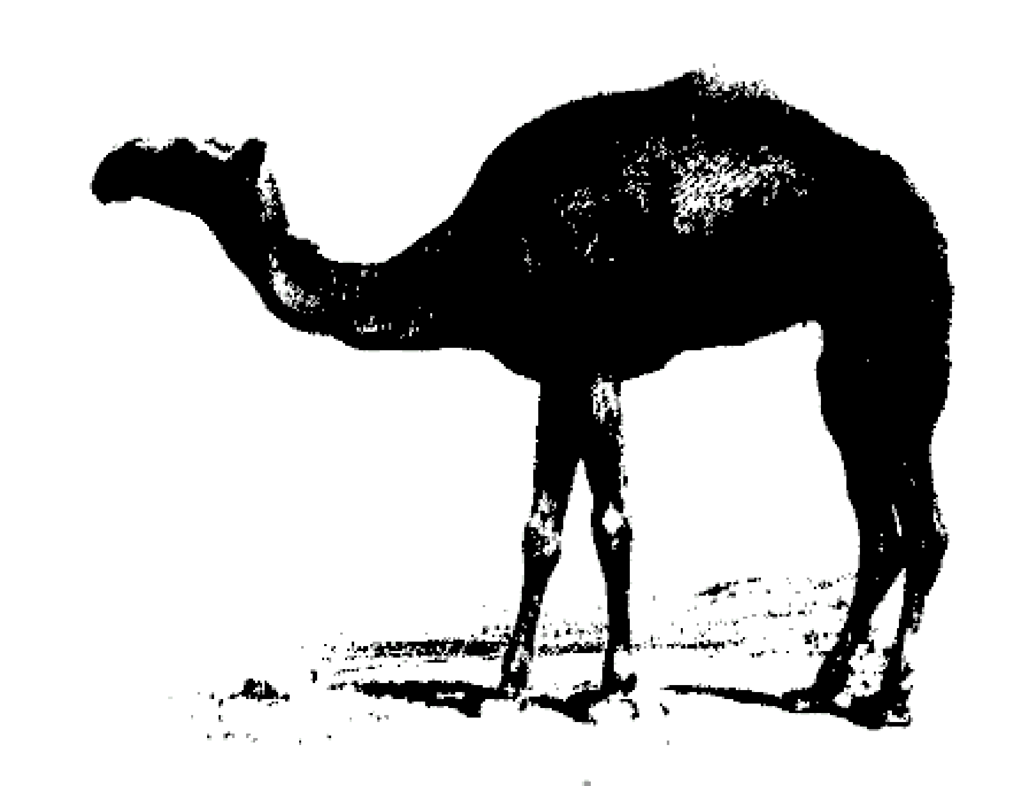
(1) ويرحب البدوي به قائلا بدهشة: «لقد وُلد لنا طفل آخر».

ظهورها البتة، بل يدفعون الحيوان إلى خفض رقبته كي يضع قدمه عليها وما أن ترفع الإبل رأسها حتى يتمكن الراكب من الجلوس على ظهرها وتشعر الإبل بالسرور عندما ينجح أحد الغرباء في الجلوس فوق ظهرها.

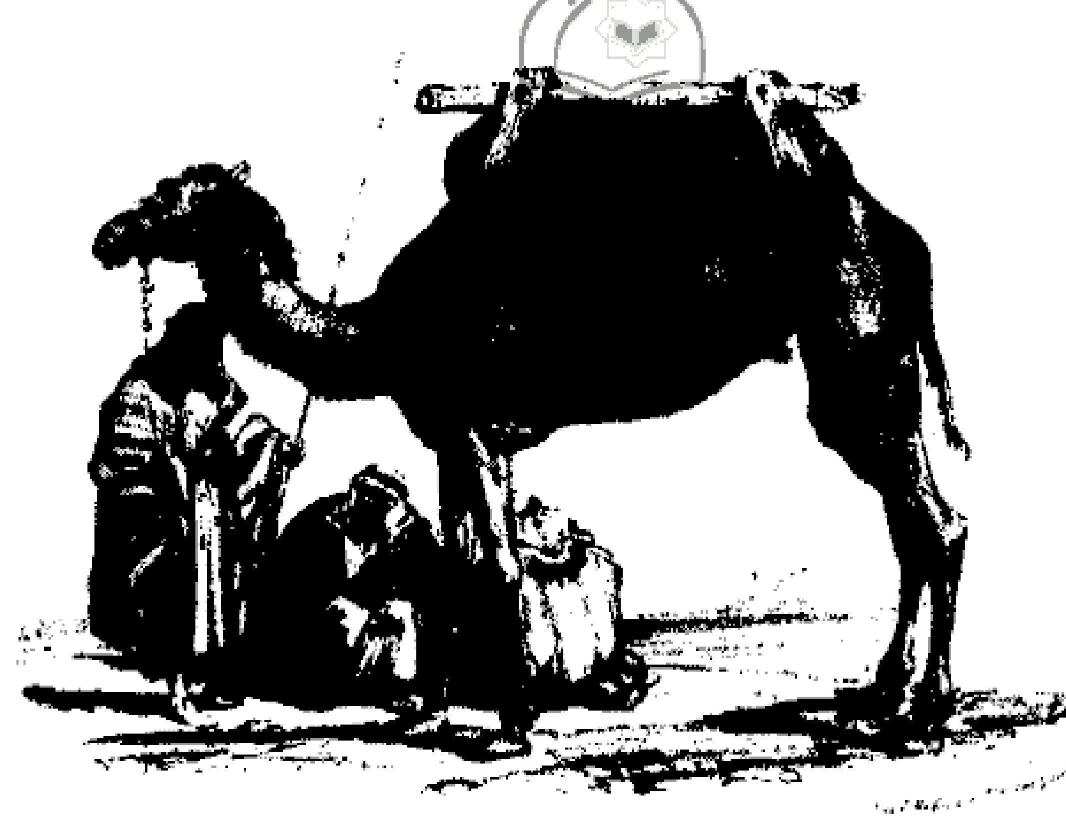
وللجمل العربي سنام واحد دائري الشكل وكثير اللحم. وما أن يبدأ بالإحساس بغزو الجوع حتى تحدث له متغيرات مدهشة. فهو من خلال امتصاص هذا الجزء الناتئ في الجسم يتمكن من توفير غذاء آخر. ولا يظهر الجسد أي نقص في هذا الجزء الناتئ الضخم إلى أن يبقى جزء صغير آخر من السنام باستثناء العظام والعضلات. هكذا كان تفسير البدو عموماً الذين أعتقد أن أسلوبهم في الملاحظة يجعل آرائهم موضع احترام. وتبدو الجمال وهي صغيرة السن حيوانات جميلة، ولكن عندما تتقدم بها السن ويصيبها التعب لكثرة الأعمال، تبدأ بفقد وبرها وتصبح حيوانات يصعب النظر إليها. وبصورة عامة، نلاحظ أن الإبل مكسوة بطبقة من الوبر البني الفاتح. إلا أن هذه الطبقة عند الجمل العربي أو جمل الصحراء أقل وبراً من مثيلتها عند الإبل الآسيوي الذي نجده مكيفاً على نحو أفضل لمناخ تلك المناطق. وقد شاهدت في شبه الجزيرة العربية جملاً أسود تماماً. لكن الجمال الموجودة على ساحل (النوبة) بيضاء اللون. وتشبه عين الجمل عين الغزال، فهي كبيرة وسوداء وناعمة وجاحظة وتحتفظ ببريقها مهما كان وهج الشمس أو الرمال شديداً. أما أرجله فكبيرة الحجم وعرضية الشكل يغطي الجزء الأسفل منها جلد صلب ومرن مكيف تكييفاً جيداً للسير على التربة الجافة، إلا أن هذه الأرجل سرعان ما تخفق عند السير فوق الأماكن الزلقة أو المبتلة. وليس هناك حيوان يحب التربة الرملية المتناثرة كالجمل. ويستطيع ارتقاء المسالك المنحدرة والوعرة بنفس السهولة التي ترتقي فيها البغال هذه المسالك شريطة أن تكون خشنة.

وتكون أسعار الإبل في عُمان باهظة. وأعرف أن مائة وأربعين دولار قد دفعت ثمناً لأحد الجمال. وأفضل الإبل تلك التي تتصف بصدر عميق وجذع ضخم. أما معدل سعر الجمل الواحد فيتراوح بين ثلاثين إلى خمسين دولار.

أما طول رقبة الجمل فيساعده، دون أن يتوقف، على قضم الأعشاب الشائكة الواسعة الانتشار في الصحراء. وعلى الرغم من أن بعض الأشواك يمكنها أن تثقب حذاءً سميكاً،



A BISHARIAN CAMEL, from the COAST of NUBIA.



CAMEL of ARABIA PETREA.

فإن طبيعة فم الجمل تساعده في التغذي عليها دون صعوبات. وعندما يسير البدوي، يكرس جزءاً كبيراً من وقته لجمع النباتات والأعشاب التي تعترض طريقه وإطعام إبله بها. وتشكل هذه الأعشاب مع حفنة من التمر والفاصوليا الطعام الاعتيادي، أما عندما يكونون في المخيم، فإن غذاؤه يتكون من الأغصان الخضر والأوراق الرقيقة في شجرة الطرفاء والتي توضع بشكل كومة أمام الحيوان بعد أن تفرس تحتها حصران دائرية. فيبرك الحيوان ويبدأ بتناول طعامه. أما في جنوب الجزيرة العربية فيتغذى الجمل على الملح، بل وحتى السمك الطازج.

وفي أثناء القيام برحلة ما، يكون التوقف عادة بعد مرور أربع ساعات، حتى تُنزَّل الأحمال ويسمح للإبل بتناول الكلأ في الأراضي المحيطة. وإذا رغب العرب في الحيلولة دون ذهاب الإبل بعيداً، فإنهم يربطون الساقين الأماميتين معاً أو يربطون خصلة الشعر بالمفصل الأعلى بوساطة حبل أما الرأس فلا يثبت بشيء إلا عند السفر حيث يربط العرب رأس الجمل بذيل الجمل الذي يسبقه ويسير الجميع بخط مستقيم. وعند حلول المساء يبدأ تناول وجبة العشاء حيث تبرك الجمال من حول الأمتعة. ولا تذهب للكلأ بعد الظلام، كما أنها قلما تحاول النهوض من مكانها، بل تستمر في اجترار الطعام طيلة الليل. ويرمي ذكر الجمل وأنثاه بولهما إلى الوراء، وبما أن الأرض تغدو مبللة بعد ذلك، فإنهما يتحركان رويداً رويداً إلى أمام دون أن يغيرا من وضعهما.

وتختلف الآراء حول الفترة الزمنية التي يستطيع فيها الجمل تحمل الظمأ. فيقول (بوفون(*) Buffon) إن الجمل يستطيع البقاء بلا ماء خمسة أيام في الحالات الاستثنائية. أما (تافرنيه(**) Tavernier) فيقول إنها تسعة أيام. لكن يبدو أن الجمال، شأنها شأن الحيوانات المجترة، لا تحتاج إلى الماء عندما تتغذى على نباتات عصارية ريانة. وقد أكد لي أحد الأصدقاء ممن توفرت لديهم فرصة مناسبة لإطلاق الحكم بأنه سافر ذات يوم من بغداد إلى دمشق، وهي رحلة تستغرق خمسة وعشرين يوماً، لم تشرب فيها الإبل أي ماء

(*) عالم طبيعة فرنسي (1707–1788) له كتاب بعنوان «التاريخ الطبيعي»

(**) رحالة فرنسي (1605–1689) كتب عن رحلاته إلى الهند وإيران وتركيا.

وكان يكفي وجود الرطوبة في النباتات المتوفرة في كل مرحلة.

وعلى الرغم من الصبر وغير ذلك من الصفات المدهشة التي يتمتع بها الجمل، إلا أنه قليل الذكاء ولا يبدو قادراً على إقامة صلة قوية بسيّده إلا إذا كانا قد ألِفا السفر معاً منذ أمد بعيد. وفي الرحلات الصحراوية الطويلة، يبدو الجمل مدركاً كل الإدراك بأن سلامته تكمن في البقاء قريبا من القافلة، إذ لو تأخر إلى الخلف، فإنه لن يتوقف عن بذل المحاولات الشاقة للحاق بها. ويصف أحد الرحالة واسمه (علي بك)(*) الجمل بأنه حيوان هادئ ومسالم. ويقول: «إن الجمال تأكل طعامها على نحو منتظم فلا تأكل إلا قليلاً كل مرة، وإذا ما ترك أحد الجمال رفاقه، فإن رفيقه يظهر أمامه ليؤنبه برفق مما يجعله يشعر بالخطأ ويعود إلى بقية الجمال». لكنني أقول العكس وهو أن الجمال هي أكثر الحيوانات المشاكسة على وجه الأرض. فبعد انقضاء رحلة نهار شاقة، وإنزال الحمل من على ظهر الجمال، فإن الحادي يضطر باستمرار إلى الحيلولة دون الشجار فيما بينها. والتأنيب الرقيق ليس سوى عضات قاسية وتمزيق آذان بعضهم بعضاً.

يقدر (فولني)(**) خطوات جمال سوريا بثلاثة آلاف وستمائة ياردة في الساعة. أما القبطان (بيرنز)، الذي كرس الكثير من الاهتمام لهذا الموضوع، فقد وجد الشيء نفسه تقريبا في (تركستان). أما في (عُمان) فقد تأكد لي أن المعدل العام للقوافل المسافرة أكبر بكثير، واتبعت في ذلك الطريقة التالية: بوساطة ساعة جيدة لاحظت بدقة مرات عديدة بأن الوقت الذي تشغله في قطع مسافة بين منطقتين أحدهما في الشمال والأخرى في الجنوب، بعد تثبيت خطوط العرض فإن النتيجة تتراوح بين ميلين جغرافيين ونصف إلى ميلين وثلاثة أرباع في الساعة. وهذا هو نفس ما توصل إليه (بركهاردت). إلا أن خطوة الجمل العُماني الاعتيادية عندما يركب البدوي على ظهره في رحلة صحراوية، تكون خطوة سريعة وقوية وتصل إلى ستة أو ثمانية أميال في الساعة وتستمر الجمال في السير على هذا النحو ما بين

(*) علي بك العباسي رحالة أسباني اسمه دومنغو باديا إيلبليخ أسلم وجاء إلى مكة حاجاً سنة 1806 وسمي نفسه الحاج علي بك العباسي ونشر رحلاته في باريس عام 1814 وتوفي أثناء رحلة ثانية له إلى مكة في موضع يبعد نحو 120 ميلاً عن دمشق وذلك عام 1818.

(**) Volney رحالة فرنسي (1757—1820) له كتاب «رحلة إلى سورية ومصر».

عشرين إلى أربع وعشرين ساعة متعاقبة. لكن هذه السرعة تزداد حسب مقتضيات الضرورة لتصل إلى ما بين ثلاثة عشر إلى خمسة عشر ميلاً في الساعة. وتعد أنثى الجمل أسرع من الذكر، لكن البدو يفضلون، على الرغم من ذلك الذكر بسبب معنوياته العالية. أما حمل الجمل فيختلف اختلافاً بيناً. ففي مصر، وعندما يكون الجمل مزوداً بغذاء جيد، فإنه يستطيع أن ينقل حمولة يصل وزنها ألف رطل. إلا أن الحمولة الاعتيادية في رحلة القافلة تتراوح بين مائتين وخمسين إلى خمسمائة رطل. والمعروف أن الجمل يسير سيراً أخرق، وهو في سيره وخببه السريع وعدوه عنيف وغير مريح.

ويقوم البدو بتزيين رقاب هذه الحيوانات بشريط من قماش أو جلد معلقة به قطع صغيرة من المحار على شكل هلال. ويضيف الشيوخ إلى هذه القطع بعض الزينة المصنوعة من الفضة، وبهذا فإنها تظل حتى يومنا هذا جائزة ثمينة لمن يريد سرقتها. وثمة إيضاح في الكتاب المقدس (سفر القضاة، 3:20، 26) حيث يرد ذكر زينة الجمال في معرض الحديث عن المجوهرات وغيرها من المواد الثمينة. وتثبت قطع المحار بخيط شبه دائري ومن هنا جاءت العبارة «زينة تشبه القمر».

ولا يتعرض الجمل إلا لبعض الأمراض القليلة. ففي المناطق الرطبة تتصدع أقدامه وتنتشر عليها التقيحات وإذا أصابها العفن فتكون الإصابة قاتلة. وقد قضى المئات من الجمال عندما بقي الحجاج القادمون من الشام في خيامهم قرب حلب وغيرها من المدن الكبيرة. وأفضل علاج لذلك هو الزيت. ويقال أن تورم الغدد في الرقبة والذي يؤدي إلى موت الجمل في غضون ثلاثة أو أربعة أيام– وإصابة القولون من الأمراض التي تنتشر في الربيع والخريف من كل عام. ويفيد الكي في علاج كل هذه الأمراض.

وعندما يرفض أحد الجمال النهوض وهو في رحلة، فإن العرب عموماً يتركونه ليواجه مصيره. وقلما ينهض الجمل ثانية على قدميه، لكن هناك حالات نهضت بها الإبل وواصلت الرحلة لعدة أيام. وقد مررت بمثل هذه الجمال التي تركت وشأنها ولاحظت نظراتها الحزينة وهي صامتة تراقب القافلة وهي تتوارى عن الأنظار. عندما يُلام العربي بسبب لا إنسانيته، لأنه لا يضع حداً لمعاناة الحيوان، فإنه يرد بأن القانون يُحرم قتل الحيوان

إلا إذا كان ذلك لأجل الطعام. وحتى في مثل هذه الحال، فإن الغفران يُستجدى للضرورة التي تُملي القيام بمثل هذا الفعل. وعندما يقترب الموت من الحيوان المسكين، فإن النسور وغيرها من الطيور الكاسرة التي تتجسس أو تشم رائحة فريستها من على بعد مسافة شاسعة، تتجمع أسراباً أسراباً وتنقض على الجسد وتبدأ بنهشه حتى قبل أن يلفظ الحيوان أنفاسه الأخيرة. وهكذا يشاهد الرحالة باستمرار بقايا خادم الإنسان الوفي التي تكون في بعض الأحيان عبارة عن هيكل عظمي كامل مغطى بالجلد الذابل المتعفن، أو قد تكون العظام وحدها هي الباقية دون قطعة لحم وقد باتت بيضاء اللون ساطعة بفعل أشعة شمس الصحراء المحرقة.

أما فيما يخص الجياد فعددها قليل جداً باستثناء تلك التي يملكها الإمام نفسه، وفي بعض أجزاء (عُمان) لا يعرف الناس شكل الجواد. وذات يوم، كنت أعتلي صهوة جوادي وأنطلق في مقدمة القافلة عندما تصورت جماعة قادمة من إحدى المدن بأنني أحد الوهابيين. وكنت قريباً من مرمى هذه الجماعة لولا سرعة هذا الحيوان النبيل، الذي أسميته سيداً تيمناً باسم السيد الذي وهبني إياه، والذي أدين له بحياتي. ولدى عودتي من (عبري) إلى (السويق)، وخلافاً لرغبة البدو الذين تلقوا أنباء تفيد بأن الوهابيين يكمنون في الجوار، غادرت القرية التي توقفنا فيها دون مرافقة أحد سوى بندقيتي بحثاً عن طريدة. وما أن ابتعدت مسافة ثلاثة أميال عن السور حتى وجدت نفسي عندما انعطفت من حول إحدى الصخور بأنني على بعد مسافة قصيرة جداً من مجموعة من الفرسان كانوا يستلقون على الأرض ويتنعمون بالشمس بكسل. كانت الاستدارة والهرب عملاً مكشوفاً، لكن على الرغم من ذلك، ما كدت أستدير حتى كان جميع الفرسان فوق صهوات جيادهم يلحقون بي.

أزّت بعض الرصاصات قرب رأسي واستطاع الجواد أن يميزها على الفور وشرع يثب إلى الأمام كالظبي. كان معتاداً على مثل هذه الأمور. وكانت رغبة الفرسان في القبض عليه دون أن يصيبه أذى هي التي منعتهم من إصابته مباشرة. وعندما اقتربنا من البلدة، نظرت إلى الوراء فشاهدت شيخاً يعلو صهوة جواد أفضل من بقية رجاله في المقدمة وكان رداءه وشعره الطويل يتطايرون من ورائه في حين أمسك برمح طويل عالياً غير متأكد إن كانت المسافة كافية لتسديده صوبي. غير أنه ولحسن حظي، قَدَّر أنه ليس على مقربة تكفي

لإصابتي لأنه جذب لجام جواده وانضم من جديد لبقية الأشخاص بينما وصلت بسلام إلى السور. ربما كان هؤلاء هم نفس الرجال الذين قتلوا الرسولين اللذين أرسلهما إلى أمام (مسقط)، وقد أشار إلى ذلك (سعيد بن كلفان) في رسالته المنشورة في الملحق.

قبل يوم واحد من تسليم الجواد لي، كان قد قُدِّم هدية من أحد شيوخ نجد إلى الإمام. ولما كان هذا الجواد قد نشأ وسط جو عائلي واعتاد على الوجود في خيمة إحدى الأسر في تلك البلاد، فقد اكتسب درجة عالية من الطاعة وسهولة الانقياد والسرعة التي تميز أصالته العربية. ولتجنب حرارة الشمس الشديدة والحفاظ على سلامة الإبل، كان البدو يعمدون إلى التوقف غالباً خلال رحلتنا مدة ساعة في منتصف النهار. وفي هذه المرات، كان جوادي السيد يبقى ساكناً بلا حراك بينما ارتاح أنا فوق الرمال يحجبني جسده عن أشعة الشمس. وكان دوما يبحث عن وجبة غذائي المؤلف من التمور ليشاركني فيها. وكلما توقفنا، ورفعنا عنه السرج واللجام، نتركه حراً طليقاً يتجول وسط مضاربنا. وعند غروب الشمس كان يأتي لتناول الذرة عند سماع صوتي وأنا أناديه. وفي أثناء الليل، ودون أن يكون مشدوداً إلى حبل، كان يتخذ مكانه على بعد بضع ياردات من سيده. وفي أثناء رحلاتي على امتداد ساحل عُمان، كان غالباً ما يرافقني، وحتى في رحلتي على ظهر أحد المراكب من مسقط إلى الهند.

ولما أجبرتني أحوالي الصحية على العودة إلى إنكلترا براً، لم أتمكن من اصطحاب جوادي معي. وعند الافتراق عن هذا المخلوق المخلص المتعلق بي الذي رافقني في مغامراتي وأخطاري، فإنني لا أشعر بالخجل أن اعترفت بأن شعوراً عاطفياً اجتاحني يشبه ذلك الشعور الذي نشعر به عند مفارقة صديق مجرّب ذي قيمة.

إن العديد من جياد الإمام هي من أحسن الجياد النجدية ويقدر ثمن إحداها ما بين ألف وخمسمائة إلى ألفي دولار. وكان لديه جواد أعتقد أنه من أجمل ما رأيت في حياتي من خيول يوازي نفس الثمن. وكان الإمام يحتفظ ببعض خيول الاستيلاد في مسقط، إلا أن العدد الأكبر منها موجود في (بركاء) و(السويق) حيث يزداد الاهتمام في هاتين البلدتين بإنجاب هذه الحيوانات النبيلة وتربيتها. أما الجمال والحمير فإنها تستخدم أكثر للسفر في

عُمان. وعلى الرغم من أن شيخاً من الشيوخ قد يعتقد في بعض الأحيان أن ركوب الحمير غير مناسب، فإن بقية فئات الشعب ليست بهذه الدرجة من الحساسية. والحمير كبيرة الحجم، قوية الأبدان وتتحمل مصاعب شتى. ويهتم العرب اهتماماً كبيراً بها، ويبلغ ثمن أفضل أنواع الحمير ما بين أربعين إلى خمسين دولار. والحمير التي تعبر الجبل الأخضر تتصف بثبات الخطوات والجَلَدْ وتضاهي البغال التي تعبر أكثر المضايق صعوبة ذات الصخور الكلسية الزلقة دون أن تزل لها قدم واحدة. ويصدر عدد كبير من الحمير بحراً من عُمان إلى موانئ بلاد فارس الشرقية وكذلك إلى جزيرة فرنسا حيث تقدر بثمن عال[1].

أما الجاموس فهو غير معروف، في حين لا توجد أعداد كبيرة من الثيران، وتمتاز بوجود الحدبة على ظهرها وهذه علامة فارقة على الثيران الأفريقية. وفائدة الثيران في الزراعة وغير ذلك من الأشغال الأخرى عظيمة مما لا يُسمح بذبحها من أجل لحومها باستثناء المدن الكبيرة. وتستخدم الثيران بالدرجة الأساس لسحب المياه وفي الحراثة وفي الدوس على المحاصيل. أما على ساحل البحر حيث يندر وجود العلف، فإن الثيران تتغذى على التمور أو الأسماك الطازجة أو المملحة.

ويكثر وجود الماعز في عُمان، إلا أن الأغنام قليلة، وتكون سوداء اللون وصغيرة الحجم. وبما أنها تتغذى على الأعشاب العطرية التي يُكثر وجودها في البلاد، فإن لحومها لذيذة وذات مذاق جيد. أما إليتها فهي أصغر من إلية مثيلتها الأفريقية ولكنها أكبر حجماً من الأوروبية. ولا يقوم العرب بإخصاء الأغنام أو الماعز، لكنهم يقضون على عضو الذكر التناسلي بالربط المحكم.

وإذا ما استثنينا الطيور التي تكثر في عُمان وتباع بثمن رخيص، فإن عرب عُمان لا يملكون الدواجن الأليفة. والطرائد نادرة. وطيور الماء الوحيدة التي شاهدتها في أثناء إقامتي هي بعض البط البري، لكنه ليس للصيد. في حين يكثر الحمام والزرزاق واليمام، إلا أن العرب لا يكلفون أنفسهم عناء صيدها، أما السمان ذو اللون البني الشائع، أو ما يسمى

(1) لقد لاحظت انه لا توجد في عُمان أي واسطة من وسائط النقل الحديثة (بداية القرن التاسع عشر) وينطبق الشيء نفسه على كل الأقسام التي شاهدتها من جزيرة العرب.

بالقطا الصحراوي، فيكثر في السهول. والقوانين الإسلامية تضع قيوداً صارمة على الرماية. فما أن يسقط الطير حتى يهرع إليه الرياضيون لحز رقبته. وإذا لم تخرج كمية كافية من الدماء من الجرح، فإنهم يعلنون عدم صلاحيته للأكل. وتتناول النسور طعامها وسط الجبال وتوجد ثلاثة أنواع من النسور في السهول. كما توجد أعداد كبيرة جداً من طيور البحر التي ترتاد السواحل، ومن أشهرها طائر النورس والطائر الأبله والغرنوق الهندي. وتكثر الأسماك على امتداد الساحل وهي تشبه الأسماك الهندية باستثناء نوع واحد أو نوعين ولهذا سأمسك عن ذكرها. وتزور (مسقط) في أغلب الأحيان حيوانات (الغرميس) الكبيرة وهي من رتبة الدلافين ويسميها البحارة عندنا باسم (توم مسقط) بينما يطلق عليه العرب Ouey وتقوم أحياناً بقلب القوارب وتمارس بعض الألعاب المزعجة، حسب تقاريرهم، إلا أنني لم أسمع بأنها أدت إلى حدوث أي إصابة خطرة.

كان خليج مسقط قبل بضع سنوات مليئاً بالأسماك الصغيرة التي يطلق عليها اسم السردين في البحر المتوسط ويمكن الحصول عليها بأي كمية ويتم تصدير أعداد كبيرة منها بعد عملية حفظها، ولكن قبل حوالي سنتين هاجرت الأسماك من مواطنها هذه وأصبحت توجد فقط قرب (جمبرون) على الساحل الفارسي. وقد سمعت السكان المحليين يقولون إن وباءً ما يحل كل خمس أو ست سنوات بهذه الأسماك فيؤدي إلى هلاك أعداد هائلة منها فيجرفها الموج إلى الساحل. وتوجد في جداول الأنهار أسماك صغيرة جداً، إلا أن السكان لا يأكلونها. أما الحشرات والزواحف الموجودة فهي الجراد والزنابير والنحل والسلاحف والسحالي والعقارب وغيرها مما يشاهد شائعاً في الهند.

ونظراً لتنوع التضاريس الجغرافية في عُمان، فإن المناخ متنوع أيضاً. ففي المناطق البعيدة عن الساحل، والواقعة غربي الجبال، يكون الهواء جافاً في فصل البرد وحاراً جداً في فصل الحر. أما في (الباطنة) فالجبال العالية التي تتراجع بعيداً عن الساحل تعيق تقدم البخار القادم من المحيط ولهذا تكون باردة ورطبة مقارنة بغيرها. ويخفف وجود النباتات في الواحات من درجات الحرارة، إلا أن المناخ يبدو في نفس الوقت كريهاً عند الأجانب. فالحميات العنيفة التي تنتهي عموماً نهاية مدمرة تنتشر طيلة فصل البرد. والسكان الذين

يقطنون مناطق الواحات يعرفون جيداً أن الهواء الملائم جداً للنباتات له أثر معاكس تماماً على حياة الإنسان. فكان السكان خلال فترة وجودي، يشكون من المرض ويفترقون إلى الحيوية والعافية التي يتمتع بها البدو. وبيوتهم رطبة وكئيبة لا تدفئها الشمس البتة ومشيدة داخل البساتين، وتنتشر من حولها المستنقعات والبرك المائية التي تحف بها النباتات الخضر. وينتقل هؤلاء السكان من مثل هذه الأماكن إلى الصحراء القاحلة والمحرقة. ولهذا السبب، فإن أسباب انعدام الجو الصحي واضحة مثل وضوح نتائجه من جهة ثانية، فإن المنطقة التي يقطنها (بني بو علي) وأراضي (بني جنبه) وساحل (الباطنة) معروفة بجوها الصحي تماماً. والسكان الذين هاجمتهم في المناطق الأولى الحميات ومرض الزحار مع الغذاء البسيط والهواء العليل يشفون عادة بعد مرور شهر على إقامتهم في المناطق الأخيرة. وبلدة (السيب) التي تبعد مسافة عشرين ميل إلى الشمال من (مسقط) معروفة بخصائصها الاستشفائية.

ويبدو أن مرض الرمد، وغيره من الأمراض التي تصيب العيون، شائع جداً وبخاصة في وسط أولئك الذين يعيشون في الواحات. ويكفي الانتقال المفاجئ من عتمة بساتينهم إلى وهج الصحراء لتكون الأمراض، كما تكفي عاداتهم غير النظيفة في استمرار هذه الأمراض. والسكان لا يشبعون من الأدوية وهم على استعداد لابتلاع أي كمية تعطى لهم، إلا أنهم كانوا يضحكون ويتجاهلون وصيتي لهم بالاغتسال بين وقت وآخر. وقد لاحظت وجود عدد من حالات الإصابة بحصى الكلية ولكنها ليست شائعة، كما أنهم لا يعرفون أي شيء عن إجراء عملية للتخلص منها. ولم أشاهد أي حالة من حالات الجذام في عُمان، في حين شاهدت حالتين لمرض (الديدان الخيطية)، وطريقة العلاج هي الطريقة المتبعة في الهند نفسها.

في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، عُرف عن العرب أنهم أجروا أبحاثهم في مملكة النبات إلى حد بعيد. وقد عرفوا أيضاً علم الطب معرفة واسعة ويكتب الأطباء المعاصرون بامتنان كبير العديد من المقالات المختلفة ذات السمعة الجيدة التي تدين مادتهم الطبية بالشيء الكثير للعرب. ولكن لا يملك هؤلاء العرب في الوقت الحاضر في أي هذين الميدانين أي إنجازات جديرة بالاحترام. وفي حالة حدوث الحمى، يمتنعون عن أكل لحم

الحيوان ويشربون الكثير من الشربت ويطلقون العنان لأنفسهم في تناول البطيخ والخيار وغير ذلك من الخضراوات الباردة. وفي بلدة (نزوى) التي يقطنها قرابة ألف نسمة وجدت أنه ليس عملياً الحصول على فرد ينزف دماً. كما أن الإصابات جراء طلق ناري والجروح التي تحدثها السيوف في الأماكن التي يحمل فيها كل فرد بندقية وسيفاً كثيرة ومتعددة، إلا أن معالجتها بسيطة، رغم أن هناك حالات كثيرة لا ينجح فيها العلاج بسبب الطعام البسيط وعادات الجسد المقتصدة التي اعتاد عليها السكان.

ولما كانت (مسقط) تحيط بها الصخور الجرداء، فإن أشعة الشمس تصبح مركزة في بؤرة وتكون الحرارة في بعض الفصول غير محتملة تقريباً. وفي العاشر من إبريل / نيسان، كانت درجة الحرارة في الساعة الخامسة مساءً تصل إلى 106 درجة فهرنهايت، ولا وجود لنسمة هواء واحدة. ومع هذا، فإن هذه الحرارة الشديدة تخف على وجه العموم خلال النهار بفعل نسيم البحر المنعش والبارد. وأفضل عرض للحالة العامة للمناخ تكون بالإشارة إلى خلاصة سجل الأرصاد الجوية. الأمطار تهطل من أكتوبر / تشرين الأول وحتى مارس / آذار، ولكن ليس لأكثر من ثلاثة أو أربعة أيام في الشهر الواحد عندما تكون الرياح مؤاتية وتقوم القمم العالية في الجبل الأخضر بإعاقة السحب وهي في تقدمها فينجم عن زخات المطر العديد من الجداول المائية التي تجري عبر الحقول على طرفي السلسلة. وتسقط الثلوج أيضاً في فصل الشتاء في هذه المناطق بينما يسقط البَرَد في شهر مارس / آذار فوق السهول. وتكثر قطرات الندى ليلاً تاركة على الأشجار وعلى الأرض نفس الأثر الذي تتركه الأمطار الخفيفة. وفي الصحراء يكون الجو صحواً وصافياً وفي النهار تكون السماء ذات لون ازرق غامق. وفي الليل تلمع النجوم ببريق غير معهود تحت ظل أي مناخ آخر. ويتناسب البرد في ذلك الفصل، كما هو الشأن في كل الأماكن الرملية، مع حرارة النهار. إلا أن الحمى غير معروفة هناك كما يتضح. فالبدوي الذي ينام فوق الرمال يكتسب حيوية وعافية مضافتين بسبب الهواء المنعش الذي يتنفسه في نومه.

الأحجار الكلسية البدائية هي الأحجار الرئيسة في عُمان، حيث أن سلسلة من الجبال الرئيسية تتكون من هذه الأحجار التي تدخل أيضاً في تركيب السلاسل الجبلية الثانوية.

وفي المناطق والأقاليم الشمالية، وعلى ساحل البحر قرب مدينة (مسقط) نجد أن التلال، التي يتجاوز ارتفاعها ألفاً وخمسمائة قدم، وفي بعض الأحيان ألفي قدم، تتكون من الميكا المترسبة في طبقات رقيقة وتكون ذات أشكال معوجة. وعلى مقربة من (رأس مسندم) توجد صخور البازلت التي تشكل في بعض الأماكن حدبات شديدة الانحدار وفي أماكن أخرى تشكل ما يشبه قمم الجبال. لقد قيل أن الجزيرة العربية تخلو تماماً من المعادن الثمينة، لكننا وجدنا في هذه المنطقة الفضة ومعها الرصاص. ويوجد النحاس أيضاً. وفي إحدى القرى الصغيرة على الطريق المؤدية من (سمد) إلى (نزوى) ثمة منجم يعمل فيه العرب حالياً، أما بقية المناجم فمهجورة. وحتى في المناطق الواقعة قرب (مسقط) نجد أن التلال تتضمن المعادن. أما الأحجار الكريمة، فلم يعثر على أي منها حسب علمي.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل العشرون

التجارة والصناعات

إذا أردنا أن نتأمل في موقع عُمان المفيد، بوصفها سوقاً لتجارة الهند وبلاد فارس والجزيرة العربية، فإن مما يدعونا إلى الدهشة أن هذا الإقليم لم يصل البتة إلى أي مرتبة تجارية مهمة. بل إننا نجد على العكس من ذلك- باستثناء (مسقط) و(صحار) و(قلهات) التي حققت مجتمعة شهرة بسيطة- بأنه حتى في تلك الفترة التي كان فيها الطريق العام، لتلك التجارة العظيمة القادمة من الهند والمارة بموانئها والمتجهة إلى أوروبا، قد أثرى كل بلد يمر فيه، فإن عُمان ظلت مستثناة من تحقيق أي فائدة منه. لكن في بلاد تكون فيها الاحتياجات السطحية قليلة- بسبب اقتصاد السكان- وتكون الحاجات الطبيعية، كما في هذه الحالة، متوفرة بفعل الثروات الزراعية، فإنه لا يمكن أن توجد تجارة داخلية نشطة. ولهذا السبب، فإن سكان عُمان مستقلون إلى حد ما عن بقية الأمم وهم فخورون جداً بنسبهم وبلادهم وحريتهم، مما يجعلهم يأنفون الاختلاط بجيرانهم الأقل حظاً منهم: فقد احتفظوا بنفس الوضع الانعزالي الأولي. والطبقة الوحيدة التي تشتغل بالأمور التجارية هي تلك التي تعيش بالقرب من البحر. وهنا نستطيع الاستنتاج بأنهم اكتسبوا أول الأمر ميلاً للمغامرة والملاحة في نفس الوقت الذي كانوا يهتمون فيه بالصيد على امتداد الساحل. ولا بد أنهم حققوا في الملاحة، منذ وقت مبكر، درجة كبيرة من التقدم طالما أننا نعلم بأن سفنهم أبحرت في القرن الثاني عشر من (صحار) في رحلات بحرية طويلة، حتى كانت تصل إلى الصين. وفي يومنا هذا، فإن مجمل تجارة عُمان تمر من خلال تجار (مسقط) وقد شرحت كل التفاصيل الضرورية في أثناء حديثي عن تلك المدينة سابقاً. أما الفروع التجارية الأخرى في (صور) و(بركاء) و(صحار) و(شناص) فهي أقل شأناً، إذ تنحصر تجارتها في تصدير التمور التي يتلقون عوضاً عنها الحبوب والأقمشة الهندية والحطب. أما الحالة الراهنة للتعليم والأدب والمصانع في عُمان فلا تختلف كثيراً عن حالة الانحسار المماثل

الموجود في أجزاء أخرى من الجزيرة العربية. بل إنها في كل هذه المجالات أقل شأناً بكثير من مثيلاتها في اليمن المجاورة. وقد بحثت بنفسي في أوساط أكثر الناس تعليماً فلم أجد إلا شخصاً واحداً يعرف شيئا عن علم الفلك أو عن الأدب أو العلوم بصورة عامة. كما أنهم لا يملكون أي رغبة في تنمية ثقافتهم. إلا أننا لا ينبغي لنا، على هذا الأساس، أن نخلص إلى القول بأن الناس يفتقرون إلى الذكاء أو القدرة العقلية. فقد صادفت شخصاً يدعى (سعيد بن خلفان) درس في (كلكتا) ولديه معرفة واسعة بعلم الفلك البحري حتى أنه يستطيع تصوير الشمس بآلة السدس التي تقيس الأجرام السماوية، والأفق الاصطناعي لحساب ملاحظاته وتصنيف آلات الكرنوميتر. وكان تحت إمرته العديد من سفن الإمام الكبيرة، وقام أكثر من مرة بالملاحة بين (زنجبار) و(مسقط)(*).

في أول الأمر، أثارت آلاتي اهتماماً أكبر مما كنت راغباً فيه. إلا أن هذه المشاعر سرعان ما تلاشت عندما أخبرت الناس أنها ليست من الذهب. وفي أثناء إقامتي لم أتمكن من الحصول على كتاب أو مخطوطة في أي موضوع باستثناء تفاسير القرآن الكريم والكتب الدينية عموماً. وكان أولادهم لا يتلقون إلا القراء، والكتابة في هذه المواضيع.

في بعض المدن الرئيسية يصنع السكر بكميات كبيرة. ولكن على الرغم من أن القصب يتميز بنوعيته الممتازة جداً، إلا أن السكر له مظهر مختلف بسبب بعض الصعوبات التي يواجهونها ولم يتمكنوا من التغلب عليها في عملية التحبيب. ويشكل السكر أهم الصادرات من (مسقط) حيث يتم فيها وفي (نزوى) وبعض المدن الرئيسية الأخرى صنع كميات كبيرة من الحلوى وهي مزيج من السكر والعسل والسمن واللوز يغلى حتى يصبح كعجينة متماسكة وترسل منها كميات كبيرة إلى الهند وبلاد فارس بعد أن توضع في أطباق فخارية ليست عميقة يبلغ قطر الواحد منها عشر بوصات. وتصنع حلويات مماثلة لهذه في بلاد الشام مستخلصة من عصير العنب، وثمة نوع آخر أقل شأناً يصنع من شجرة الخرنوب حيث يُغلى فيصبح شبيها بالعسل وهي المادة التي يقال بأنها كانت تكثر في بلاد (كنعان).

(1) كمثال على إتقانه اللغة الإنكليزية، فإنني أقدم في الملحق في نهاية الكتاب الرسائل التي أرسلها إلي. وعلاوة على أن هذه الرسائل تكشف عن موهبة طبيعية كبيرة، إلا أنها غريبة من نواح عديدة. ويستفاد من عِظَم الجمل اللامع في الكتابة، كما أنهم يستخدمون نوعاً من الحبر سرعان ما يزول.

وفي بلاد الشام وفلسطين يَكثُرُ الكَرمْ وعندما يُمزج بزيت الزيتون يصبح مادة غذائية تتناولها الطبقات الفقيرة. وإذا ما أضيف مسحوق السمسم ووضعت داخل فرن ذي نار هادئة تصبح حلوى لذيذة. وتصنع الثياب القطنية ذات النسيج الخشن والجنفاص داخل البيوت. ويقوم الرجال بصناعتها ومن أشهر هذه الثياب وأغلاها ثمنا ما يعرف باسم (لونجي) ويبلغ طولها عشرة أقدام وعرضها قدمان وست بوصات أو ثلاثة أقدام، وتكون مخططة أفقياً بالأحمر والأزرق. وتستخدم إما بمثابة نطاق يلف به الخصر أو عمامة توضع فوق الرأس. ويختلف ثمنها، إذ يتراوح بين خمسة إلى عشرة دولارات. وتقوم الإناث بمهمة غزل الخيوط. وشاهدت في قبيلة بني بو حسن سقيفة واسعة وحوالي ثلاثين حائكاً يحيكون الحرير وكانت الألوان جميلة إلا أن الصناعة خشنة والتصاميم غير جميلة. وفي المناطق الشمالية تصنع البشوب، إلا أنها أقل شأنا من حيث نوعيتها من البشوت المصنوعة في نجد.

وأتيحت لي الفرصة في أماكن أخرى أن أشاهد انعدام وجود الحرفيين في عُمان إلا ما ندر. ففي المدن الرئيسة يصنع الحدادون رؤوس الرماح والخنجر المعقوف وبعض السكاكين الفجة. وتصنع الأواني والأطباق النحاسية أيضاً من فئة أخرى من الحرفيين، إلا أن الحدادين أكثر عدداً من هؤلاء. وتصرف مبالغ كثيرة من النساء على شراء أدوات الزينة الفضية كما أن أطفالهن يرزحن تحت ثقل المصوغات الفضية. وقد تمكنت من أن أعد ما لا يقل عن خمسة عشر قرطاً في كل أذن. أما رؤوسهن وصدورهن وأيديهن وكواحلهن فهي مزينة بأعداد كبيرة جداً منها.

ويوجد العديد من صاغة الذهب، إلا أن المصوغات ليست دقيقة الصنع. ويظهر أن المعدن المستخدم من أفضل الأنواع.

ينبغي تصنيف السكان في (عُمان) إلى صنفين: الأول يمثل أولئك الذين استوطنوا المدن والواحات. والثاني يمثل البدو الذين يعيشون في الصحراء القريبة. وسكان الصحراء هم خليط غير متجانس ويحتفظون بكل خصائص بني إسماعيل الحقيقية. أما سكان المدن والواحات فهم أحسن منظراً ويميلون إلى البدانة قليلاً على الرغم من أن الفارق قلما يبدو

واضحاً هنا بخلاف ما هو عليه الأمر في الأجزاء المتمدنة المستقرة الأخرى من الجزيرة العربية. وقد اختلط كلا هذين الصنفين من السكان مع الفاتحين الخوارج واعتنقوا مذهبهم وزالت جميع الفروق بين الاثنين. إلا أنهم احتفظوا بفارق آخر، نُسي أمره، في بقية الأقاليم حسب علمي. فالمؤرخون العرب يعيدون سكان (عُمان) الحاليين إلى نسبين اثنين: قحطان وهو ابن عابر وعدنان سليل إسماعيل. وفي عُمان يلقب، أحفاد الأول باسم (Ummari) وأحفاد الثاني باسم (Gaaffri)(*). إلا أن هاتين التسميتين معروفتان محلياً فقط لأن هناك مؤلفين عرب يطلقون على أحفاد الأول اسم العرب العاربة أو العرب الأصلاء فيما يطلق على أحفاد الثاني العرب المستعربة أو العرب الذين اختلطوا بغيرهم.

وتعامل كل فئة من هاتين الفئتين الفئة الأخرى بكراهية متبادلة. أما عرب المدن، الذين لا يوجد بينهم مثل هذا الفارق، فينقسمون إلى قبيلتين تحارب كل واحدة الأخرى مثلما تحاربان سكان الصحراء. وتطبق تطبيقاً صارماً القوانين الكريهة الخاصة بسفك الدماء والانتقام. وأصل هذه النزاعات يقوم على هذا الأساس أو بسبب الشيوخ الذين غالباً ما يكونون في حالة عداء موروث أو شخصي مع جيرانهم. وفي حال استمرار الأعمال العدائية، فإنها تجري وفق نفس الأسس القائمة في الصحراء والمتمثلة بحسن النية. وهذه الأعمال لا تؤثر في الهدوء العام للمنطقة إذ في وسع الرحالة أن يجتاز أراضي القبائل المتناحرة دون خوف من انقطاع رحلته. والمهن الزراعية التي يمتهنوها لا تعد حقيرة الشأن كما هو الحال في أجزاء أخرى من الجزيرة العربية كما لا ينجم عنها الآثار المألوفة بتقليص الارتباط بالحرية، فقد خسر الوهابيون مؤخراً المعركة مع سكان (بدية) الذين لم يتمكنوا إلا من حشد ثلث القوة التي تقدمت لمهاجمتهم. وفي ظل هذا التقييم الجيد، لا أستطيع أن أدرج كل سكان الساحل البحري، خاصة سكان (مسقط) الذين كثيراً ما اظهروا شدة جبنهم حتى إن كلمة مسقطي وكلمة جبان أصبحتا مترادفتين(**).

(*) لعل المؤلف قصد بذلك اليمانية والغافرية.

(**) لا يمكن مقارنة قوة الشكيمة والبأس عند أفراد قبائل الصحاري والجبال بسكان المدن الساحلية لما في حياة المدن الساحلية من اختلاط ودعة وفردية تضعف العصبية القبيلة كما نبه إلى ذلك العلامة ابن خلدون في مقدمته الشهيرة غير أن اطلاق المؤلف هذا الحكم العام المجافي للحقيقة أو تقبله له وتلقفه دون روية مؤشر على ضعف الكثير من الآراء التي شذ بها عمن سبقه أو لحقه من الرحالة.

العرب الذين يقطنون الواحات والمدن الواقعة فيما بينها عبارة عن شعب أبي، سامي الأخلاق، أقل فساداً من أولئك الذين انتقلوا من حياة الرعي إلى حياة الزراعة في مناطق أخرى من جزيرة العرب: فلم يجردهم ارتباطهم بالأرض وحياة الاستيطان التي اعتادوا عليها إلا من بعض الخصائص المميزة التي يملكها أشقاؤهم سكان الصحراء. وهم كرماء وشجعان عرف عنهم حسن الضيافة، إلا أنهم في نفس الوقت محبون للانتقام وسريعو الغضب وحساسون جداً إزاء الإهانة.

وقد تسببت أشياء تافهة جداً في إحداث خصومات دموية رهيبة وسأذكر، مثالاً على ذلك، حادثة شهدتها بأم عيني. فقد كانت إحدى الأسر من قرية مجاورة تزور أسرة أخرى في (بدية). وفيما كان ابنها وهو غلام في العاشرة من عمره، يتشاجر مع صبي آخر من صبيان المدينة، تلقى صفعة من والد الصبي الآخر الذي جاء لفض الشجار. فما كان من الصبي إلا أن ذهب باكياً إلى أسرته التي ثارت ثائرتها ورحلت عن البلدة وعادت إلى قبيلتها. وفي صباح اليوم التالي وصل وفد إلى (بدية) طالباً إيضاح سبب الإهانة. وجلس الطرفان في الساعة الثامنة لمناقشة القضية، ونهض أعضاء الوفد مرات عديدة للانصراف دون توصل إلى حل مما يعني أن المعارك ستنشب بين الطرفين. غير أن وجهاء البلدة أقنعوهم بالجلوس ثانية ولم تُسوى القضية الخطيرة إلا بحلول مغيب الشمس. وفي اليوم التالي أقيمت وليمة دعي إليها ما يقرب من عشرين شخص من أبناء القبيلة التي تعرضت للإهانة وبذلك حسمت القضية.

وهناك فارق أيضاً في السلوك الأخلاقي بين سكان المدن الساحلية وسكان المناطق الداخلية المأهولة وهو فارق شديد الوضوح في عُمان مثلما هو كذلك في بقية أجزاء العالم. فالتهتك العلني في الأخلاق يميز الطبقات الدنيا من سكان المدن الساحلية. كما أن عادات بعض الطبقات العليا فاسقة ومنحلّة. لكن أرجو ألاّ يفهم أنني أطبق هذا الكلام عموماً لان العناية المبذولة للحيلولة دون ذيوع هذا الشذوذ ما هي إلا دليل كاف على أنهم ليسوا غير مكترثين البتة لحالة السلوك الأخلاقي. وبقدر علمي، ليس هناك إلا أدنى التزام بحسن النية في الصفقات التجارية. كما أن الابتعاد عن حسن النية ومبادئها في العلاقات

التجارية لا يؤثر فيهم بأي قدر كان. فتأدية واجبات الضيافة تُمارسها ممارسة تامة كل الطبقات في عُمان كما هو الحال في بقية مناطق الجزيرة العربية، كما أن الغريب يحظى دوماً بالاحترام(*). وبما أنني عالجت موضوع ديانتهم في مكان آخر فإنني هنا أسجل فقط أن سكان عُمان أكثر تسامحاً من عموم المسلمين.

إن ابرز الصفات في شخصية العرب هي الصراحة والبساطة. وهاتان الصفتان لا تتوضحان في كل فعل من الأفعال ذات الصلة بالعلاقات التجارية حسب، بل في محاكمهم ودوائرهم أيضاً. إن هذا التحرر من الفخفخة والادعاء، الذي يختلف كثيراً عن بقية الشرقيين، يجعل صورتهم حسنة في عيون الأوروبيين وهو السبب الذي يجعلني أعتقد أننا نقدرهم كثيراً. وفيما يلي بعض من أساليب التحية عندهم:

– السلام عليكم. فيرد الشخص المقابل قائلاً:

– وعليكم السلام. وتقال هذه الكلمات عند دخول المرء إلى غرفة أو عند المرور بجماعة من الناس على الطريق أو الانضمام إليها.

– صباح الخير.

– مساء الخير.

– في أمان الله.

– الله يحفظك.

وتقال أي من هذه العبارات في الزيارات العامة أو الاعتيادية. وعند دخول الضيف، فإن المضيف ومن معه من الحاضرين ينهضون ويردون التحية ولا يجلسون إلا بعد جلوسه. وعند إلقاء التحية على الشيخ أو الحاكم، فإنهم يضيفون كنيته بعد عبارات التحية الواردة آنفاً. وإذا كان مقامه رفيعاً، يقبلون يده. أما الأفراد الذين يلتقون بعضهم بعضاً خارج البلاد فيصافح أحدهم الآخر، بينما ينهض الإمام عند زيارة الأوروبيين له ويترك لهم مكانا ليجلسوا إلى يمينه.

* غالبا ما يستضاف المسافر في عُمان في المسجد.

الفصل الحادي والعشرون

العادات والمناسبات

سكان الواحات والمدن مولعون أشد الولع بتسلية بعضهم بعضاً، وهي تسلية تستمر في بعض الأحيان ثلاثة أو أربعة أيام. وبخلاف غيرهم من أهل الشرق، فإن مشاعرهم إزاء مباهج الطبيعة ليست معدومة بأي حال من الأحوال، وهم يستقبلون ضيوفهم في مبانٍ لطيفة (ينبغي لنا أن نسميها بيوتاً صيفية) منفصلة عن أماكن سكناهم وتقع في مكان جميل تحت ظلال أشجار المانجو أو التمر الهندي. وبين جدران هذه البيوت يقضون نهارهم وهم في متعة بالغة، أما لياليهم فيقضونها غالباً في السمر واللهو – هذا إن كانت الرواية صحيحة.

غالبا ما انضممت إلى هذه الحفلات في أثناء النهار، لكن اقتراب الشمس من مغيبها – وهو الوقت الذي يذهب فيه الجميع لأداء فريضة الصلاة– كان ذريعة كي أنصرف فلا يسمح لي بالبقاء بعد ذلك. إن اشتراكهم في شرب الخمر المحرم عليهم لا يمكن إنكاره لأن كميات كبيرة يؤتى بها من منطقة التلال. وفي كل مرة يتم فيها تهريب مشروب (البراندي) وغيره من المشروبات الروحية على السواحل عند مسقط (حيث تعتبر سلعاً محظورة) فإن الجزء الأعظم منها ينقل على الفور إلى المنطقة الداخلية. ولدى وصولي إلى (مسقط) وجدت سفينة قادمة من إنكلترا راسية هناك. وكان تنوع حمولتها فريداً بالنسبة إلى ميناء إسلامي لأن جزءاً كبيراً من تلك الحمولة يتألف من لحم الخنزير والبراندي. إنني لا أعلم إلى أي حد ينجحون في نقل لحم الخنزير، لكن البراندي كان يجد طريقه إلى الساحل بكميات كبيرة على الرغم من حظره حظراً تاماً من الإمام. وقد سمعت منه شخصياً أن نصف سكان مسقط ثملون خلال الفترة التي يستغرقها وجود المشروب. بل إن أحد أقرباء الشيخ تجرأ على الظهور أمام الإمام وهو سكير. لكني وجدته في اليوم التالي وهو في طريقه إلى زنجبار وقيل لي أنه لم يكرر المخالفة. والمسلمون المتشددون لا يرون أن تذوق النبيذ وحده محرم حسب، أو استخلاص العنب وتحويله إلى عصير، بل إن شراءه

وبيعه والمال المكتسب من جراء بيعه محرم أيضاً. وتصنع كميات كبيرة من النبيذ في (الجبل الأخضر) حيث يعب منه السكان بكل حرية وعلانية. وفي المدن الكبيرة التي يصنع فيها السكر، يتم تقطير نوع من شراب الرَم من حثالة السكر ويباع على الفور في البلاد. أما المقامرة، فعلى الرغم من تحريمها في القرآن الكريم، فإن السكان ينغمسون فيها كما هو حالهم في لعب الشطرنج وبعض أنواع القمار الفارسية التي تلعب باستخدام الورق المستورد من الهند. أما بقية أنواع التسالي لديهم فقليلة جداً. فلديهم مثلاً رواة الحكايات الذين يقومون بالغناء أثناء الاحتفالات والأعياد حيث يصدحون بالغناء بأعلى أصواتهم. أما العرافة أو الرجم بالغيب فيمارس بأساليب شتى. لقد ذكرت قبل الآن حرق عظم الكتف الذي يدعي العراف أنه من خلال ذلك يحصل على معلومات استثنائية تقدمها أرواح خفية تظهر بعد عملية حرق جزئي. وهناك أيام معينة في الشهر تحدد على أنها أيام نحس وفيها لا يحدث أي قتال ولا إنزال لأي جنود ولا إبحار. كما يلجأون إلى السحرة لمعرفة السارق، ويتبع هؤلاء السحرة نفس خطط السحرة في الهند. ويحب كلا الجنسين المراجيح حباً جماً حيث يجلسون فوق قطعة خشبية مربوطة إلى حبل مثبت بغصن إحدى الأشجار. ومما يدعو إلى الغرابة أن العرب وبرغم حظر القرآن، قد عُدّوا دوماً من الأمم المحبة للغناء، والعديد من البحوث كتبت بلغتهم عن تآلف الألحان، إلا أنهم لا يملكون آلات موسيقية خاصة بهم وان مجرد الاحتفاظ بهذه الآلات في بيوتهم يعد أمر مُشيناً. إلا أنهم لا يمانعون من الإصغاء للإماء وهن يعزفن على الآلات الموسيقية التي تستورد من أفريقيا. وأبرز هذه الآلات ما يشبه آلة الغيتار لكنها بستة أوتار مثبتة فوق رق منشور على طاس خشبي ويصدر أصواتاً مزعجة. أما الطبل، وهو من ابتكار جزيرة العرب، فلا يزال يستخدم من نفس الطبقة من الناس وهو عبارة عن جرة من الطين تستخدم بدلاً من بطن الآلة. ويستخدم الطبل غالباً لدعوة الجند. كما يوجد قرن طويل مقوس إلى أعلى ويستخدم لنفس الغرض.

وفي (السويق) شاهدت الاحتفال بالعيد احتفاءً بذكرى كفّ الله يد إبراهيم عليه السلام(*). والاحتفال هنا أقل أبهة مما شاهدت في أجزاء أخرى من الجزيرة العربية. ولما

(*) يشير بذلك إلى مناداة الله لسيدنا إبراهيم بالكف عن ذبح ولده سيدنا اسماعيل الذي، كما نعلم، فدي بكبش بذبح عوضاً عنه، والعيد المقصود هو عيد الأضحى.

كان دينهم يمنع الأفراد من كل طبقة من ارتداء الثياب الغالية(*)، فإنهم لا يملكون الكشمير الباهظ الثمن، ولا تضع النساء المساحيق على الأوجه ولا يثقلن أنفسهن بالخواتم والزينة الفضية. أما الرجال فيسلون أنفسهم بسباق الجياد والإبل وبرقصة الحرب التي شرحتها في القسم الخاص بعرب (بني بو علي). وهناك تسلية أخرى لم أشاهد مثلها في مكان آخر: حيث تقف مجموعة من الرجال في خطين على بعد عشر أو خمس عشرة ياردة ويقترب هؤلاء من بعضهم بعضاً على صوت قرع الطبول الذي يقوم به اثنان من العبيد يتخذان موقعهما وسط الجماعتين. ويقترب هؤلاء بخطوات بطيئة ومحسوبة وما أن يصبحا على بعد ياردتين حتى ينسحبان إلى مكانهما السابق بعد أن يحني كل واحد رأسه. وظل الفريقان يقتربان وينحنيان ويعودان أدراجهما إلى الوراء طيلة مدة بقائي هناك.

إن أوضاع السكان على وجه العموم أفضل من وضع بقية معظم الأمم الشرقية. وإذا كانت حكومة بلد ما يقاس خيرها من شرها وقف ما يتمتع به السكان من استقلال أو راحة أو عكس ذلك، فإن حكومة عُمان تحظى بمكانة عالية في هذا الصدد. وباستثناء (مسقط) وغيرها من المدن الساحلية، فإن الشحاذين نادرون. ويبدو الجزء الأعظم من السكان وهو يرتدي الملابس الأنيقة ويعيشون في مساكن جيدة ومعفون من دفع الضرائب والرسوم. وإذا كانت البلاد تفتخر بعدم وجود الرأسماليين أو الإقطاعيين الكبار، إلا أن هناك البعض ممن يعيشون في ظروف متدنية جداً أو فقيرة. وتتألف ثروتهم في قسمها الأعظم من بساتين النخيل، وكل شجرة مسجلة في سجلات. وتركات الزواج والإرث الخاصة به تتكون منها لا أكثر.

يتكون، رداء الطبقات الدنيا من أزار يُلف من حول الخاصرة يُسمى (لونجي) وعمامة من الكتان تُصنع على سواحل (بركاء) وعباءة خشنة. أما رداء الطبقات العليا فيتكون من قميص طويل يرتدون فوقه عباءة من قماش رقيق بني اللون عادة ومفتوح من جهة الصدر وعند الأكمام. وفوق هذا يرتدون عباءة ذات لون أبيض أو غامق مصنوعة من نسيج ناعم جداً مستورد من نجد عادةً. وثمة لفاع كشميري يلف به الرأس كالعمامة، وحزام للخنجر

(*) هذا القول لا صحة له.

يكمل الزي. وتستخدم جميع الفئات نفس الصندل، أما أسلحتهم فتتألف من البندقية كالتي تستعمل في عموم بلاد الشرق، وتكون الماسورة طويلة جداً ومزخرفة بالذهب والفضة في حين أن السيف مستقيم ومزدوج الحافة، رقيقها، ويبلغ طوله حوالي ثلاثة أقدام وله مقبض طويل ولا يحتوي على غمد. ويبلغ طول الخنجر عادةً حوالي عشر بوصات وله مقبض مزخرف بالذهب إن كان صاحبه ثرياً. ويبلغ قطر الدروع عندهم حوالي أربع عشرة بوصة وتكون مربوطة برباط جلدي إلى السيف. وأفضل الأنواع وهي المصنوعة من جلد جاموس البحر، مستوردة من الحبشة. والذين يصحبون الشيخ على ظهور الجياد يحملون الرماح التي يبلغ طولها خمسة عشر قدماً، ومزينة في طرفها الأقصى بخصلة ريش.

وفيما يخص الطعام، فإن الشيوخ والطبقات العليا يتناولون مختلف أنواع الأطباق التي تطبخ على الطريقة الفارسية. ولحوم الجدي والضأن والإبل غالية الثمن إلى حد ما، ولا بد أن تكون تكاليف مائدة الشيخ كبيرة جداً خاصة أن الضيافة تُقدم مجاناً. علاوة على هذه المواد، فإن الرز وكميات كبيرة من السمن تستهلك على نطاق واسع. أما الغذاء الرئيس عند الطبقات الأكثر فقراً، بل حتى الطبقات المتوسطة، فيتألف من التمور والأسماك. وأسعار هاتين المادتين رخيص جداً كما إنهما متوفرتان بكثرة، لهذا فإن قطعان الماشية نفسها تتغذى عليها. ويستخدم عامة الناس القليل من الطعام الحيواني غير أنهم لا ينفرون من تناول لحم البقر على العكس من سكان الحجاز واليمن. كما أن هؤلاء السكان يهوون الخبز المصنوع من القمح حيث يخبز بشكل قطع رقيقة على جمرات النار، أو يوضع في أفران مشيدة على شكل جرة. ولا تحتاج هذه الأفران إلا إلى كمية قليلة من الوقود كي تصبح حارة وتوضع أقراص الخبز على الجوانب. ويتناول السكان القليل من الذرة لأنها، كما يقول السكان، تسبب الغازات وسوء الهضم. وتحول الذرة إلى طعام عن طريق مجرشة يدوية(*) التي يشيع استخدامها في جميع أجزاء الشرق، وهي موجودة حتى في (اسكتلندا) ويطلق عليها اسم (quern). وربما يمكن القول أنها من أكثر الأنواع البدائية في العالم إذ تتألف من قطعتين دائريتين من الحجر يبلغ قطر الواحدة حوالي القدمين. وتكون القطعة الحجرية

(*) هي ما يعرف بـ (الرَّحى).

العلوية محدبة وفيها مقبض، أما القطعة السفلية فهي مقعرة. ويتم إدخال كمية من المادة المراد طحنها بوساطة فتحة موجودة في القطعة الأولى التي تدار يدوياً دورات سريعة. وعلى وجه العموم تقوم الإناث بهذه الوظيفة، والعملية بطيئة، ولا تُطحن في اليوم الواحد أكثر من الكمية المطلوبة. ويكون وقت استخدام المجرشة صباحاً، ويرافق ذلك الغناء العذب.

ويتناول السكان الفواكه، التي تُنتج في البلاد بكميات كبيرة جداً، لكن باقتصاد. ويبدو هؤلاء مولعين بتناول قصب السكر الذي تُباع منه كميات كبيرة يومياً في السوق. وللأسماك قيمة كبيرة وبخاصة الكبيرة منها مثل أسماك القرش والدولفين.

وتسير النساء في المناطق الريفية دون خمار، إلا أنهن في (مسقط) يضعن الخمار المستطيل على وجوههن ويكون طوله حوالي عشر بوصات وعرضه سبع بوصات وموشّى بحافة مذهبة. وفي الجزء الأوسط من الخمار وفوق منطقة الأفق تماماً، يوضع عظم فك الحوت، وعلى كلا الجانبين توجد فتحة صغيرة تستطيع من خلالها النساء رؤية ما يدور من حولهن. وترتدي الطبقات الدنيا سروالاً تحتانياً فضفاضاً وفيه زنّار وتنوره قطنية زرقاء اللون أو رداءً واسعاً. وتزين أذرعهن وكواحلهن بالأساور والخلاخل المصنوعة من الفضة أو الكهرمان، في حين يضعن في آذانهن مختلف الأقراط وغير ذلك من وسائل الزينة. أما ثياب السيدات المحترمات جداً فهي بسيطة أيضاً، إلا أن أقمشتها مصنوعة من الحرير الهندي. وعندما يسافرون إلى خارج البلاد، فإنهن يرتدين غطاءً فضفاضاً من فوق ثيابهن. ويكشفون عن حبهم للمصوغات والحلي المبهرجة من خلال الزينة الذهبية التي يزينَّ بها رؤوسهن. وثمة عادة منتشرة تتلخص باستخدام الحنّاء، كما تستخدم مادة طحلبية يتم جمعها من جبال الغرانيت في جزيرة (سوقطرة) لنفس الغرض. علاوة على هذا كله، تهدف الطبقات الدنيا إلى تعزيز جمالها وذلك بالكشف عن الوشم ذي اللون الأزرق الذي يزين أذرع نسائها ووجوههن.

النساء جميلات، قويات البنية، مكتنزات الأجسام، لكنهن لسن بدينات. أما لون البشرة فلا يزيد سمرة عن سمرة الفتيات الإسبانيات، وفي وسعنا الاستنتاج بأن هذا هو لون بشرتهن الطبيعي طالما أن اللواتي يقطنَّ في الواحات لا يغادرن بساتين نخيلهن إلا في

الصباح والمساء، وأن اللواتي يقطنَّ في المدن، يحتفظن بملامحهن بنفس العناية. من جهة ثانية، نجد أن البدويات اللواتي يتعرضن دوماً لأشعة الشمس ذوات بشرة دكناء. ويلاحظ الشيء نفسه على الرجال، على الرغم من أن الأطفال تكون بشرتهم أقل سمرة عند الولادة. والنساء دقيقات الملامح، لهن عيون واسعة ومتألقة ومفعمة بالحيوية، وأنف معقوف إلى حد ما، وفم دقيق التقاطيع وأسنان بيض كاللؤلؤ. إنهن، بلا أدنى ريب، أكثر جاذبية من أي من النساء اللواتي شاهدتهن في أي جزء آخر من شبه الجزيرة العربية. وبسبب مرحهن وحيويتهن، نجد الابتسامة تعلو وجوههن دوماً. كما أن أي إيحاء ذكي، وفي أثناء محادثاتهن مع بعضهن بعضاً، أو أي حدث مضحك مهما كان تافهاً، يكفي لإثارة ضحكهن.

في المدن القريبة من سواحل البحر، تبذل عناية كبيرة لإبقاء النساء من ذوات المنزلة الرفيعة، في حالة عزلة شأنهن في ذلك شأن أي منطقة أخرى من بلاد الشرق. إلا أن هذه العزلة اختيارية عندهن شخصياً إذ لديهن الحرية الكافية للخروج منها وقتما يرغبن في ذلك. ففي بيت تاجر عربي قمت بزيارته، تبين استحالة التقليل من حب الاستطلاع بين نسائه اللواتي كن باستمرار يتنقلن من أمام باب الغرفة التي كنا نجلس فيها رغبة منهن في رؤية شخص أوروبي. وقد تحمل صديقي هذا الأمر بصبر بعض الوقت، وحاول من خلال الاحتجاج أن يحول دون ذلك، ولكنه أدرك عدم جدوى ذلك فانتهز الفرصة في المرة التالية التي زرته فيها وأقفل باب الغرفة التي نجلس فيها. إلا أن النساء أحدثن جلبة عالية مما دفعه إلى إطلاق سراحهن قبل انصرافي. الحق لا يوجد إلا أدنى شك في تمتع النساء المسلمات في عُمان بحرية أكبر، واحترام أشد، من أي بلد شرقي آخر. وفي أثناء الاضطرابات المدنية، غالباً ما يقمن بدور في الشؤون العامة، وفي بعض الأحيان، أظهرن بطولة فائقة.

ومن بين أبرز الملامح المميزة في وضع هذا العرق الفريد هي حكومة الشيخ التي تعد ظاهرة سياسية في تاريخ الأمم بسبب دستورها ونتائج أفعالها. فعلى الرغم من أن هذه الحكومة ليست بالجمهورية ولا بالأرستقراطية ولا بالملكية، إلا أنها تحتوي على عناصر كل هذه الأنماط. وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار العمر الطويل الذي عاشته، والحد الأدنى من الضغط السياسي الذي تفرضه على السكان والمحاربين الذين ربتهم وأرسلتهم بين وقت

وآخر من براريها التي لم يقهرها أحد لإلحاق الدمار والخراب بغيرها من المناطق، فذلك كله يوفر موضوعاً يستحق منا الاهتمام والدراسة على وجه الخصوص.

لقد كانت الجزيرة العربية من بين الأمم الأولى التي شعرت بآثار الحضارة والمدنية. وعلى الرغم من أن هذه المنطقة هي التي شهدت توحد أول المجتمعات البشرية من اجل الحماية المشتركة، إلا أن حكومتها، مقارنة بتاريخ العالم، لم تُضِفْ إلا الشيء القليل على شكلها البسيط الأصلي والأبوي، وذلك منذ العهود الغابرة التي تصل إليها المعلومات التاريخية وحتى اللحظة الراهنة. وتنطبق هذه الملاحظة، بالدرجة الأساسية، على الجزء الجنوبي(*) من هذه القارة الشاسعة إذ أننا نعرف، من خلال تراث الأمة ومصداقية الكتّاب في الشرق، بأنه بعد الطوفان بفترة قصيرة من الزمن، إن القليلين ممن أنقذتهم الرحمة الإلهية من تلك الكارثة المروعة، استوطنوا منطقة من مناطق حضرموت تدعى (الأحقاف)(**) ويقال أنهم من قبيلة(***) ابن (عوص) وهو ابن (سام) ويفترض بأن جزيرة العرب انحدر سكانها من هذا النسب.



(*) قد نعذر المؤلف في تصوره الخاطئ هذا نظراً لغياب المعلومات عن حضارة شعوب العربية الجنوبية آنذاك أما اليوم فمن المعلوم والثابت أن ركيزة سكان العربية الجنوبية هي الكيان الاجتماعي المسمى عندهم «شعب» وهم كيان حضري مستقر تربطهم وتجمعهم رابطة اقتصادية وليست صلة الدم أو النسب وعرفوا حياة دينية معقدة التركيب ولم تكن ديانة بدائية كالتي عرفها بدو الصحراء الرحل ومارسوا التجارة على نطاق عالي من خلال انتاج البخور واللبان وتحكموا في مصادر المياه من خلال نجاحهم الكبير في إقامة السدود وقنوات الري وعرفوا نظام حكم شوري أشار إليه القرآن الكريم في معرض قصة سيدنا سليمان وملكة سبأ (سورة النمل الآية 32) وسنوا التشريعات والقوانين الجزائية المدنية بما في ذلك القوانين التجارية.

(**) ورد في النص الإنجليزي (AL AKAS) وهو تصحيف.

(***) يشير هنا إلى نسب عاد وقد نسب الأخباريون عادا إلى عاد بن إرم بن عوص بن سالم بن نوح.



الفصل الثاني والعشرون

سكان الصحراء وسكان المدن

سيكون أمراً غريباً على خطتي الراهنة لو حاولت أن أناقش مناقشة مفصلة جذور حكومة البدو وتاريخها العام وسبب استمرارها ردحاً طويلاً من الزمن والظروف التي دفعت السكان إلى الهجرة ونقل عناصر قليلة جداً منها إلى أجزاء أخرى. لكن على الرغم من ذلك، فإن ثمة ضرورة لتقديم عرض موجز لتوضيح العلاقة السياسية والطبيعية لكلا الفئتين اللتين تقطنان الآن في (عُمان) أما كقبائل رعوية مبعثرة أو كقوم يعيشون على الزراعة والتجارة، وبسبب انتمائهم ولهجتهم وتقدمهم في المدنية فإنهم يختلفون اختلافاً مادياً شديداً عن بعضهم بعضاً، مما يجعل من الضروري تناول كل منهما على حده.

في المراحل المبكرة من المجتمع، أقرّ البشر بطاعة الإنسان الذين يدينون له بوجودهم. وفي وسعنا أن نتابع بالاستدلال الطبيعي امتداد السلطة التي أوكلت إلى الأب في أسرته بمختلف أفرادها، أي القبيلة. ويستمر هذا الشيء حتى يغدو عدد أفراد القبيلة صعب الانقياد فلا يمكن تتبع خطواتهم، أو يصبح الكلأ الشحيح غير كافٍ للأعداد المتزايدة من قطعانهم. وبعد ذلك بات ضرورياً أن ينفصل جزء عن القبيلة ويبحث عن الطعام في أقاليم أكثر بُعداً. ولسوف يستمر الأمر فترة زمنية في حصر السلطة بيد الأب أو في خلفائه المباشرين الذين قادهم في جولاتهم. ولكن بسبب ازدياد أعداد هؤلاء الخلفاء وتشبعهم، فقد أصبح لزاماً اختيار رؤساء مختلف القبائل أحد الأشخاص (الذي كلما كان نسبه قريباً من الأب غدا أفضل) الذين استطاعوا من خلال أسلوب حياتهم الحافل بالمغامرة والأخطار أن يتبوأ مكانة رفيعة لشجاعته وحكمته ويكون مهيئاً لأن يتزعمهم في أثناء الحرب أو أن يترأس اجتماعاتهم في زمن السلم. ومع انتشارهم، سيظلون يفاخرون بالنسب الذي انحدروا منهم، وعند ظهور عدو مشترك، يوحدون أنفسهم باتفاق طوعي مشترك لطرده. وإذا كانت قوتهم أول الأمر لا تكفي لإحداث مثل هذا الأمر علانية، فإنهم

يهربون إلى الصحراء، التي تعد في جميع الأوقات ملاذاً يصعب اختراقه، ومن هناك يواصلون إثارة القلاقل والاضطرابات للغازي حتى يطردوه من بلادهم.

أما مدى نجاح تطبيق هذا الأسلوب في الحرب فيمكن فهمه من خلال نتيجة الغزوات المختلفة التي شُنّتْ ضدّهم. فعندما اخترق (أوليوس غاليوس)(*) سواحل البحر الأحمر، تراجع السكان المحليون أمامه ولم يظهروا إلا القليل من المقاومة. ولكن ما أن دفعوه إلى التوغل إلى الداخل بأسلوبهم هذا، وبدأ جنده يقضون حتفهم بسبب المرض، حتى هجموا عليه هجوماً كاسحاً جعله يهرب مع حفنة بائسة من قوته إلى مصر تاركاً جزيرة العرب دون أن يتمكن من غزوها. وبنفس الأسلوب، خلّص هؤلاء السكان أنفسهم، في فترة زمنية لاحقة، من الفرس الذين كانوا يسيطرون ذات يوم تحت حكم (أنو شروان) على الجزء الأعظم من حدودهم، بما في ذلك عُمان. كما تخلصوا أيضاً من الأحباش الذين دمروا الحجاز واليمن، ومن الأتراك الذين استقروا فترة من الزمن في اليمن(**).

ويبقى بحاجة إلى الإثبات مدى قدرة شرطة محمد علي الماكرة– الذي يفترض فيه إنه كان يفكر في إخضاع عموم جزيرة العرب– في التغلب على هذه الصعوبات. فنجاحه السابق ضد الوهابيين لا يقدم معياراً نستطيع من خلاله أن نصدر الحكم في هذا الشأن، لأن هؤلاء المتشيعين كان ينظر إليهم العرب التقليديون على أنهم عدو مشترك. ولم يساعده في وضع نهاية ناجحة لتلك الحرب إلاّ توحد العديد من القبائل العربية مع قواته. وكان الدمار الأخير الذي حاق بجيشه– الذي كان آنذاك حسن التجهيز وجيد القيادة– في منطقة (عسير) يدفعنا إلى عدم توقع نهاية لجهوده أفضل من تلك التي بذلها الغزاة الآخرون من قبله، وهذا ما أوضحته آنفاً.

(*) يشير إلى حملة حاكم مصر الروماني على اليمن عام 24 ق.م والتي صحبه فيها الجغرافي استرابون الذي كتب وصفاً لتلك الحملة الفاشلة.

(**) ما خلص إليه المؤلف هنا من قاعدة مفادها هروب شعوب الجزيرة إلى الصحراء عند تعرضهم للغزو وغير صحيح فحملة آليوس جالوس التي كانت متجهة نحو مأرب عاصمة سبأ كانت قادمة من جهة الشمال فكان من الطبيعي ان تواجهها جيوش السبئيين في منطقة الجوف (جوف معين) شمال مأرب وهي منطقة تقع في أطراف الصحراء. وأما إخراج الفرس والأحباش والأتراك فلم يكن من خلال معارك حاسمة في قلب الصحراء.

لقد أثبت النير الذي فُرض على هذا الشعب في فترات مختلفة بأنه جزئي ولم يستغرق إلا وقتاً قصيراً لأنه لم يحدث أي تغيير كبير في سلوكهم وأوضاعهم العامة. ولهذا السبب، فإن جزيرة العرب– وبسبب موقعها الفريد أيضاً– لم تتعرض للعواصف العاتية التي اكتسحت الشعوب المجاورة من على وجه الأرض، ولم تترك لنا إلا أسمائها(*). بل إن بعثة محمد (ص) نفسها التي هزت العالم المتحضر كله وغيرته أخفقت في إحداث أي أثر دائم(**). لهذا السبب، فإن تاريخ مجمل الجزيرة العربية أو جزء منها في العصر الحديث على درجة بالغة من الأهمية لأن الصورة التي عليها السكان الآن ستوضح– مع فارق بسيط– كيف كانوا في السابق.

على الرغم من أن كبار شيوخ القبائل الرئيسية لديهم في بعض الأحيان سلطة إصدار أحكام القتل وإعلان الحرب والسلم فإن هذه السلطة تختزل اختزالاً شديداً في كثير من الأحيان بفعل وجهاء القبيلة والمتنفذين فيها. وفي القضايا المدنية والجنائية يقومون بدور الوسيط لا الحكم؛ وتُناقش القضايا المهمة بين جميع أفراد القبيلة. ومع وجود السلطة المحدودة إلى هذه الدرجة، فقد دهشت للعناية الفائقة والمودة الكبيرة اللتين تظهرهما قبائل عُمان لأفرادها. وبهذا الصدد، ثمة فرق شاسع بين هؤلاء البدو وسكان ساحل عُمان وحضر موت.

قبل بضع سنوات، تحطمت سفينتان محملتان بالنفائس على الساحل، شرقي مدينة (رأس الحد) ضمن الحدود التي يقطن فيها بدو (بني بو علي) الذين قاموا مع قبيلة (بني جنبه) المجاورة بنهبهما على الفور. لم يصب أحد من الركاب، لكن كان على ظهر السفينة يهودي مريض. وعندما نُقل إلى الساحل، اهتم به أحد البدو حيث بذل جهداً لنقله إلى (مسقط) لقاء وعد بمنحه بعض الدولارات. ولكن البدوي خشي أن يموت اليهودي في الطريق بسبب اشتداد مرضه وعندئذٍ ستضيع منه الجائزة وربما يلقى بعض المتاعب فقرر

(*) لقد أهلك الله عاداً وثمود كما بادت طَسْم وجديس والعماليق وجرهم الأولى وتلك في مجموعها تسمى العرب البائدة.

(**) هذا القول الذي يروج له المؤلف هنا الذي يصف سكان الجزيرة العربية بالجمود وعدم التطور طوال مسيرة التاريخ مجانب للصواب فالجزيرة العربية هي مهد الحضارة الإنسانية ومهبط الوحي الالهي وسكانها أول من حمل راية التوحيد وأثار مشعل الحضارة.

أن يكون بينهما عقد مكتوب. ولما لم يكن في وسع اليهودي أن يكتب فقد غمس أصابعه في الحبر وترك بصمتها على الورقة. وهنا تقدم المقيم البريطاني إلى (صور) وأرسل في طلب شيخ القبيلة الأولى الذي يعيش على بعد مسافة غير قليلة داخل البلاد. إلا أن هذا الشيخ خشي انتقام الإنكليزي الذي كانت سلطته واسعة، إذا ما سار إليه، ومن جهة ثانية ازداد خوفه أكثر إذا ما رفض الذهاب، عندئذٍ قرر الذهاب يرافقه في سفره جميع أفراد قبيلته إلى الساحل. وعند وصولهم إلى هناك، حاول أفراد القبيلة باكين ومتوسلين إقناعه عدم التوجه إلى السفينة بعد أن ساد الانطباع التام لديهم -كما أوضحوا لي- بأن السفينة ستنقله إلى (بومباي) ويودع السجن، كما حدث في السابق. إلا أنه على الرغم من ذلك واصل سيره وحظي باستقبال حار وبعد التوصل إلى اتفاق ألزم نفسه بموجبه، ويقضي بأنه في حالة غرق سفينة وإنقاذ ركابها مستقبلاً، فإنه مسؤول عن جميع ممتلكات أي سفن بريطانية تتحطم على السواحل التابعة لأراضيه. وبعد ذلك أعيد الشيخ إلى اليابسة ثانية. وهنا أصبحت فرحة قبيلته لا توصف بعد أن ظلت قلقة بسبب غيابه. وبعد أن أغدقوا عليه التحيات التي كادت تخنقه، حمله اثنان من رجال القبيلة على أكتافهما وسارا به محتفلين بالنصر.

إن البدو الذين يقطنون حدود عُمان والبدو الذين يقطنون الأراضي الواقعة بين الواحات لم يفقدوا ما يربطهم بحياة التجوال التي تميزهم في أجزاء أخرى من الجزيرة العربية. صحيح أن هؤلاء البدو يعترفون بسلطة الإمام لأن زعمائهم يحصلون على هداياه من خلال هذا الاعتراف ولا يمكن الحصول على أي شيء إذا ما اتبعوا أسلوباً آخر، إلا أن الطاعة التي تقدم له لا تتجاوز تلك الطاعة التي يقدمها العديد من صغار الشيوخ إلى الشيخ الأكبر أو ما يسمى «شيخ المشايخ». فهو يستطيع الحصول أثناء الحرب على خدمات الطبقة التي تمتهن الزراعة. أما في زمن السلم، فإنهم يواصلون، دون تدخل منه، ممارسة عاداتهم البدوية والرعوية. ولما كان الأئمة يدركون السلطة التي يمارسونها على البدو إذا ما استقر هؤلاء في القرى والمدن أو إذا ما تحول اهتمامهم إلى المهن الزراعية، فإنهم قدموا كل تشجيع ممكن لإرغامهم على تغيير عاداتهم، وقد نجحوا في ذلك إلى حد ما.

إن الهواء غير الصحي والطعام غير المنتظم وغير ذلك من الأسباب الأخرى هي التي

تزيد من عدد الوفيات داخل المدن في حين أن العمال الزراعيين الذين يعملون في الواحات ليسوا بنفس الدرجة من الصحة التي يتمتع بها سكان الصحراء الأشداء. ولأجل التعويض عن هذه النواقص، لابد من الاستمرار بالهجرة، وإذا ما أخفقت هذه، كما حدث في السنوات الأخيرة، فإن بقعاً كبيرة من الأرضي الزراعية باتت مهملة. وقد ذُكرت لي أمثلة عديدة عن أشخاص انتقلوا من حالة الرعي إلى حالة الزراعة، إلا أنهم، رغم ذلك، لم يستطيعوا تماماً نسيان عاداتهم البدوية، وبعد إقامة أمدها العديد من السنوات في الواحات، غالباً ما يهربون إلى الصحراء ثانية. وتقدم تسهيلات للراغبين في تقديم خدماتهم في زراعة الأرض في عُمان، وهو ما لا يتوفر في غيرها من أجزاء الجزيرة العربية، طالما أنهم لا يصلون حد الفقر المدقع ولا تقضي عليهم الضرائب الفادحة.

في أثناء سرد هذه الرحلات التي قمت بها، أتيت على ذكر بدو (بني بو حسن) و(بني بو علي) و(بني جنبه)، ولم يبق إلا أن أذكر شيئاً عن بعض القبائل الأخرى. تتألف قبيلة (بنو غافر) من ثمانمائة رجل وتشكل مع اليمانية واليعاربة أقدم القبائل العُمانية. وتفتخر القبيلة الأخيرة بأنها تنحدر من (قريش) في (مكة المكرمة) أما الغافريون فأصلهم من (نجد) حيث لا تزال جذورهم موجودة فيها. وفي القرن السابع عشر تبوأ أحد أبناء القبيلة العرش في (عُمان)، أما زعيمهم الحالي فهو (Massu) (مسلّم)(*) فلا يزال يرفض الاعتراف بسيادة (السيد سعيد). وقد أشرت فيما سبق إلى أنه يقيم في قلعة بالقرب من (منح) حيث يقوم من هناك بإزعاج المناطق المحيطة. أما قبيلة (بني بو حسن) فيبلغ عدد رجالها قرابة الألف، وهم يعيشون في المدن، لكنهم يرعون جمالهم ويشكلون مع (جنبة) و(Meyun) و(بني قتب) وسيلة النقل في عُمان يقوم نساء وعبيد قبيلة بني بو حسن بحراثة الأرض بين الفينة والفينة في حين يرى الرجال أن ذلك العمل إهانة لهم إذا ما قاموا به. أما البدو الذين يعيشون في الصحراء الغربية العظمى فليست لديهم بيوت ولا خيام، بل يعيشون تحت ظلال الأشجار.

ليس من الأمور الواجب اتباعها هنا أن يعمل الابن في نفس مهنة أبيه. فالابن قد يعيش

(*) كذا في الأصل الإنجليزي ولعله (مسعود).

في بعض الأحيان في المدينة، والأب في الصحراء. لكن مهما طال استقرارهما في هاتين البقعتين فإنهما لا ينسيان القبيلة التي ولدا فيها. وفي أثناء الإقامة المؤقتة التي يقضيها البدو في (مسقط) أو غيرها من المدن، فإن هؤلاء البدو ينزلون عند أقربائهم ويأكلون معهم.

وهكذا هو حال القبائل الرئيسة في (عُمان). وقد تعرفت إلى أسماء وأعداد ما يربو على المائة قبيلة، لكن طالما أن الاختلاف ينحصر في الاسم والعدد، فإنه لن يكون مثيراً للاهتمام ولا للمتعة أن أسرد مجرد هذه الأسماء. ويحكم كل قبيلة من هذه القبائل، إلى حد ما، شيخها الخاص بها، وتتصرف القبيلة في المناسبات الاعتيادية كمجموعة مدنية مستقلة عن جيرانها. لكن القبائل الأصغر حجما تقع تحت تأثير القبائل الأكبر منها. ومع هذا، فإن هذا التحالف معلق بخيط رفيع جداً تكفي لقطعه أتفه الأشياء. وإذا ما شعر البدو بعدم الرضا عن شيخهم، فإنهم يخرجون عن حمايته وينشدون حماية شيخ آخر ومن المحتمل جداً أن يكون هذا خصماً له. وهكذا، فإن أعدادهم وقوتهم في حالة تغير مستمر. وقد يؤدي سوء إدارة شخص واحد إلى اقتصار سلطته على جزء قليل من القبيلة بعد أن كانت تمتد لتشمل القبيلة القوية برمتها. وهذا هو أحد المظاهر الرئيسية في حكومة الشيخ التي يدينون بقدر كبير من حريتهم لها. وبسبب تضارب مصالحهم، وحبهم الموروث للخصام، فهم عموماً في حالة عداء مع أحد ما، وإذا وجدت إحدى القبائل نفسها لا تستطيع الاحتفاظ بموقعها، فإنها تتحد مع قبيلة أخرى، أو مع العديد من القبائل. هذه الأمور الشاذة يسيطر عليها إلى حد ما ذلك النظام الذي يجعل كل قبيلة خاضعة لا لإمام واحد حسب، بل للعديد من القبائل الأخرى أيضاً. وفي الحالات التي يعانون منها بسبب سلوك جائر ويكون احتجاجهم لا طائل من ورائه، فإنهم لا يترددون في الانتقام لما لحق بهم من ظلم باللجوء إلى السيف. غير أن هذه الحروب ليست مهلكة ولا طويلة الأمد. فثمن الدماء، الذي تكرهه مشاعرنا، يبدو أن له فوائده هو الآخر، حيث يبدو أن حياة الناس ذات قيمة كبيرة لا مبرر لإزهاقها على نحو طائش عندما يبدأ التعويض، بعد هذه المواجهات، عن حياة من يلقى حتفه. كما أن موت بضعة أفراد قلما يُخفِق في إعادة الطرف المسيء إلى صوابه.

وهكذا، فهم يعالجون قضاياهم بأنفسهم. أما إذا أثّر غزو القبائل الداخلية، أو أي طرف

آخر على سبيل المثال، في أمن ومصلحة المقاطعة العامة، فإن الجميع، البدو الرحل والذين يعملون في الزراعة يتحدون بقوة لمجابهته. وبمثل هذه الوحدة حافظ هذا القوم المعزول على استقلاله منذ العصر المبكر الذي استقروا فيه أول مرة في هذا الإقليم وحتى يومنا هذا.

إن التفاصيل التي بينتها عن بدو قبيلة (بني بو علي) تشير إلى ارتباطهم الوثيق بقبيلتهم، والى تضحيتهم بحياتهم دفاعاً عن سمعتها. إننا إذا قارنا شخصية البدوي بشخصية جيرانه فإنه يتفوق عليهم كثيراً، فوطنيته واستقلاله الطبيعي يجعلانه يسمو فوق الفارسي الذي لا يعدو أن يكون سوى عبد منمق يثبط طاقاته الاستبداد. كما أن قوته البدنية الفائقة وصلابته وشجاعته تضعه أمام الهندي الهادئ والمعتدل الضعيف. إن العربي الصحراوي يعرف هذا في سلوكه وحديثه ويفصح عنه من خلالهما. وهو يعتقد أنه أفضل الأجناس البشرية وأنقاها. وبسبب رغبته في إطلاق العنان لمشاعره تراه يفضل براريه على الراحة النسبية للسكن في المدن. وعلى الرغم من نشوب الخلافات باستمرار بين العرب، التي يصحبها التصرف العنيف والإيماءات الجسدية، فإنهم لا يتفوهون بتلك النعوت المقرفة المألوفة جداً بين سكان الهند وبلاد فارس. إن مفردات العرب بسيطة ورجولية: وإذا أراد أن يطلق عبارات تأنيب ضد خصمه وشرفه وضيافته، أو ضد قبيلته، فإن أي شيء في دمه لن يكفر عن الإهانة.

وباستثناء (صحار)، التي كانت تحت سيطرة زعيم آخر لبضع سنوات، فإن مجمل (عُمان) شهدت فيما مضى من الزمن انتقال السلطة من إمام إلى آخر. لكن في سنة (1829) تخلصت (شناص) والموانئ الواقعة إلى الشمال منها، من النير. وإن عادت الأولى إلى سلطته وسمحت قلعتها بدخول مجموعة من الجنود البلوش التابعين للامام، فإن الأجزاء الأخرى لا تزال، إلى حد ما مستقلة عنه.

لم تثر الأشكال المختلفة للحكومة في الجزيرة العربية اهتماماً ونقاشاً في أوروبا أكثر مما أثارته حكومة الإمام التي يمكن مقارنتها بحكومة البابا من حيث ربطها بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية. وقد وصف (نيبور) وصفاً دقيقاً لدى زيارته الساحل سنة (1762) دستور حكومة (صنعاء)، إلا أن دستور حكومة أمير (مسقط) يختلف في العديد من

النواحي الجوهرية. وهكذا فالحكومة الأولى تحكم من خلال تدخل ما يعرف باسم الديوان الذي يفيد كثيراً في ضبط سلطته وتقليص صلاحياته. أما في (مسقط) وعلى الرغم من أن الأمير قانع في ترك النظر في الدعاوى الخاصة بالقضايا المدنية إلى قرار القاضي، فإنه في مثل هذه الحالات التي تتطلب تدخله، يمتلك ممارسة إرادته الحرة تماماً.

والحكم الذي يمارس حالياً على مقاطعات (عُمان) والخاضعة لتبدل إمام (مسقط) ربما كان أكثر اعتدالاً من أي حكم آخر في الجزيرة العربية أو أي سلالة وطنية في الشرق.

لكن بالرغم من كل قدرات الإمام، فإن حكومته تعرضت في أكثر من مناسبة لأعظم المخاطر. فقد كان أقرباؤه المستاءون دوماً والمتطلعون باستمرار إلى أي مسوغ لإقرار حبهم الموروث للنزاع، يتحينون الفرص عندما يغيب في (زنجبار) لتطبيق ما يراودهم من أفكار. وقد لوحظ تواً انفصال (صحار) والمقاطعات الشمالية: في سنة (1829) استولت جماعة يتزعمها ابن عمه على مدينة (مسقط)(*)، إلا أن الحكومة البريطانية بعثت برسالة على الفور إلى الإمام تخبره فيها بما يدور، وأنها على استعداد مع سفنها ورجالها لمساعدته في استعادتها. وكان إعلان هذا البيان كافياً لوقف تقدم المتمردين واستسلم قادتهم لدى وصول الإمام وطلبوا منه الرحمة. أعتقد أن سجن ابن عم الإمام مدة أسبوع كان يمثل أقسى عقاب يوقعه بأي شخص. وتبدو هذه الأمور الشاذة لصيقة بالحكومات الإسلامية والشرقية(**). فما يكاد الطفل يكبر حتى يتآمر على والده. ولما كان تعدد الزوجات يؤدي إلى إثارة الفوضى فيما يخص نظام الوراثة، الذي هو نظام موروث اسميا في هذا الجزء كما في أجزاء أخرى، فإن المدعين المتنافسين ينشدون من خلال الدسائس إقامة حجتهم وتعزيزها منذ فترة مبكرة وقبل أن يموت الأمير الحاكم. وما إن يموت هذا الأمير حتى تنشأ حالة عامة من النزاع والصراع. ويقوم البدو بتأجير أنفسهم لمختلف الجماعات ويستمر النزاع حتى يفوز بالجائزة من هو أكثر مهارة وقوة من منافسيه. وبعد ذلك يتم تعويض

(*) كذا في الأصل ولعله يشير إلى ثورة حمود بن عزان وهجومه على مسقط عام 1831.

(**) هذا إلصاق شاذ من المؤلف دفعه إليه تعصبه العرقي والديني ومن يستقري تاريخ السلالات التي حكمت أوروبا قديماً يجد ما هو أقسى وأشد.

أصدقاء القتلى وتعود الأمور إلى مجراها الطبيعي. وعند موت الإمام الحالي، سيتنافس على الحكم، على الأرجح، ابن أخيه (سعيد محمد)(*) وولده (السيد هلال)(**)، ويقال إنه يفضل الأول على الثاني. وعلى الإمام الحاكم مواجهة صعوبة أخرى. فقد قُسّمت (عُمان) سابقا بين مختلف الشيوخ الذين تؤثر فيهم المصالح المتضاربة وغالبا ما تتعرض سلطة الأمير إلى التحدي. وقد عالج (السيد سعيد) إلى حد ما هذا الخلل بأن منح هذه الحكومات لضباطه عندما باتت شاغرة، وذلك مكافأة منه على خدماتهم العسكرية. لكن في بلد مثل الجزيرة العربية حيث يكون عمر الإنسان متناهياً في القصر، والصعوبات التي يواجهها بالغة الشدة، فإن هذا الإنسان لا يستطيع تأسيس مبدأ ثابت ودائم للحكومة. لكن على الرغم من ذلك، فإن هذا الأمير العظيم، بما لديه من وسائل غير كاملة، قد أنجز أكثر مما يمكن توقعه منه. ولو سانده في ذلك جنود كفء بدلاً من الجنود اللا مبالين الموجودين في الجزيرة العربية، فإن حياته كان من شأنها أن تكون بلا حدود. غير أن افتقار هؤلاء إلى الشجاعة أدى في بعض الأحيان إلى إلحاق هزائم ساحقة به.

لقد عززت سياسته المتنورة الثروة التجارية لمسقط ورفعت من شأنها. كما أنه زاد بمقدار يزيد عن الضعف مساحة الأراضي التي كان يملكها أجداده على ساحل أفريقيا. وفيما خلا الانتخاب العام للإمام من قبل الشيوخ والعلماء فإن الخطاب الديني الذي يلقيه الإمام وقسمه الذي يمتنع فيه عن ركوب البحر يكفيان لانتخابه. ولا توجد أي مراسيم أخرى لتنصيبه. وبلاطه صغير الحجم ويخلو من الأبهة، واللقب الذي يُخاطب به هو «سيدنا» والذين يقتربون منه يحيونه بتقبيل ظاهر كفه.

(*) كذا ولعل صوابه محمد بن سالم وكان نائبه على مسقط أثناء غيابه في زنجبار في تلك الفترة.

(**) توفي قبل أبيه وكانت وفاته بعدن عام 1851م وهو في طريقه لأداء فريضة الحج.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثالث والعشرون

النظام القضائي - أسرة الإمام

يضطلع القضاة بحكم النظام القضائي في (مسقط) على كل الجرائم الثانوية في حين يبت الإمام في الجرائم الأكثر خطورة. وعلى الرغم من أن سلطة الإمام في كل قضية سلطة مطلقة، إلا أن نفوره من سفك الدماء البشرية قد يشكل درساً للحكام الأكثر تمدناً. ففي جريمة القتل، القتل وحده، تكون العقوبة هي الإعدام. وفي المدن البعيدة وجد (السيد سعيد) أن إلغاء العادة الدموية غير عملي (وهو ما موجود في بقية أجزاء الجزيرة العربية)، حيث يقوم أهل المقتول بالرد بالمثل أما على القاتل أو أقربائه. إلا أن هذه المنازعات ممنوعة منعاً باتاً في (مسقط). ولكن تقع بعض هذه الأحداث على الرغم من يقظة الإمام، وعندئذٍ يسمح لأقرباء المقتول، كما هو الحال في بلاد فارس، بقبول التعويض (الدية) أو المطالبة بدم القاتل. وفي (صور) شاهدت رجلاً عجوزاً يتراوح عمره بين السبعين والثمانين سنة يحمل دوماً بندقية محشوة على استعداد للانطلاق. وعندما استفسرت عن السبب، قيل لي إنه حالياً في حالة نزاع من هذا النوع. ومن أبرز الصفات في شخصية العربي هي أن العرب لدى متابعتهم مثل هذه المنازعات العائلية إنما يتركون السنوات تمضي في الغالب قبل أن تحين الفرصة لهم لتوجيه انتقامهم ضد الأشخاص المعنيين. ويبدو غريباً لأنه في الوقت الذي يشكل فيه التسامح الديني أحد أبرز ملامح الحكومة، يُسمح للمسلم بتسوية قضية موت أحد الهندوس (البانيان) بدفع مبلغ من المال خدمة للمسجد(*).

تُقسم عُمان إلى مناطق ذات أسماء مختلفة وينطبق الشيء نفسه على سكانها. ويحكم هذه المناطق، كما أسلفت الشيوخ، ويكونون مسؤولين أمام الإمام في حكم هذه المناطق. ويقر جميع هؤلاء الزعماء بسلطة الإمام العليا. وفي حالة حدوث تمرد أو عدم إرسال الرجال إذا ما طلب منهم ذلك، فإن العقوبة تكون السجن ومصادرة الأملاك. ويبدو (السيد

(*) كذا ولا صحة لهذا القول فدية المسلم وغير المسلم تسلم لأصحاب الدم.

سعيد) راغباً جداً في استرضاء احترام هؤلاء الشيوخ له بالهدايا وتأمين تعاونهم في المجالات العسكرية وسيادة الأمن والنظام في مقاطعته بدلاً من جعلهم يتحاملون عليه شخصياً أو على الإجراءات التي يتخذها. وفي حين يوجه على هذا النحو اهتمام الإمام لمصلحة بلاده عموماً، فإن التفاصيل يتركها لهؤلاء الزعماء كما أن السلطة التي يمتلكونها في مختلف المناطق لا تزال سلطة واسعة جداً. وهي تمتد على الأشخاص وممتلكات الناس ولكنها لا تشمل حياتهم. وحق الاستئناف أمام الإمام مكفول في كل قضية، كما أن قراره قطعي وملزم. لهذا السبب فإن أي شيخ سيجد صعوبة بالغة في سوء استخدام سلطته، كما أن الأمن الشخصي علاوة على حقوق الملكية الفردية موضع احترام من هؤلاء الشيوخ. ولا يوجد عند هؤلاء الشيوخ رجال شرطة لحفظ النظام، غير أن المستخدمين العسكريين لهؤلاء الزعماء يوظفون عادة لتنفيذ الإجراءات الضرورية. ولما كان الإمام يُبقي على قوة صغيرة دائمية، فإن، شيوخ المناطق يوظفون نفس الأشخاص لتنفيذ أي أمر يتلقونه من الإمام. ويمارس صغار الشيوخ سلطة مماثلة على محمياتهم، مثلما يمارسها الأب على أسرته. وفيما خلا أحكام القرآن الكريم، فهم لا يملكون أي مجموعة منتظمة من القوانين. وعندما تطبق هذه الأحكام تطبيقاً حرفياً تبدو ملائمة جداً، وعلى نحو يدعو إلى العجب، لتلبي القضايا الأكثر شيوعاً في مثل هذه البلاد. لكن ليس من الأمور غير المألوفة أن ينتقم الناس إذا ما تعرضت سمعتهم للتشويه. فالزاني قد يقتل على يد الأسرة التي تلطخت سمعتها إذا ما قُبض عليه متلبساً بالجرم المشهود أو حتى ضمن حدود سكناه. كما قد توقع عقوبة الموت باللص إذا ما قُبض عليه في نفس الظروف. وليس هناك أي تأخير في إدارة العدالة، إذ يتوجه الطرفان عند حدوث أي نزاع إلى القاضي الذي يصغي بصبر إلى كل طرف ويصدر قراره على الفور. وفي القضايا الجنائية، يقبض ضباط محددون يرتبطون بالبلاط على المجرم وينفذ الحكم بحقه حال صدوره إلا إذا كانت الجريمة ذات طبيعة تستدعي الاتصال بالإمام. وعلى الرغم من عادات الناس في النهب، إلا أنهم ينفرون كل النفور من السرقات التافهة. وإذا ما ارتكب الشخص السرقة للمرة الثانية أو الثالثة تقطع يده.

تتكون مصادر دخل حكومة الإمام من خدمات الناس وتجمع العوائد في (مسقط). ولا

تشكل ما تنتجه الأرض أي مصدر من مصادر الدخل له. والحق أن (مسقط) هي الميناء العُماني الوحيد الذي يحصل منه الإمام على الدخل، إذْ لا يرده دولار واحد من المناطق الداخلية. على العكس من ذلك، فإنه يضطر عند مكوثه في الجزيرة العربية إلى صرف مبالغ كبيرة يقدمها على شكل هدايا لشيوخ مختلف المدن والواحات.. وتتأتى العائدات المالية في (مسقط) و(مطرح) من الرسوم حسب، لا تفرض أي ضرائب أخرى على الدور أو الأشخاص أو الأملاك تفرض جباية حالية على الهندوسي (البانياني) لقاء التزامه بزراعة الأرض وتقدر بمائة وخمسة وستين ألف دولار. ويتلقى الإمام من السواحل الأفريقية والفارسية مائتي ألف دولار فيصل المجموع الكلي إلى ثلاثمائة وستين ألف دولار. ونفقات أسرة الإمام ليست كبيرة، لكنه ينفق بسخاء على سفنه وعلى الهدايا التي يمنحها. وسخاؤه في توزيع الهدايا يضاهي القصص التي تُروى عن سخاء الخلفاء أيام زمان. والإمام يعيل كل أقربائه، والهدايا التي يقدمها للغرباء الذين يزورونه مدهشة تماماً. وقلما يسمح لأفقر عربي بالرحيل دون تلقي مبلغ رمزي يجعله يتذكر الزيارة. والبدو الذين يأتون إلى (مسقط) يتناولون طعامهم على نفقته، وعند رحيلهم يُزودون بكل ما يستطيعون حمله من مواد غذائية معهم. وكنت ذات يوم حاضراً عندما دخل إلى غرفته رجل أوكلت له مهمة العناية بجياده، وذكّر سموه بأنه عندما كان يعتني بالجياد في مساء اليوم السابق لم يتلق أي هدية. أصغى الإمام لقصته ثم أمر وكيل خزانته بصرف عشرة دولارات له. إن مثل هذا الكرم ينظر إليه العرب على أنه أعظم فضيلة يمكن لأمير أن يمتلكها، في حين ينظرون إلى البخل بكراهية شديدة. وعندما يتحدثون عن (السيد سعيد) الذي أكسبه سخاؤه لقب (عمر الثاني) فإنهم يلاحظون بأنه لا يرفض أي طلب لأحد. كما يرد الهدية بما يزيد عن قيمتها بمائة ضعف إذا ما قدمت له من أحد الزعماء المعروفين في الشرق. وإذا ما أنجز أي عمل بناء على أوامره، فإنه يكافئ الفاعل بنسبة أكبر مما يدفعها أي فرد.

القوة الدائمة الوحيدة التي يحتفظ بها الإمام في (مسقط) عبارة عن قوة صغيرة تتألف من أربعمائة رجل مجهزين بنفس أجهزة السباهيين في الهند. وبعض هؤلاء الرجال من عبيده الخاصين. لكن في الحالات الضرورية، يستطيع أن يجمع من جنوب عُمان جيشاً

في خلال ثلاثة أيام قوامه عشرة آلاف رجل ومن ثم في وسعه مضاعفة العدد ثلاثة أضعاف وذلك بموافقة العديد من شيوخ البدو وأتباعهم المستعدين للانضمام طمعاً بالغنائم والهدايا التي يحصلون عليها منه بين حين وآخر.

ختاماً، لا أستطيع إلا القول إن في الإمكان ملاحظة وجود تشابه كبير في بعض الملامح الرئيسية بين حكومة (عُمان) الحالية والدول الإقطاعية القديمة في أوروبا فلدينا هناك في شخص الإمام ممثل السلطة الملكية. أما الزعماء الذين أوكلت إليهم المناصب الحكومية مكافأة منه لهم لقاء القتال تحت رايته عندما يتم استدعائهم، فيشبهون البارونات الإقطاعيين. وفي حين يُعفى السكان عموماً من جميع الضرائب، فإنهم يملكون الأرض بنفس شروط امتلاك الأرض التي كانت سائدة قديماً عندما كان الشخص يُقطعه السيد الإقطاعي أرضاً لقاء تعهده بتقديم المساعدة العسكرية له. وهناك قلعة أو برج يرتبط بكل من هذه الحكومات، ومتى ما كانت سلطة الإمام لا تحظى بالدعم الكامل، فإن الزعماء الذين يمتلكون ناصية الحكم، مثل البارونات، يستدعون من حولهم أتباعهم ويعلنون تحديهم له صراحة.

وبسبب عادات التجوال عند البدو، يصعب تماماً تقدير عدد سكان هذا الإقليم. إلا أنني في أثناء إقامتي هناك، بذلت جهوداً مضنية في الحصول على أدق رقم ممكن. إن المنطقة الجنوبية في عُمان قليلة السكان ولا يتجاوز عددهم خمسين ألفاً بما في ذلك النساء والأطفال. أما المناطق الشمالية فأكثر كثافة في السكان وربما يقدر عددهم بمائتي وخمسين ألف نسمة بما في ذلك (مسقط) و(مطرح).

أما ساحل الباطنة فتكثر على امتداده المدن والقرى. وفي وسط الوديان، وحيثما تسمح الأرض بوجود بقطعة صالحة للحراثة، توجد قرى صغيرة تحتوي كل واحدة منها ما بين عشرة إلى عشرين بيتٍ.

وباستثناء مدينة (الرستاق) الكثيفة السكان والقوية البنيان لا توجد أي مدن كبيرة في الداخل. والكثير من المدن التي تظهر في خرائطنا بمثابة مدن كبيرة استناداً إلى المعلومات

المحلية، والتي عُدها (نيبور) نفسه إمارات، لا تعدُّ أكثر أهمية من القرى أو القصبات. وتشير بقايا الدور المهدمة وآثار السدود القديمة إلى أنها كانت كثيفة السكان والزراعة. لكن حيثما انعدمت المياه، فإن استمرار الجفاف يُحوّل الأرض إلى صحراء مهما كانت خصبة قبل ذلك.

إن جميع المدن تقع الآن إما داخل الواحات أو بالقرب منها. وقد أتينا على وصفها ووصف سكانها مفصلاً مما يجعل العودة إلى ذكرها أمراً لا يثير متعة القارئ ولا اهتمامه. ولكن عند إبراز أي جانب أو إضافة أي معلومات أخرى، فقد لجأت إلى إضافة وصف موجز على وجه الخارطة.

كما أوضحت على الخارطة أيضاً اتجاه رحلاتي العديدة. ولإظهار درجة الثقة التي يمكن أن تعطى لها، فإن من الضروري التوضيح بأن كل المدن الرئيسية والمدن الصغيرة والقرى والواحات قد ثُبتت من خلال المشاهدة الفعلية. وفيما عدا مدينة (الرستاق) التي حدد مكانها من خلال اتجاه البوصلة و(البريمي)، محطة الوهابيين المتقدمة، فإنه لا يوجد موقع مهم في عُمان لم يتقرر موقعه الجغرافي على نحو صحيح. وهنا ربما يُسمح لي بالقول بأنه قد حيل بيني وبين الوصول إلى (الدرعية) بسبب ظروف غير مؤاتية. لكن بإضافة وصف لإقليم تساوي مساحته مساحة بلاد الشام، للمعلومات الشحيحة التي كنا نملكها فيما مضى من الزمان عن جزيرة العرب، فإنني أعتقد بأن الأشهر العديدة التي قضيتها هناك لم تكن شهوراً بلا عمل أو بلا نتيجة.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الرابع والعشرون

المعمار – موجز لتاريخ عمان

باستثناء (الرستاق) و(مسقط) المشيدتين بالحجارة، فإن البيوت في جميع أرجاء عُمان مبنية أما بالآجر المجفف تحت أشعة الشمس أو بالحجارة غير المهندمة التي استعمل الطين لتثبيتها. وعلى هذا الأساس فهي مبان قلما تكون مرغوبة، كما أن زخة مطر قوية تستمر بعض الوقت كافية لان تسوي بالأرض العديد من هذه المباني. وللوقاية من الحوادث يستخدم السكان مادة رابطة مؤلفة من الطين والقش والحصو وتسوى وتثبت باليد فقط. البيوت الكبيرة الحجم تكون مربعة الشكل ومشيدة من حول فناء مكشوف. وحول كل طابق ثمة ممر ينفتح من جوانبه على العديد من الحجرات. وتكون هذه الحجرات فسيحة الأرجاء مرتفعة وبسقوف خشبية ذات تصاميم مرسومة رسماً فجاً. أما الجدران البيض، فمكونة من القصب وعلقت عليها سروج جيادهم وإبلهم. وتُصنع الأرضيات من الطين الذي تتم تسويته وتقويته بمدماة ومن ثم تغطى بالحصران. ولا يشاهد أي أثاث في غرفهم، ويتناولون طعامهم فوق سجادة تفرش لهذا الغرض. ولهذه البيوت باب واحد ومحاطة بسور وتبدو مصممة كأماكن دفاعية. ويسكن الفقراء في بيوت مشيدة بنفس مواد البناء وتتكون من غرفتين مربعتين الواحدة فوق الأخرى، تكون الغرفه العلوية للحريم أما السفلية فلاستقبال الزوار.

تعد (مسقط) سوقاً عظيمة للرقيق. وكل ما تحتاجه سواحل الخليج العربي وبغداد والبصرة من رقيق يتم شراؤه من هذا المكان. وكان الأئمة فيما مضى من الزمن منهمكين في هذه التجارة ويحققون عوائد مالية سنوية تقدر بستين ألف دولار. أي ما يقرب من ثلاثة عشر ألف باون. إلا أن (السيد سعيد) تخلي عن تجارة الرقيق على نحو لم يسبق له مثيل في محاولة منه لاسترضاء حكومتنا التي كانت آنذاك جادة في محاولاتها للقضاء على هذه التجارة. ولم يتلق شيئاً لقاء ذلك. فهل هذا سخاء؟ أهو صحيح؟ لقد سبق أن قدمنا لأسبانيا وهي حكومة

مسيحية مائتي ألف باون لقاء مثل هذا التخلي عن تجارة العبيد، كما أننا ألغينا بضعة ملايين من ديونها. وإنني أؤمل أننا قد قدمنا للأمير المسلم شكرنا في الأقل، على الرغم من أنني لم أسمع به البتة، الأمير المسلم الذي يعتنق ديانة تُجيز الرق علانية إن لم تكن تأمر به فعلياً(*). إننا لا ينبغي لنا أن ندع إنكلترا يضاهيها في الكرم حاكم بقعة نائية من جزيرة العرب، إنكلترا التي وقفت حتى الآن في الطليعة في قضية يمكن أن يقال بأنها رفعت دون الآخرين من قدر العصر الذي نعيش فيه ووسمته بكتابة هي من جوهر المسيحية(**).

وسمعت أن قرابة أربعة آلاف من العبيد من كلا الجنسين ومن مختلف الأعمار يتم بيعهم سنوياً في (مسقط). ويمكن تقسيم هؤلاء العبيد إلى ثلاث فئات: الفئة الأولى ويطلق عليها (Towaylee) ومصدرها ساحل زنجبار ويعرف عبيد هذه الفئة من أسنانهم التي يبردونها حتى لتصبح مدببة في بعض الأحيان أو تكون كالمنشار. وتوجد أيضاً في وجناتهم حزوزٌ عمودية يصنعونها بسكين جيب عندما يكون أحدهم طفلا في السن الخامسة أو السادسة. والندب التي يحملونها تدل على القبيلة التي ينتمون إليها. ويبلغ سعر العبد من هذه الفئة ما بين أربعين إلى ستين دولار. والفئة الثانية يطلق عليها (Nabi)(***) وهؤلاء العبيد يؤتى بهم من أعماق أفريقيا ويقال أنهم محبون للانتقام وغدّارون. والبدو في هذه المنطقة، كما في الحجاز، هم المشترون الوحيدون. أما الفئة الثالثة المسماة بعبيد (الجالا) فيؤتى بهم من الحبشة ويكون ثمنهم كبيراً، ويتراوح بين مائة إلى مائة وخمسين دولار. ويكون سعر الإناث مقارباً لسعر الذكور. كما أن قوة الذكور وتمتعهم بالصحة والمزاج الرائق تعد زينة تقابلهم زينة الإناث وجمالهن. كما يأتون بالمخصيّين من (دارفور) ويبلغ سعر الواحد ما بين مائتي إلى ثلاثمائة دولار، وغالبا ما يشتريهم الفرس. ومما يبعث على قدر من الراحة أن نعلم بأنه في نفس الوقت الذي نصبح فيه مدركين لمدى انتشار تجارة العبيد في هذه الأقطار، فإن هؤلاء العبيد يلقون معاملة طيبة جداً. ففي الجزيرة العربية، لا يوجد سوى فارق ضئيل بين العبودية والاسترقاق، إذ قلما يعد هذا الفارق مهماً

(*) هكذا يبدي المؤلف جهله بموقف الإسلام من الرق.

(**) يفصح المؤلف هنا عن شخصيته كمسيحي متعصب.

(***) كذا في الأصل ولعل صوابه (النوبه) من كردفان.

لأن العبد في وسعه أن يذهب إلى القاضي ويطالب بأن يتم بيعه علناً إذا كان غير راض عن سيده. غير أن هذا الشيء لا يحدث إلا فيما ندر، لان سلطة السيد تمتد لتشمل بيع العبيد ومبادلتهم ومعاقبتهم. إلا أنه لا يستطيع أن يوقع العقاب بهم دون محاكمة علنية حتى إذا ارتكبوا جرائم يرى القانون أن عقوبتها الموت. وإذا زود السيد العبد بزوجة وحملت منه وأنجبت البنين والبنات، فإن الزوجة والأولاد يباعون مع الأب. وإذا ما توفي السيد، فيصبح العبيد أحراراً. وتحرم الشريعة الإسلامية أن يكون العبد مسلماً. لكن العبد الذي يؤمن بالديانة الإسلامية وكان معتوقاً من العبودية قبل ذلك، في وسعه أن ينتقل إلى سيد آخر بملء إرادته. والعرب الميسورون يملكون عبدين أو أكثر لمساعدتهم في تدبير شؤون منازلهم إضافة إلى عبيد آخرين يكونون في موضع ثقة. وفي كلتا الحالتين يتلقون درجة كبيرة من الاعتبار والعطف لا يحظى بها الخدم في أوروبا. وعندما يتم شراء العبيد وهم صغار السن، تتم تنشئتهم على وفق الديانة الإسلامية ويعلمون القراءة والكتابة وعند وصولهم سناً معينة توكل إليهم مهمة قيادة المراكب والقوارب وتودع لديهم حمولات باهظة الثمن.

في أثناء إقامتي في عُمان، بذلت محاولات كثيرة للحصول على معلومات يمكن أن تساعدني في رسم صورة تاريخية للإقليم. بيد أن الصعوبات في بلد لا تسجل فيه الأحداث على الورق بالغة جداً. وإنني أقدم خلاصة أبحاثي بالشكل الذي سارت عليه ملاحظاً أن صمت العرب أنفسهم -وهو نتيجة طبيعية لوضعهم الأمي- يمكن أن يُعوّض من خلال الحوليات المتوفرة عند جيرانهم الفرس[1] ففي خلاصة قدمناها في الصفحات الماضية عن المذاهب الدينية الخاصة بهذا الشعب، يستطيع القارئ أن يلاحظ الدوافع التي دفعت بأعداد كبيرة من أتباع النبي (ص) إلى هجرة زعيمهم والاستقرار في عُمان واختيار إمام أو خليفة من بينهم. وقد وقعت هذه الحادثة في أثناء الحروب التي شارك فيها (علي بن أبي طالب) وهو صهر النبي محمد (ص)، وذلك لكي يحتفظ لنفسه بمنصب الخلافة المتنازع عليها. ثم لُقّب هؤلاء بالخوارج، وهو لقب ينطوي على التوبيخ لا تزال الطائفة توصف به(*).

(1) على أي حال، لا أظن أن توقي الشديد إلى النجاح في هذه الأبحاث سيكون ذا نتائج باهرة. فمن خلال ما طرحته أمام القارئ، سيظهر أن تاريخ الإقليم لا ينطوي على شيء، سوى سلسلة من الحروب الصغيرة والنزاعات الداخلية وإن اهتمامنا موزع بعدد الشخصيات التي تظهر على سطح الأحداث مما يجعلنا نفقد الاهتمام بها.

(*) لا تخفى على القارئ ما في هذه الفقرة من أخطاء تنم عن جهل واضح.

وباستثناء الفترة الزمنية القصيرة من حكم البرتغال، ظلت سيادة عُمان بيد أسرة (اليعاربة) الأزديين قرابة مائتين وخمسين سنة(*). وأظن أن من المناسب أن أبدأ بـ (سيف)[1].

طرد هذا الأمير البرتغاليين من (مسقط) سنة (1658) واستولى على زنجبار وعلى عدد من الموانئ على الساحل الأفريقي وعلى بعض موانئ الخليج العربي وعلى ميناء أو ميناءين على ساحل (مكران)، وكذلك على البحرين و(قشم) والعديد من جزر الخليج العربي. وقد خسر أحفاده البحرين التي تخلصت من السيطرة العمانية عند نهاية القرن الماضي، لكنهم احتفظوا بالبقية. وقد خلف (سيف) كل من (سلطان) و(محمد بن ناصر الغافري) و(سيف بن سلطان)(**).

كانت سنوات حكم (سيف) عاصفة وغير سعيدة. وانحرف عن مبادئ الحكومة التي تميزت بها فترات حكم أسلافه. ولم يقهر (سيف) رعاياه حسب، بل سمح لجنوده بنهبهم وإزعاجهم، وفي نفس الوقت غض النظر عن عاداتهم الرخيصة وأدمن شرب الخمر وغير ذلك من العادات الفاسقة، بل حاول أيضاً الاعتداء جنسياً على بنات رعاياه. وحاول أقرباؤه

(*) فترة حكم اليعاربة هي: 1034–1157هـ (1624–1744م) أي أنها امتدت نحو مائة وعشرين عاماً فقط.

(1) هو سيف بن سلطان بن مالك بن بلعرب اليعربي الأزدي القحطاني.

(**) طرد البرتغاليين من مسقط عام 1652م كان على يد سلطان بن سيف الأول (1649–1680م) وفي عهده استمرت الحروب والغارات على البرتغاليين في المحيط الهندي، أما الانتصار على البرتغاليين في زنجبار والساحل الأفريقي الشرقي فقد تم في عهد إبنه سيف بن سلطان الأول الملقب بقيد الأرضي (1692–1711م) وكان الاستيلاء على البحرين وطرد الفرس منها 1717م في عهد سلطان بن سيف الثاني (1711–1718م).

أما كلامه المتعلق بمن خلف سيف فخطأ وصوابه سلطان بن سيف وهي فترة شهدت انقسام أهل عمان بين مؤيد لابن سلطان بن سيف واسمه سيف وكان صغيراً وبين مؤيد لمهنا بن سلطان بن ماجد اليعربي الذي كان زوجاً لابنة الإمام المتوفي (اي سلطان بن سيف) ووقف يعرب بن بلعرب بن سلطان إلى جانب سيف باعتباره وصياً عليه واستولى يعرب على مسقط وقتل مهنا عام 1721م وبويع يعرب بالإمامة (1721–1722م) ثم قام بلعرب بن ناصر (خال سيف بن سلطان) بمحاربة يعرب وخلعه وأقام سيف بن سلطان إماماً (1721–1724م) وانقسمت عمان إلى فرقتين هناوية وغافرية وبويع زعيم الغافرية محمد بن ناصر الغافري إماماً بعد أن قاتل بلعرب بن ناصر (1724–1727م) ثم قُتل محمد بن ناصر الغافري وبعد مقتله بويع لسيف بن سلطان بن أن بلغ سن الحلم لكنه أساء التصرف فعزله العلماء وبايعوا بلعرب بن حمير إماما سنة 1732م أما الغزو الفارسي فقد حدث عام 1737م بناءً على طلب من سيف بن سلطان المعزول ثم نجحت محاولة صلح بين سيف وبلعرب بن حمير حقناً للدماء وتوحيداً للصف في مواجهة الفرس تنازل بموجبه بلعرب بن حمير عن الإمامة لسيف بن سلطان لكن سيف أساء السيرة فتم عزله وتنصيب سلطان بن مرشد اليعربي إماماً سنة 1741م.

ووجهاء قبيلته إعادته إلى جادة الصواب بلا طائل، حتى اجتاحت البلاد كلها فوضى وبات أفراد شعبه ناقمين عليه فكتبوا أخيراً إلى (أحمد بن سعيد) زعيم (صحار) الذي اكتسب لقب أكثر الأمراء حصافة في عُمان. وأوضحوا له أنهم ينوون الإطاحة بـ (سيف) واختيار (سلطان بن مرشد)، أحد أفراد العائلة نفسها، وطلبوا منه الموافقة والتعاون. فرد عليهم (أحمد) بأنه لن يعارض إرادتهم وأضاف بأنه طالما أظهر الأمير الحالي أنه غير جدير بثقتهم، فإنه سيدعم أي شخص يرون أنه ملائم أكثر لخلافته. وقبل أن تصبح المؤامرة جاهزة للتنفيذ عرف (سيف) على نحو ما بعض خيوطها. وفي أول نوبة من نوبات هيجانه أقدم على قتل كل الذين استطاعت أن تصل إليهم يداه، فيما عمد إلى سجن آخرين. إلا أن قلة قليلة تمكنت من الهرب وأعلنت (سلطان بن رشد) إماماً لها. وسرعان ما خضعت (عُمان) كلها لهذا الزعيم وبدأت المناطق الواحدة تلو الأخرى تسقط بيده حتى وجد (سيف) نفسه في نهاية المطاف أسير (مسقط) آخر ما تبقى له من ممتلكات. وهنا قام جنوده الذين لا يزالون موالين له بسبب سماحه لهم عند انهيار سلطته بسرقة السكان ونهبهم، بالتمركز في الحصنين اللذين يسيطران على المدينة فلم يتمكن (سلطان بن مرشد) من التقدم إليها. إلا أن الأخير تمكن من الاستيلاء على المدينة المجاورة (مطرح) ذات المرفأ الواسع. واستطاع من خلال تخفيض الرسوم جذب الكثير من السفن إليه مما دفع (سيف) إلى الاستنجاد بالفرس للحيلولة دون دمار (مسقط) دماراً كاملاً. ولهذا السبب توجه على ظهر إحدى أكبر سفنه إلى (بندر عباس). كان ملك الفرس آنذاك (نادر شاه) قد قام قبل بضعة أشهر على رأس قوة قوامها عشرة آلاف رجل. بمحاولة فاشلة للهجوم على تلك المدينة. فانتهز هذه الفرصة واستجاب لطلبه ووضع قوة بقيادة (تقي خان) تحت تصرفه اسمياً. إلا أن القائد العسكري صدرت له الأوامر الصارمة في نفس الوقت بألاّ يضيع أي فرصة في الاستيلاء على الإقليم كله. عاد (سيف) إلى (مسقط) بعد ذلك في حين رسا الفرس عند (رأس الخيمة) وبعد معارك كثيرة خضع الجزء الأكبر من عُمان لهم، وفي نهاية المطاف تقدموا إلى (مسقط). ولما وجدوا أن جنودهم لم يسمح لهم بدخول حصنيها، دعوا (سيف) إلى وليمة، وبعد أن قدموا له الشراب، سكر حتى فقد رشده وعندئذ وضعوا

توقيعه على أمر مكتوب يطلب من الحاكمين السماح لهم بدخول الحصنين.

ونفذ الأمر دون اعتراض وحصل الفرس بذلك على الحصنين دون أن يضربوا ضربة واحدة. وعندما استفاق الأمير البائس من سكره وجد نفسه وقد غرر به وتراكمت المصائب التي جلبها على نفسه وعلى بلاده ومات بعد بضعة أشهر من شدة الهم. لجأ (سلطان بن مرشد) إلى (صحار) التي لم تكن قد خضعت للفرس بعد، لكنهم بدءوا بالتقدم باتجاهها الآن. لقي الإمام مصرعه في هجمة مفاجئة، إلا أن (أحمد بن سعيد) دافع عن نفسه دفاعاً باسلاً. وبعد حصار دام ثمانية أشهر، اضطر الفرس إلى السماح له باستعادة حكومته شرط الولاء لملكهم. غير أن موت (نادر شاه)، الذي جاء بعد مرور بضع سنوات على هذه الأحداث، دفع العديد من الغزاة إلى العودة إلا بلادهم، وبهذا لم يجد (أحمد) إلا صعوبة قليلة في التخلص من البقية الباقية منهم.

بعد ذلك عقد اجتماعاً لزعماء ووجهاء القبائل وذكرهم بأن حكومة البلاد تنتمي إلى الأسرة العربية ودعاهم إلى تسمية إمام ينحدر من تلك الأسرة وصرّح برغبته في إطاعة أي شخص يرشحونه. وهنا نهض (محمد بن سلطان) من مجلسه وقال إن أي شخص لا يستطيع أن يقدم مطالب أعظم من مطالب ذلك الفرد الذي خلص بلاده من نير الأجانب. ثم أمسك بيد (أحمد) وأعلنه إماماً. فانضم إليه الآخرون وصادق على انتمائه مجموع الناس. إلا أن (أحمد) لم يكن مقدراً له أن يحكم دون صراع. إذ ما أن وصلت أخبار هذا الانتخاب إلى (بلعرب) وهو أحد أقرباء (مرشد) وأمير (جبرين) حتى تقدم لمواجهة الإمام الجديد.

وبعد مناوشات كثيرة، لقي (بلعرب) مصرعه على يد أحد أبناء (أحمد). وكان زواج (أحمد) من إحدى بنات (سيف) يعني أنه تحالف مع السلالة السابقة وأعطى بذلك ذريته حق المطالبة بالسيادة على البلاد.

إن تفاصيل حظوظ ذرية هذا الأمير وقدرها قد لا تبدو جذابة من أول وهلة، لكنني أدخلت هذه التفاصيل لأنها كما تبدو لي تعطينا صورة عن النزاعات اللا متناهية التي استلزمها النظام المحمدي على الحكومات الشرقية

أكثر أمانة من تلك التي يمكن نقلها من خلال أحشد المقالات تعقيداً(*).

عندما توفي (أحمد) ترك وراءه خمسة أبناء وهم (سيف) و(قيس) و(سلطان) و(طالب) و(محمد). كان (قيس) زعيم (صحار) في أثناء حياة والده وعند موته. أما (سيف)(**) الوريث كما يبدو فقد انتخب إماماً لدى وفاة والده، وكان له ابن يدعى (أحمد)(***) وكان هذا أميراً عاقلاً يحسن إدارة شؤون حكومة أبيه. وعندما توفي (أحمد) سادت الفوضى في أرجاء الحكومة واختار زعماء القبائل (سلطان)(****) إماماً. إلا أن هذا لقي مصرعه على أيدي القراصنة القواسم، فوجهوا أنظارهم إلى (قيس) ليكون إماماً. أما (سلطان) فقد ترك ولدين الأكبر وهو (سعيد) الإمام الحالي و(سالم). وكان (بدر) ابن (سيف) قد ترك البلاد وانضم إلى الوهابيين ولكن عند سماعه نبأ وفاة (سلطان) غادر بلدة (Heraiyat)(*****) وأصبح ضيفاً ابني عمه اللذين عاملاه باهتمام كبير واتفق الجميع على البقاء في حالة صداقة وتفاهم. ثم هاجموا (قيس)، وهو عمهم، وردوه إلى مقر ولايته في (صحار). ولكن عندما اتضح أن (بدر) له نفوذ واسع وسط العديد من القبائل العربية، رغبت هذه القبائل في رؤيته وقد اصبح إماماً، بل إنه عقد معاهدة مع الوهابيين التزم فيها بدفع خمسين ألف دولار سنوياً وان تكون عُمان من أملاك زعيمهم. وفي نهاية المطاف تبين أن موته فقط هو الذي سيضمن العرش (للسيد سعيد) وأمنه الشخصي، ودبر مؤامرة لقتله قرب إحدى القرى الصغيرة وتدعى قرية (نمهان)(******) القريبة من (بركاء) على ساحل البحر. ولكن على الرغم من أن (السيد سعيد) تخلص من خصمه الرئيس إلا أنه لم يُترك ليستمتع بعُمان دون

(*) هكذا يقحم المؤلف الدين في مسألة الصراع على السلطة وهي مسألة إنسانية عامة تشترك فيها كل أنظمة الحكم ويشهد بها تاريخ البشرية أجمع ولا علاقة لها بالإسلام.

(**) كذا في الأصل الإنجليزي وصوابه (سعيد).

(***) كذا في الأصل الانجليزي وصوابه (حمد) توفي في عام 1792م.

(****) سلطان بن أحمد بن سعيد. حكم في الفترة (1792–1804م) وهو في رأي بعض المؤرخين أول من حمل لقب (السيد) إذ كان اللقب المعتاد في السابق هو لقب (الإمام).

(*****) كان بدر آنذاك مقيماً بقطر فلعلها بلدة هناك.

(******) كذا في الأصل NAMHAN وصوابه (نعمان).

قتال. فقد كان (بدر) قد اتفق ضمن معاهدة مع (سعود)(*) على أن يحكم الاقليم بوصفه تابعاً لذلك الأمير. وهنا رفض (السيد سعيد) المصادقة على هذه المعاهدة. ونتيجة لذلك، أرسل زعيم الوهابيين قوة من أربعة آلاف رجل بقيادة زعيم محارب يحب المغامرة اسمه (السيد بن مطلق)(**) للتصديق عليها. استمرت مناوشات حربية صغيرة دامت بضع سنوات وكان نجاحها متفاوتاً، حتى أن حظ (السيد سعيد) في إحدى المرات بات سيئاً جداً مما اضطره إلى طلب المساعدة من الفرس، إلا أن موت خصمه العنيد الذي أعقب موت (سعود) وتشرذم الوهابيين بصورة عامة جعله ينعم بالسيطرة على مقاطعاته دون إزعاج.

إنني لا أستطيع أن أختتم الصورة التاريخية الصغيرة دون الإشارة إلى حالة علاقاتنا السياسية مع هذا الأمير. إن مخاوفنا التي طالما راودتنا من احتمال تقدم الروس صوب ممتلكاتنا الهندية قد أرغمتنا على النظر بكل اهتمام إلى مختلف الطرق التي يمكن أن يقتربوا من خلالها إلى هذه الممتلكات. تمتد الحدود الروسية اليوم إلى مسافة مائة وعشرين ميل من منابع نهر الفرات. وكانت أبحاثنا الأخيرة عن هذا النهر قد كشفت بأن عبور جيش على امتداد ضفتيه نحو شواطئ الخليج العربي يمكن تحقيقه دون صعوبات كبيرة. وقد أشير ضمناً هنا، كما في البحر الأحمر، بلا تأمل واسع، بأن عدداً كافياً من السفن لا يمكن الحصول عليه لنقل أي قوة كبيرة إلى الهند. غير أنني أعتقد أن في وسع (السيد سعيد) جمع ما يكفي من وسائل النقل لنقل جيش قوامه عشرين ألف رجل. فقوته البحرية تتألف من أربع فرقاطات ثقيلة اثنتان منها مزودتان بخمسين مدفع، ولديه ثلاث حراقات لكل منها ما بين ثمانية عشر إلى اثنين وعشرين مدفع، إضافة إلى عدد من السفن الحربية الصغيرة. ويستطيع أن يضيف إلى كل هذه القوة، سفنه التجارية. والسفن التي تحمل الراية العربية تتاجر دوماً مع هذا الميناء، أي (مسقط)، وفيما وراء الميناء، فإن خدمات القوارب المحلية أو سفن (البغلة) التي تزيد حمولة بعضها عن مائتي طن متوفرة دوماً لكثرة أعدادها. ويمكن لميناء (مسقط)

(*) سعود بن عبدالعزيز (الكبير) حكم في الفترة (1803–1814م).

(**) كذا في الأصل وصوابه مطلق بن محمد المطيري وقبل ذلك أرسل سعود المذكور حملتين الأولى بقيادة (ابن عبدان) والثانية بقيادة (ابن معيقل).

أن يصبح في فترة قصيرة من الزمن وهو بيد مهندس ماهر منيعاً إلى حد كبير، فموقعه يسيطر على مدخل الخليج العربي ومن شأن مرافئه أن توفر الحماية لأي عدد من السفن.

متى ما أقدمت روسيا على توجيه ضربة، فإنها تفعل ذلك على حين غرة. ولن نسأل متى سيحدث ذلك، لأن مهمتنا هي حماية كل نقطة يمكن أن توجه إليها مثل هذه الضربة. فسفن إمام (مسقط) تمخر عباب الخليج العربي دوماً. لكن سفينة أو سفينتين صغيرتين من ذوات الإثني عشر أو الثمانية عشر مدفعاً هي كل ما نملك من قوة هناك. فهل هناك ما يحول دون قيام أسطوله بالاتفاق بينه وبين الروس في فترة مرسومة سلفاً على التلاقي عند ميناء البصرة؟ إن مثل هذا الشيء قد يحدث قبل زمن طويل من تمكن قوتنا البحرية في الهند من لم شملها، وحتى إذا كانت هذه القوات جيدة التنظيم، فإن ذلك سيحدث قبل أن يصبح في الإمكان إيصال أخبار مثل هذا التطور إلى مقر قيادتنا. ولا ينبغي أيضاً نسيان أن شهراً من الزمن، في بعض الفصول، يمثل أقصر فترة زمنية يمكن فيها للسفن القادمة من الهند أن تصل (مسقط). وفي حوزة بحرية الأمام، تصبح السفن المتينة البنيان والمجهزة تجهيزاً جيداً وتضاهي سفن صاحبة الجلالة ومزودة بالبحارة الروس، ذات قوة تمنحها التفوق البحار في البحار الهندية لبعض الوقت.

ومع القوة التي يمكن حشدها، إن لم يكن على هذا النحو، فعلى نحو آخر لا يفيدنا أيضاً، لنتأمل ما هو وضع علاقاتنا الراهنة مع هذا الأمير. فقد وقعت بيننا وبينه فيما مضى اتفاقية تحالف مشترك، دفاعية وهجومية نصت بعباراتها الشرقية على أن «أعداءه هم أعداؤنا وأن أصدقاءه هم أصدقاؤنا». وقد تصرفنا على هذا الأساس حتى وقت متأخر. ولكن عندما وصلت أنباء احتمال طلبه مساعدة منا أمام حكومة الهند، فإن نص الاتفاق الذي أشرت إليه آنفاً، كان يُنظر إليه فقط في ضوء مجاملة شرقية ليس إلاّ، واستناداً إلى ذلك، فقد صدرت التوجيهات بعدم تقديم أي مساعدة له ولهذا السبب فإن حكومة (بومباي) لا تملك السلطة لإرسال سفينة واحدة لمساعدة واحد من أقدم وأخلص حلفائها. إن التضحية بمبلغ عظيم من عائداته لتحقيق رغباتنا بخصوص تجارة الرقيق، وعرضه في أن يتخلى لنا عن أراضيه في (زنجبار)، لتعزيز نفس الهدف، يمكن أن يكونا،

مع غيرهما من الأمثلة، دليلاً على حبه الخالص لنا. إن المعرفة بأن هذا الأمير يلقى دعم الحكومة البريطانية قد حفظ له مقاطعاته حتى الآن. وإذا ما بات مؤكداً إن مثل هذا الدعم سوف يسحب، فإن الوهابيين، الذين يقيمون صلات حسنة مع قراصنة القواسم، والذين إن سيطروا ذات يوم على (مسقط) فمن شأنهم أن يصبحوا أكثر الجيران إثارة للاضطرابات. ولهذا السبب أعتقد أن أفضل وأذكى واحكم سياسة يمكن لنا أن نتبعها إنما تتمثل في جعل قوتنا البحرية- كما هو الحال مع أمراء الهند المحليين- مساعدة له وعندئذ سيصبح لدينا، بلا تحمل نفقات إضافية، قوة ضاربة بإمرتنا في بقعة قد ثبت أنها ذات حيوية بالغة. وإن هذه القوة يمكن أن توفر، عند الطلب، من الهند مع البحارة الأوربيين، في حين أننا لا نملك الآن إلا قوة ضئيلة الشأن. وإذا ما سقطت حكومة عُمان بأيدٍ أخرى عندئذٍ سيكون لنا فيها أشد الأعداء خطراً.

لقد أخبرني سموه بأن هدفه يتمثل في التحالف معنا تحالفاً وثيقاً جداً، وليس لدي أدنى شك في أنه متى ما تم عرض المقترح آنف الذكر عليه، فإنه سيوافق عليه بكل امتنان.

إنني أختتم ملاحظاتي هنا عن (عُمان) بتفاصيل عن رحلة قصيرة قمت بها بحثاً عن بعض النقوش في إقليم (حضرموت) المجاور.

الفصل الخامس والعشرون

نقب الهجر – قبيلة ذييب

في أثناء عملية مسحنا لساحل الجزيرة العربية الجنوبي، وعلى مقربة من برج يدعى (بَلْحاف) على رأس (رأس العصيدة) الرملي، وفي خط العرض 13 درجة و57 دقيقة شمالاً، وخط الطول 46.75 درجة شرقاً تقريباً، أخبرني البدو بوجود آثار كبيرة على بعد مسافة من الساحل وقالوا أن هذه الآثار شيدها الكفار وأنها موغلة في القدم. لهذا رغبت كل الرغبة في مشاهدتها، إلا أن الأيام التي بقينا فيها هناك مرت دون نتيجة سوى الوعود الفارغة من (حمد)، الضابط المسؤول عن البرج، بتزويدنا بالإبل والمرشدين. وفي نهاية المطاف، انطلقت السفينة غرباً وهي تتابع مسوحاتها.

في الصباح الذي غادرت فيه السفينة وكان اليوم التاسع والعشرون من (إبريل/نيسان) سنة (1835) أبلغت بأنني إذا مكثت هنا فإنهم سيوفرون الإبل في خلال ذلك النهار وسينقلوننا إلى مكان توجد فيها كتابات على مسافة بضع ساعات من الشاطئ. وعلى هذا الأساس بقيت مع السيد (كروتندن)، ضابط الصف البحري لسفينة (بالينوروس) وأحد قوارب السفينة.

وعند حلول الظهيرة وصلت الإبل، وعندها انتابتني الدهشة إلى حد ما إذ سمعت البدو يعلنون بعد جدال طويل عدم رغبتهم في المضي قدماً إلى حيث توجد النقوش، لكنهم عبّروا عن استعدادهم لمرافقتي إلى الآثار التي كنت قبلئذٍ راغباً كل الرغبة في زيارتها. أما أنا فكنت غير راغب الآن في زيارتها، إذ لم تكن لدي أي هدايا أهديها إلى شيوخ مختلف القرى التي يتعين عليّ المرور بها كما أنه لم يكن بحوزتي سوى مبلغ ضئيل من المال. إلا أن الأمر الأكثر أهمية هو أن (حامد)– صمام أمننا الشخصي– نكث بوعده في مرافقتنا بحجة المرض.

على أية حال، كانت فرصة ينبغي عدم إضاعتها لرؤية البلاد، فقررت على الفور أن أضع نفسي تحت حمايتهم والسير وإياهم. وعلى هذا الأساس، أرسلت قاربي إلى السفينة مع

إيضاح يفيد بأنني أؤمل الوصول بعد ثلاثة أيام إلى قرية (عين) الساحلية حيث يمكن إرساله ثانية إلى هناك. وبعد أن ملأنا القِرَبَ بالماء في الساعة الثالثة من بعد الظهر، اعتلينا ظهور جمالنا وانطلقنا بصحبة بدوي كريه المنظر (يدعي أنه شقيق حامد) إضافة إلى بدوي آخر. وبعد مغادرة (بَلْحاف)، كان الطريق يمتد على طول الساحل بالاتجاه الغربي. وشاهدنا قربه على الشاطئ الكثير من المحار المتعددة الأنواع. كما كانت تكثر العديد من قطع المرجان الأحمر والأبيض. وعند أسفل أحد التلال المجدبة التي مررنا بها من جهة اليمين، أشار مرشدونا إلى بقايا برج قديم، لكن عندما قيل لنا أنه لا توجد أي كتابات، وإن شكله من السفينة يبدو بناءً عربياً، فإننا لم نمكث لمعاينته.

في الساعة الرابعة والدقيقة الخمسين مررنا بقرية صيادين صغيرة تدعى (حِلْفه) تتألف من حوالي عشرين كوخ شيُدت على نحو أخرق من سعف النخيل. وعلى امتداد الشاطئ، كان الصيادون قد أوقفوا قواربهم، حيث يُسمح لهم دوماً بالوقوف هناك إلا إذا كانت هنالك حاجة لاستعمالها. وكانت هذه القوارب لا تختلف من حيث صنعها عن أولئك القوارب التي وصفتها في أجزاء أخرى من الساحل.

في الساعة السابعة والدقيقة العشرين، انحرفنا في سيرنا، ونحن نبتعد عن ساحل البحر، بين حزام عريض من التلال الرملية وتوقفنا مدة ساعتين على بعد ثلاثة أميال عن قرية (عين الجويري)، فأرسلنا أحد أدلائنا إليها لتأمين تجهيزنا بكمية من التمور وهو الغذاء الوحيد الذي يهتمون بتوفيره لأنفسهم. وبعد عودته مباشرة، واصلنا سيرنا وفي الساعة الحادية عشرة سمعنا نباح بعض الكلاب قوياً وعالياً فعرفنا إننا سنمر بقرية (با معبد)(*). إلا أننا لم نشاهد أياً من السكان. وفي الساعة الواحدة فجراً، توقفنا لقضاء ليلتنا.

كنا الآن في الأراضي التابعة لبدو (بني ذيب)(**) الذين كانت تخشاهم كل الخشية

(*) في الأصل وردت عين أبو مبعث (Abu Mabath) وصوابه (عين با معبد) قرية معروفة ومشهورة بالمنطقة وأخطاء المؤلف في تصحيف الأسماء يتكرر كثيراً مما يشير إلى عدم معرفته بالعربية.

(**) قبيلة معروفة إلى اليوم وتنسب إلى حمير غير أننا نعلم من النقش السبئي الشهير المعروف بنقش صرواح (R.3945) والذي يعود إلى القرن السابع ق.م. أنها وقبيلة (سيبان) كانتا تسكنان هذه المنطقة وهما مثالان يشهدان على ثبات قبائل الجزيرة العربية –

القبائل المحيطة بهم نظراً لما كانوا يعرفون به من عنف وأعمال نهب. وكانت بعض الجماعات الصغيرة المارة بهذه البقاع تنقطع بها السبل غالباً، لذلك حذرنا أدلاؤنا بأن تبقى عيوننا مفتوحة. ولكن بعد أن فرشنا عباءاتنا البحرية الكبيرة على الرمل، لم نقلق كثيراً لأي مخاوف من هذا النوع ونمنا نوماً هانئاً حتى صباح اليوم التالي.

يملك بدو (بني ذيب) مساحة واسعة من البلاد وأعدادهم غفيرة وقوتهم شديدة. وهم يختلفون من الناحية السياسية عن أي قبيلة أخرى أعرفها في شبه الجزيرة العربية معرفة شخصية أو عن طريق الرواة. وعوضاً عن اختيار شيخ أو سلطان ليمثلهم، تراهم ينقسمون إلى سبعة أقسام يحكم كل قسم أحد الزعماء ويدعى (أبو) ويمارس ما يسمونه سلطة أبوية عليهم. ويجتمع هؤلاء الزعماء لمناقشة جميع القضايا المتعلقة بمصلحة القبيلة العامة وتنفذ قراراتهم بأغلبية الأصوات. وفي بعض الحالات يكون هذا المنصب وراثياً، إلا أنه على وجه العموم يشغله أفراد تؤهلهم له حكمتهم وتجربتهم وشجاعتهم. وهناك بعض الممارسات الغريبة لا تزال قائمة بين بني ذيب تخص عمليات النهب التي تجري فوق أراضي بعضهم بعضاً. ويكون ال (أبو) مسؤولا عن كل السرقات التي تحدث ضمن منطقته، ويقوم بتعويض الطرف الخاسر إذا كان الجاني غير قادر على التعويض. أما إذا كان اللص يملك مُلكاً، فإن الـ (أبو) يطالب بالثلث لنفسه إضافة إلى قيمة الشيء المسروق كعقاب إضافي والتعويض عن الخسائر الكثيرة التي يتكبدها خلاف ذلك. ولدى أبناء هذه القبيلة عدد قليل من الرماح ولا يملكون أي سيوف. وسلاحهم هو الخنجر والبندقية والدرع. والشيء الآخر الذي يميزهم عن القبائل المجاورة هو قلة الملابس التي يلبسونها إضافة إلى خفة الإناث وتقلبهن.

الخميس، الثلاثون من إبريل / نيسان: أيقظنا البدو في ساعة مبكرة وبعد شرب القهوة التي قاموا بإعدادها، نفضنا الرمال التي أوشكت أن تدفننا في الليل عن ثيابنا، وفي الساعة الخامسة فجراً واصلنا ببطء سيرنا.

= في مواطنها الأصلية وأن القبائل لا تهاجر عن بكرة أبيها من مواطنها الأصلية مطلقاً ومعلوم أن حمير ظهرت عام 115 ق.م. وبالتالي مهما أقدم منها بقرون. وهذه الحالة قلّ أن تجد لها في عالم اليوم عند الشعوب الأخرى نظيراً فلدلني اليوم على قبيلتين لازالتا تقيمان في مواطنيهما الأصلي طوال (2700) ألفين وسبعمائة عام تقريباً.

في الساعة السابعة ارتقينا تلاً يبلغ ارتفاعه أربعمائة قدم واستطعنا من فوق قمته أن نشاهد منظراً شاملاً وكئيباً للبلاد المحيطة بنا. كان طريقنا يمتد بامتداد وادٍ عريض بشكل كل جانب من جانبيه جذور أو حافات سلسلة عالية من الجبال. وفي حين تمتد هذه شمالاً، فإنها تقترب رويداً رويداً من بعضها فيصبح الوادي ممراً ضيقاً. لكن من الجهة الثانية، تزداد عرضاً المسافة التي تفصل بين موقعنا الحالي والبحر، كما يقطعها حاجز يبلغ عرضه حوالي ثلاثين ميلاً فيشكل بذلك هضاباً رملية واطئة مجدبة. والرمال في هذا المكان غير متماسكة، حتى أن البدو أكدوا لي أنها تغير من ملامحها وتبدل من مواقعها حسب هبوب العواصف. ويثير الفضول كثيراً تراكم مثل هذه الكتل العظيمة من الرمال المتحركة، على هذا النحو المثير، فهي تبرز على شكل سلاسل حادة وتشبه حدوة الحصان، ويتجه الجانب المحدب فيها إلى جهة البحر. وعانت إبلنا صعوبات شاقة في اجتياز هذه المنطقة، كما حزن البدو كثيراً لأننا اضطررنا مراراً إلى التوقف بسببها. كانت كمية المياه التي تشربها الإبل هائلة وشاهدت في إحدى المرات أن مجموعة من أربعة أو خمسة قد أفرغت قربة ماء تتسع للعديد من الجالونات.

في الساعة الثامنة، وجدنا أن الشمس لا تطاق البتة فاضطر البدو إلى التوقف في وادٍ ضحل تحت ظلال أشجار الطرفاء. وكان من شأن الأغصان القليلة لهذه الأشجار أن توفر ملاذاً قليلاً من حرارة أشعة الشمس الحارقة لو لم يلجأ أدلاؤنا إلى قطع جذورها بالخناجر وخفض أغصانها ووضعها فوق قمة الشجرة. وبعملهم هذا، فقد استولوا بهدوء على معظم المناطق الظليلة وتركونا ننتقل بأفضل ما نتمكن من السبل. ومن خلال هذه التجاويف الحارقة، كانت أشعة الشمس تتركز وتسلط كأنها صادرة عن مرآة. أما الأعشاب المحيطة بنا فقد احترقت حتى بات لونها أسود. ولم تستطع أي سحابة الحيلولة دون ذلك. أما النسمات التي كانت تهب من حولنا متأوهة فكانت حرارتها متأججة كتلك الحرارة الصادرة عن فوهة فرن. حفر أدلاؤنا تجاويف في الرمال، ووضعوا أقدامهم المتقيحة فيها. وعلى الرغم من عدم انقضاء فترة طويلة على استفادتنا من الدروس العملية التي علّمونا إياها، فإنني بدأت انزعج من تصرفهم الفظ. وكانت كل محاولة للتقرب منهم والتفاهم

معهم يقابلها رد جاف ومنفر.

بعد ذلك بدءوا يتحدثون غالباً مع بعضهم بعضاً على انفراد، وكان واضحاً أننا كنا موضع حديثهم. كما أنهم لم يرفضوا قبول الماء إلا بكميات يعتقدون أنها كافية بل راقبوا أيضاً حركاتنا عن كثب، حتى إنني وجدت ذات مرة صعوبة في تدوين الملاحظات أو رسم المخططات.

على الرغم من عدم توقع أي خطر، إلا أنه كان يستحيل ألا نشعر بأن وضعنا كان دقيقاً حتماً، إذا ما خدعنا هؤلاء الرجال. كنت أعلم أن سكان هذه المنطقة يكنّون العداء خاصةً لأولئك الذين ينتمون إلى قبيلة أخرى، وإنهم أقدموا قبل بضع سنوات بقطع السبيل أمام طاقم قارب السفينة الوحيدة التي رست عند سواحلهم وذلك بإغوائهم بوعود قطعوها لهم على الشاطئ. لهذا السبب لم أستطع إلا اتهام نفسي بالتسرع بالإقدام على هذه المغامرة دون أي ضمان بسلامتنا سوى الإخلاص الذي وعدونا به. وعلى أي حال، ليس هناك وقت طويل الآن للتفكير بمثل هذه الأمور. وقررت، دون إظهار أي تغيير أو عدم ثقة في سلوكي، بأن أراقبهم عن كثب، وألا أغفل عن أي شيء قد يتبين أنه لصالحنا.

في الساعة العاشرة والنصف واصلنا رحلتنا فوق نفس الهضاب الرملية كالسابق وفي الساعة الواحدة والنصف اجتزنا تلاً من الحجر الرملي يدعى (جبل مَسيِّه)، يؤلف القسم العلوي منه امتداداً ضيقاً ويشبه الآثار، ولم نقتنع بأنه ليس كذلك إلا بعد عودتنا. ابتعدنا الآن عن الهضاب الرملية وعبرنا سلاسل مستوية ترتفع بمقدار مائتي قدم عن مستوى سطح السهول الممتدة تحتها، وتقطعها وديان كثيرة وقيعان سيول مائية سابقة انحدرت من كلا جانبي الجبال. وكان سطح التلال يحتوي على مختلف القطع من الكوارتز واليشب وكان بعضها ذو ألوان جميلة. وكانت الصخور الوحيدة التي شاهدنا في الوديان هي بعض الكتل الدائرية من حجر الكلس الأبيض البدائي على كلا الجانبين، وكان هذا النوع من الصخور هو الأكثر شيوعاً على امتداد مجمل ساحل الجزيرة العربية الجنوبي.

بدأنا نشاهد الآن بعض أشجار الصمغ العربي التي بدأ حجمها يكبر أكثر فأكثر كلما

توغلنا أكثر في سيرنا. وفي الساعة الرابعة عصراً هبطنا إلى (وادي مَيْفَعَه) وحططنا رحالنا قرب بئر ماء طيب المذاق. وكان التبدل الذي أحدثته الجرعات المائية القليلة في منتهى الغرابة. فقبل وصولنا، كانت الإبل تتعثر في كل خطوة تخطوها، وكانت أنفاسها سريعة مسموعة كما أظهرت أعراضاً أخرى تدل على الإنهاك. أما عند وصولنا إلى الماء، فقد تقدمت منه بخطوات دائرية، وأخذت تستعيد حيويتها مع كل جرعة. وبعد أن أمضت ساعة في تناول الكلأ المؤلف من البراعم الصغيرة للأشجار المحيطة بنا، غادرت المكان وهي مفعمة بنفس النشاط الذي كانت عليه ساعة انطلاقنا من ساحل البحر. وعلى الرغم من حرارة النهار الشديدة، وطبيعة الطريق الشاقة، فقد يبدو غريباً أن هذه الحيوانات عانت كثيراً وهي تقطع مسافة لا تتجاوز الأربعين ميلاً. على أي حال، الإبل في جزيرة العرب تختلف من حيث قوتها وسرعتها على نحو أكثر مما يعتقده المرء. كانت الحيوانات التي نمتطيها خلال هذه الرحلة تشبه تلك التي انطلقت بها في رحلتي من (عدن) إلى (لَحْج)، مثلما يشبه فرس صيلو ماهرٍ حصان عربة البريد في إنكلترا. وبينما كنا نزجي الوقت قرب هذه الآبار، أتى أعرابي بعدد من الثيران لشرب الماء. كانت حدبة الثيران تشبه حدبة الثيران الهندية، وكانت تشبهها أيضاً في اللون والحجم وطريقة نمو القرون.

كانت أشجار العرق لا تعد ولا تحصى، إلا أنها أطول وأكبر حجماً ومن نوع يختلف عن مثيلتها الموجودة على ساحل البحر. كانت الإبل تأكل هذه الأشجار الموجودة هنا بنهم إلا أنها لا تأكل من تلك القريبة من الساحل إلا إذا عضّها الجوع. وتوجد هذه الأشجار في الجزيرة العربية والحبشة والنوبة وأماكن كثيرة على امتداد سواحل البحر الأحمر وساحل (سو قطرة) الجنوبي. وهي ذات ألياف خضر ذات رائحة زكية في بعض فصول السنة. ويصنع العرب المسواك من الأغصان الصغيرة الحجم ويبيعونها في مكة ومناطق أخرى من بلدان الشرق.

كما شاهدنا أيضاً العديد من أشجار الطرفاء والصمغ التي تتداخل أغصانها مع غيرها من الأشجار النامية في هذه البقعة. وفي هذا الموسم تنمو لجميع هذه الأشجار البراعم والفروع الصغيرة. وهكذا، فإن خضرة هذه الأشجار تمثل

راحة للنظر يصعب التعبير عنها بعد رحلتنا فوق الرمال المحرقة الكئيبة.

في الساعة الخامسة ركبنا إبلنا وواصلنا رحلتنا باتجاه الغرب والشمال الغربي على امتداد الوادي. كان عرض الوادي ميلاً ونصف الميل. وكان جانباه يوحيان بأنهما شكّلا ذات يوم قاع جدول ماء عظيم. كما أن المنطقة كلها بدأت تظهر بمظهر مغاير. فقد ظهرت للعيان العديد من القرى الصغيرة المنتشرة وسط بساتين النخيل الكثيفة والحقول الخضر وقطعان الماشية، كما بدأنا نشاهد لأول مرة منذ رحيلنا عن ساحل البحر مجموعات من السكان. وكانت الدهشة ترتسم على وجوههم، ولكن بما أننا لم نتوقف، فإنهم لم تؤاتهم الفرصة لإشباع فضولهم والتحديق بنا فترة طويلة. ولكن أحد أفراد مجموعتنا تأخر عن بقية الركب للتعويض عن خيبة أملهم وأخبرهم بما يعرفه عنّا. وفي إجابة عن الاستفسارات المألوفة: من نحن؟ أنحن مسلمون؟ ما طبيعة مهمتنا؟ قال لهم إننا كفار نتوجه لزيارة (نقب الهَجَر) بحثاً عن الكنز. كما أخبر آخرين بأننا وصلنا إلى هنا لدراسة البلاد والكتابة عنها رغبة في السيطرة عليها. حاولت بلا طائل أن أسكته لكنه ضحك ملء شدقيه. أما مرشدونا، فقد تخلوا عنا حالما اقتربنا من القرية رغبة منهم في ألا يشاهدهم أحد برفقتنا أو لقضاء بعض أشغالهم. وقبيل غروب الشمس قفلوا راجعين وكنا نعد العدة للتوقف قرب إحدى القرى الصغيرة.وهنا وصلتنا رسالة من السكان تقول بأنهم لا يريدون منا أن نبقى قرب مساكنهم. ولم ينفع الاحتجاج أو المقاومة من جانبنا، في حين ظل مرشدونا متفرجين لا أكثر على ما يدور من حولنا دون بذل أي محاولة للتداخل. ونتيجة لذلك اضطررنا إلى الخضوع لإرادتهم.

بعد أن هبط الظلام تبين أن مرشدينا لا يملكون سوى فكرة قليلة عن الطريق، إذْ ما أن سرنا ثلاثة أو أربعة أميال حتى وجدنا أنفسنا نتسلق السدود العالية التي تحيط بالحقول. وكثيراً ما هوت الإبل وهي تعبر هذه السدود، حتى إن البدو فقدوا صبرهم وتركونا ومضوا في سبيلهم ولم يبق معنا سوى رجل عجوز وصبي صغير نتدبر معهما أمرنا. وما كنت لأهتم كثيراً لو أنهم أخبروا الصبي بوجهتهم وهكذا أعددنا العدة لنتخذ لنا ملاذاً وسط الحقول. ولكن على نحو غير متوقع، صادفتنا امرأة عجوز وعدتنا دون تردد بعد أن أدركت وضعنا

بأن ترشدنا إلى منزلها. فلحقنا بها مسرورين. ولكن بعد أن سرنا بعيداً عن الطريق لم نصل إلا عند حلول منتصف الليل.

وجدنا مرشدينا جالسين في أحد البيوت يدخنون ويشربون القهوة. وعلى الرغم من أن ذلك أثار حفيظتي كثيراً، إلا أنني كنت أدرك أن لا فائدة من الاحتجاج. لذلك أخفيت همي وكدري وتقدمت لتأمين مأوى لقضاء الليل. لكن جماعة كبيرة كانت قد وصلت قبلنا واحتلت كل بقعة في المنزل وانهمكت في التدخين وشرب القهوة.

بدا لي أننا وصلنا إلى ما يشبه الخان. ويوجد مثل هذا الخان عادة في مدن اليمن كما في أجزاء أخرى من بلدان الشرق. لهذا طلبنا من السيدة العجوز –التي لم تقل عطفاً عندما عرفت بأننا مسيحيون– بأن تبعد الإبل عن الفناء حيث نمنا عميقاً حتى الساعة الثالثة فجراً –بعد وجبة لذيذة من الحليب والتمر– إذ استيقظنا على صوت المرشدين وهم يبحثون وسط حاجياتنا عن القهوة. ربما كان يتعين علي في أي وقت آخر أن أكون مسروراً وأنا أشهد السلوك الذي يفتقر إلى الكياسة عندما أقدموا على خدمة أنفسهم بأنفسهم، علاوة على عدم الاكتراث الذي أبدوه في وضع الأسرجة أو السلال أو كل ما يقع تحت أيديهم فوقنا. لكن الرجال ليسوا في أفضل حال من المرح كي يستمتعوا بمزحة واقعية عندما يستغلون فترة قصيرة من الراحة بعد تعب نهار. لهذا السبب وبنفس القدر القليل من الكياسة التي أظهروها لنا، رفضت السماح لهم بأخذ ما كانوا يفتشون عنه. وكما توقعنا فقد حنقوا حنقاً شديداً لذلك، إلا أن سلوكهم ما كان ليزداد سوءاً عن ذي قبل إلا إذا لجأوا إلى العنف. وهنا لم اهتم إلا قليلاً لمثل هذا الحنق.

الجمعة، الأول من مايو / أيار: على الرغم من أن الظلمة كانت شديدة عند وصولنا إلى هذا المكان ليلة أمس، وأننا بسبب طبيعة الأرض التي مررنا بها لم نستطع إلا أن نلاحظ كثرة النباتات فيها، إلا أننا لم نكن مستعدين تماماً للمشهد الذي انفتح أمام أنظارنا في وضح هذا الصباح. كانت الخضرة الداكنة لحقول الذرة والتبغ تمتد إلى أبعد نقطة يمكن أن تراها العين. وكانت تمتزج مع هذه الخضرة أشجار الصمغ والنخيل، إضافة إلى أصوات النواعير العديدة التي تروي الأرض بواسطتها، وهناك عدد من المحاريث التي تجرها الثيران. لقد

اجتمع منظر الناس المفعمين بالحيوية والضاربة بشرتهم إلى الحمرة وهم يأخذون بالتوافد إلينا من كل حدب وصوب مع برودة هواء الصباح المنعش الجميل ليشكلا معاً مشهداً لا يمكن لمن يحدق في الجانب المجدب من الساحل أن يتوقعه.

في الساعة السادسة صباحاً ركبنا إبلنا، وبعد مرورنا بقرى (زَحُن) و(غَرِيَّه) و(جول الشيخ)، وصلنا قرية صغيرة أخرى توقعنا أن نلتقي فيها بالسلطان، إلا أننا وجدنا لفرحتنا الشديدة وبعد الاستفسار بأنه قد سافر في اليوم السابق إلى (حَبّان)، وعندئذ واصلنا سيرنا إلى أمام.

أوقفنا العديد من الناس على قارعة الطريق وألقوا علينا بتحيتهم العربية المهذبة. وكان يبدو عليهم الرضا التام وهم يستمعون إلى إجابات مرشدينا التي كانت مناسبة وتتلخص بأننا نريد رؤية السلطان لبعض الأمور. إلا أن رجلاً واحداً فقط استطاع أن يتعرف إلينا في أثناء رحلتنا كأشخاص إنكليز. وكان هذا أحد مواطني (حضرموت) إذْ كان قد سمع بالإنكليز في (صحار) وظن إننا ذاهبون لشراء (حصن الغراب) من (عبد الواحد)(*).

في الساعة التاسعة اجتزنا (منصورة) و(صعيد) ووصلنا إلى (جول عقيل) إحدى أكبر القرى في هذه المجموعة. وبعد أن تركنا العديد من القرى الأخرى إلى شمالنا، بدأنا الآن نجتاز تلاً يبلغ ارتفاعه مائتي قدم ويتكون من الحجر الرملي الضارب إلى الحمرة ومن فوق قمة هذا التل، كانت الآثار التي نحن بصددها تشير إلينا. وعندما قيل لنا بأن الأرض المحيطة بها تعج باللصوص، اضطررنا إلى التوقف في إحدى القرى لاصطحاب أحد سكانها معنا. وكما هو مألوف، فقد تركنا مرشدونا وأخذوا يبحثون عن ملاذ من الشمس الحارة بينما بدأنا بإعداد طعام فطورنا المؤلف من التمور والحليب تحت ظل أي بقعة نجدها. كانت الشمس عمودية ولم توفر لنا جدران البيوت أي ظلال. ولما لاحظ السكان ذلك، أتى بعضهم إلينا وعرضوا علينا أن يضيفونا في بيوتهم بكل مودة. فوافقنا بسرور وسرنا وراء أحدهم. وعلى الفور قُدمت القهوة لنا، واستطعنا بعد شيء من الصعوبة وبعد

(*) آل عبدالواحد حكام المنطقة منذ القرن العاشر الهجري نسبة إلى عبدالواحد بن صلاح بن روضان.

وعد بالعودة في المساء إن أمكن، من منع مضيفنا من إعداد وجبة طعام لنا.

كانت هذه الحادثة، علاوة على حوادث أخرى وقعت لدى عودتنا، قد أقنعتني بأننا إذا ما توفر لنا مرافق جيد فإننا بعد اجتياز مضارب (بني ذيهب) لن نلقى أي جفاء أو لامبالاة من السكان.



الفصل السادس والعشرون

آثار ونقوش نقب الهجر

بعد مسيرة ساعة واحدة من آخر قرية مررنا بها، وصلنا إلى آثار (نقب الهجر). وبنظرة سريعة خاطفة اقتنعت بأن فحص هذه الآثار سيعوض كثيراً عن الإرهاق أو الخطر الذي واجهناه في الطريق إليها.

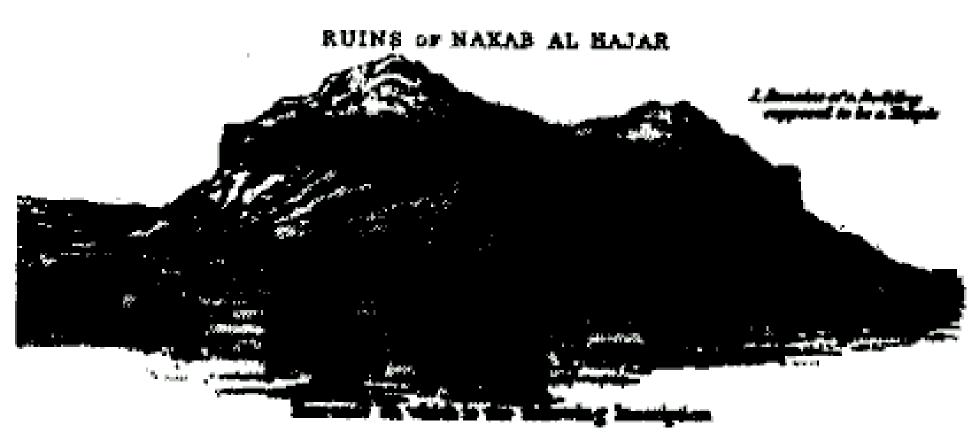
كان التل الذي تقع عليه الآثار يتوسط الوادي ويقسم جدول الماء الذي يمر من خلاله فترة الفيضانات على جانبيه. ويبلغ طوله حوالي ثمانمائة ياردة وعرضه الأقصى ثلاثمائة وخمسين ياردة. ويتجه طوله الأكبر من الشرق إلى الغرب. وثمة واد يقطعه على نحو مائل، وهو واد ضحل يقسمه إلى قسمين متساويين تقريباً، يتسعان على نحو بيضوي. وفي الثلث الأول من التل من جهة قاعدته ثمة سور عظيم يتراوح ارتفاعه بين ثلاثين إلى أربعين قدم ويلتف من حول التل وتحيط به أبراج مربعة الشكل شيدت على مسافات متساوية. ولا يوجد سوى مدخلين اثنين شيد كل واحد منهما إلى الشمال وإلى الجنوب. وثمة برج مربع أجوف يبلغ عرض كل جانب من جوانبه أربعة عشر قدماً عند كل جهة من جهات هذين المدخلين. وتمتد القواعد إلى السهل وتستمر إلى ما وراء المبنى كله. وتوجد دكة مستطيلة بين الأبراج يبلغ ارتفاعها عشرين قدماً عن سطح السهل وتبرز عن السور مسافة ثمانية عشر قدماً. ويبدو أنه كانت توجد سلالم مرتبطة بكل جهة من جهتي المبنى على الرغم من أن أي دلائل تشير إليهما قد اختفت تماماً. وهذه البقعة المستوية مسقفة بحجارة مسطحة ذات أبعاد عظيمة ترتكز فوق جدران مستعرضة.

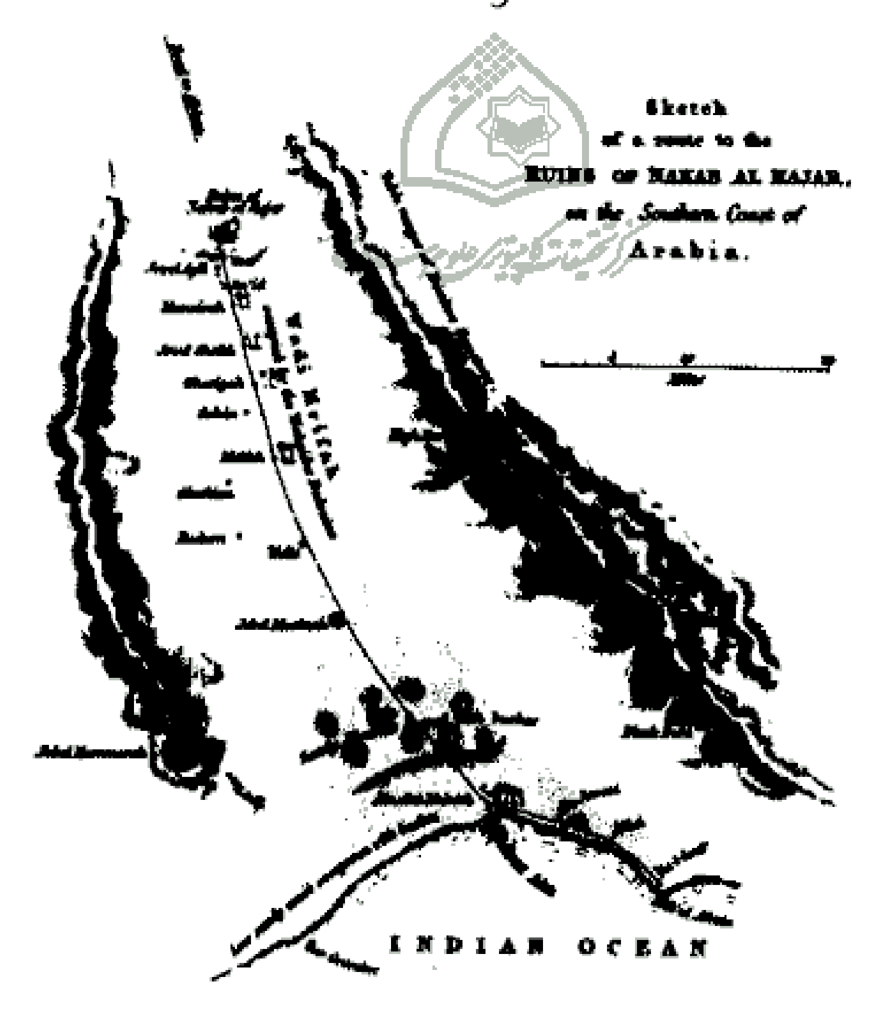
ويبدو غريباً أننا لم نتمكن من ملاحظة ما يدل على وجود بوابات. فالمدخل الجنوبي انهار كثيراً في حين ظل المدخل الشمالي في حالة ممتازة تقريباً. والتخطيط المؤشر على الخارطة يوضح شكله وأبعاده على نحو أفضل من أي وصف.

وفي المدخل نفسه وعلى ارتفاع عشرة أقدام من المنصة وجدنا النقوش والكتابات، وكانت منفذة بأقصى درجات العناية بخطين أفقيين على سطح حجارة المبنى الملساء، وكان طول الحرف الواحد ثمان بوصات. ويبدو أن محاولات قد بُذلت لمحو هذه الكتابات دون نجاح يذكر. ومن الموقع الظاهري الذي تحتله لا يبدو هناك أدنى شك في أن هذه الكتابات إذا ما فُسّرت فإنها تحتوي على اسم مؤسس المبنى إضافة إلى التاريخ والهدف من بنائه. هذا وقد شيد الجدار كله والأبراج وبعض المباني الداخلية بنفس مواد البناء وهي عبارة عن مرمر ذي لون ضارب إلى الرمادي وتتخلله عروق سود ومهندم على نحو جميل جداً ليناسب الشكل المطلوب. وكانت أبعاد البلاط عند قاعدة الجدران والأبراج يتراوح طولها بين خمسة أو ستة أو سبعة أقدام وارتفاعها بين قدمين وعشر بوصات إلى ثلاثة أقدام وعرضها بين ثلاثة إلى أربعة أقدام. ويتضاءل حجم هذا البلاط على نحو منتظم حتى يصل القمة حيث لا يتجاوز عرضه نصف عرض البلاط السفلي وسمك الجدار لا يمكن أن يكون أقل من عشرة أقدام وعند القمة حوالي أربعة أقدام على الرغم من إنني لم أعمد إلى قياس ذلك. وعلى الرغم من عدم انتظام أساسه، إلا أن الحجارة وضعت بنفس الخطوط المستقيمة واستخدام الملاط لتثبيتها واكتسب صلابة شديدة توازي تقريباً صلابة الحجارة. إن مثل هذه الأجزاء من الجدار التي ظلت شامخة قد بنيت بعناية فائقة. أما الأجزاء الأخرى، وبسبب تداعي قواعدها، وميلها إلى السقوط، إلا أنها لا تزال ثابتة دون كسر. أما الأجزاء المتداعية فقد تناثرت من حول المكان بكتل ضخمة دون أن تتكسر. ولا توجد فتحات في هذه الجدران ولا أبراج صغيرة مستدقة في الجزء العلوي، فقد كانت كلها ذات مظهر موحد ثابت وصلب. ولمنع السيول القادمة من الجبل، التي تترك على الأراضي المحيطة دلائل واضحة على سرعة مجراها، من اكتساح قاعدة التل، فقد شيدت دعامات دائرية الشكل في ذلك الجزء وجرى تغليفها بحجارة أشد صلابة. وإذا كانت حجارة التغليف قد اختفت فإن الدعامات لا تزال باقية.

لنقم الآن بزيارة إلى داخل المبنى حيث يتمثل أبرز ما فيه ببناء مستطيل الشكل تواجه جدرانه الجهات الأصلية. ويبلغ قياس الضلع الأكبر منه المواجه للشمال والجنوب سبعة

أطلال نقب الهجر





وعشرون ياردة، أما الضلع الأصغر المواجه للشرق فيبلغ سبع عشرة ياردة. وقد كُسيت الجدران بما يشبه الحجارة السلسة متساوية الأحجام ومرصوفة على نحو بالغ الجمال حتى أنني حاولت أن أدخل نصل سكين صغيرة فيها، لكن دون جدوى. أما السطح الخارجي غير المصقول فمغطى بعلامات منقوشة صغيرة ظن البدو مخطئين أنها كتابات. ومن خلال العناية الفائقة الواضحة في تشييد هذا المبنى، أدركت بلا ريب أنه معبد، وكانت خيبة أملي كبيرة جداً عندما وجدت الجزء الداخلي منه وقد امتلأ ببقايا السطح المنهار. ولو ظل السطح سليماً لاستطعنا الحصول على دليل يرشدنا في أبحاثنا بخصوص الديانة التي كان يدين بها العرب الأولون. وفوق هذا المبنى ووراءه ثمة مبانٍ عديدة أخرى وليس فيها ما يميزها من حيث الشكل أو المظهر. وفي منتصف المسافة تقريباً بين البوابتين، يوجد بئر دائري يبلغ قطره عشرة أقدام وعمقه ستون قدماً، وكُسِيَتْ جدرانه بحجارة غير مهندمة. كما شيد جدار أسطواني الشكل يبلغ ارتفاعه خمسة عشر قدماً من حوله يفيد إمّا في حمايته من أشعة الشمس أو في نقل الماء.

وعلى الهضبة الجنوبية لم نتمكن من العثور على أي مكتشفات حيث لا شيء سوى كتل غير متميزة من الخرائب. أما داخل المدخل الجنوبي، وعلى نفس مستوى المنصة الوارد ذكرها آنفاً، ثمة دهليز يمتد مسافة خمسين ياردة ويبلغ عرضه أربعة أقدام محمي من الجهة الداخلية بحاجز حجري، ومن الجهة الخارجية بالجدار الرئيسي. ولم أستطع التأكد من الهدف الذي أنشئ من أجله. كما لم نتمكن في أي جزء من هذه الآثار والخرائب من ملاحظة أي بقايا للأقواس والأعمدة، ولم نستطع أيضاً أن نكتشف على سطوح هذه الآثار أي كسر فخارية أو زجاج ملون أو معادن كالتي تكثر دوماً في المدن المصرية أو كالتي اكتشفناها في ساحل شمالي غربي الجزيرة العربية. وفيما خلا المحاولات التي لاحظتها سابقاً لإزالة آثار الكتابات، فإنه لا يوجد ما يدل على تعرض المبنى لأي أعمال تخريبية باستثناء عوامل الزمن. وبسبب المناخ الجاف، وصلابة مواد البناء، فإن كل الحجارة، بل حتى العلامات النقشية، ظلت باقية ممتازة منذ اليوم الذي نُحتت فيه. إننا بطبيعة الحال نتوق إلى التأكد فيما إذا كان العرب قد احتفظوا بأي تقاليد تخص مبانيهم، إلا أنهم يعقدون

الصلة بينها وبين غيرها من المباني التي صادفناها وترجع إلى أجدادهم الوثنيين. وهنا قال لي أحد البدو عندما أخبرته بأن أجداده كانوا يقومون بأعمال أعظم من تلك التي يقومون بها هم أنفسهم الآن: «أتعتقد أن هذه الحجارة قد رفعت دون مساعدة الكفار؛ لا، لا. لقد كان لديهم شياطينهم، فيالق من الشياطين التي تساعدهم (حمانا الله منهم!)». وتلك خرافة أيده فيها بقية البدو عموماً.

كان أدلاؤنا يسيرون وراءنا عندما كنا نتجول بين الآثار ويتوقعون الحصول على غنائم ذهبية لأنهم كانوا مقتنعين بأننا ما جئنا إلى هذا المكان إلا لاكتشاف الذهب. وعندما لاحظوا إننا لم ننجح في البحث، اقنعوا أنفسهم بفكرة أننا لم نستطع الحصول على الذهب من الأرواح التي ظلت، حسب اعتقادهم، في حالة مراقبة دائمة.

إن آثار (نقب الهجر)(*) لا تمثل حسب رأيهم أكثر من مجموعة من الخرائب المحاطة بسور. بيد أن ضخامة الحجارة المستعملة في البناء ومعرفتهم التامة بفن البناء، وهو ما أظهره أسلوب وطريقة رصفها مع بعضها بعضاً، وكذلك الأبراج والمساحة الواسعة كلها تضفي عليها أهمية كبرى. ففي هذا المكان من الجزيرة العربية، حيث بقايا العمارة نادرة جداً كما هو معروف، يكون مظهر هذه الآثار مثيرا جداً للاهتمام. كما يبدو واضحاً أن هذه الآثار موغلة في القدم (ويمكن للكتابات أن توضح مدى قدمها)، وذلك من خلال شكلها العام وحده الذي يشبه كثيراً مباني مشابهة وجدت وسط الآثار المصرية. ففي هذه الآثار توجد نفس الاتجاهات الموجودة في المدن المصرية في بناء الجدران ونفس الشكل في بناء المداخل كذلك نفس السطح المستوي المشيد بالحجارة. إن موقع (نقب الهجر) وأسلوب تنفيذ القسم الداخلي منها، يبدو وهو يشير إلى أنه كان يستخدم مستودعاً للذخيرة وحصناً. لهذا السبب أعتقد أن في وسعنا الاستنتاج بأن (نقب الهجر) والقلعة الأخرى التي

(*) يقع الموقع المعروف في النقوش بميفعة على بعد نحو 320كم شرقي عدن وعلى الوادي الذي يحمل نفس الاسم اليوم (وادي ميفعة) وقد زار هذا الموقع العديد من المستكشفين والباحثين بعد زيارة المؤلف وزميله كروتندن، لعل من أهمها ما قامت به البعثة الفرنسية عام 1982 حيث صورت الموقع وما به من نقوش ومبان وقدمت وصفاً منفصلاً للموقع مما يشير إلى أنه كان مدينة محصنة تحصيناً جيداً رغم قلة المباني داخلها وقد يوحي ذلك إلى أن السكان يشتغلون بالزراعة خارج المدينة ويلجؤون إلى التحصن في المدينة في حالات الخطر وأوقات الحروب ويرجع تاريخ النقوش المكتشفة في الموقع إلى القرن الثاني أو الثالث ق.م.

اكتشفناها قد شيدا خلال فترة زمنية عندما كانت التجارة من الهند تتدفق إلى الجزيرة العربية في طريقها إلى مصر ومنها إلى أوروبا. وهكذا فإن بلاد العرب السعيدة التي كانت تضم اليمن وسبأ وحضرموت تحت حكم السبئيين أو الحميريين العظام اكتسبت هذه الكنية التي يستحق لها أن تفخر بها.

إن تاريخ هذه الأقاليم يكتنفه قدر كبير من الغموض غير أن (أغاثارشيدس)(*) في الفترة السابقة للعصر المسيحي يشهد على ثراء السبئيين ورفاهيتهم ويعزز رأيه هذا المؤلفون اللاحقون. إن هذا القوم وقبل أن تصبح (مأرب) عاصمتهم سيطر على مجمل حدود الجزيرة العربية الجنوبية. ونحن نعرف أنهم زرعوا المستوطنات في أماكن تسهل التجارة وتعزز مؤسساتهم.

لم تكن التجارة مقتصرة على طريق واحد بل على العكس من ذلك نحن نعلم ومنذ عهد مبكر بوجود العديد من المدن المزدهرة الواقعة على ساحل البحر أو بالقرب منه. إننا لا نعلم شيئا عن الأجزاء الداخلية من هذه البلاد المدهشة، إلا أن هناك أسباباً تدفعنا إلى الاعتقاد، كما هو الحال مع (نقب الهجر)، بأن هذه القلاع لا تشير إلى الطرق التي كانت تسلكها القوافل في السابق فحسب، بل وتشير أيضاً إلى الطرق الطبيعية في وسط الجزيرة العربية.

والكتابات التي واتاني الحظ في العثور عليها سوف تخلق اهتماماً كبيراً وسط المثقفين. ففي الوقت الذي ندم فيه (بركهاردت) على غياب المعلومات ذات الصلة بأصل المؤسسات المدنية عند البدو، فإنه يلاحظ بأن «اكتشاف النصب القديمة والكتابات في نجد واليمن قد يؤدي إلى الكشف عن الكثير من الحقائق التاريخية المختصة بهذا الموضوع». وفي الزمن الذي انزل فيه (القرآن الكريم) كان نوعان من الكتابة يستعملان في الجزيرة العربية وهما الكتابة الكوفية وهي الكتابة التي دون بها القرآن وتعبر عن لهجة قريش والحميرية التي كان يستعملها أهل اليمن. وقد فقدت الكتابة الثانية ولا ادري على أي من الأسس خمّن بعض فقهاء اللغة أنها ذات صلة قريبة من الكتابة الحبشية. لكن عندما

(*) عالم اغريقي ولد عام 116ق.م.

ظهر القرآن الكريم بالخط الكوفي صَعُبَ على أهل اليمن قراءته بها(*). ومما يدعو إلى الأسف أننا لا نملك أي كتابات من البلاد التي يمكن أن تقرر هذه النقاط. وقد صب (نيبور) اهتمامه عليها على الرغم من أنه لم يستطع خلال إقامته هناك الحصول على أي منها. وقد عرضت عليه بعض الكتابات في (المخا) وكانت استنسخت على بعد مسافة من الساحل، إلا أن مرضه جعله يدرك أنه كان أكثر اهتماماً بالأفكار الخاصة بالغاية النهائية وليس رغبته في استنساخ كتابات مجهولة. بيد أنه يخمن من خلال الذكريات ليس إلا بأنها قد تكون فارسية أو أن حروفها تتميز برؤوس مدببة تشبه السهام. إلا أنه لا يمكن ملاحظة أي شبه بينها وبين الكتابة التي عثر عليها (سيتزان) في طريقه إلى (صنعاء) ولا حتى بينها وبين أي كتابة أخرى ذكرتها. وبسبب الموقع الذي وجدت علية الكتابة الأخيرة، ولأسباب أخرى، فإنني أملك الجرأة على القول بأنها هي والكتابة التي اكتشفناها عند (حصن الغراب) إنما هي الكتابة الحميرية المفقودة. وإذا ما ثبتت صحة ذلك فإن التشابه مع الكتابة الأثيوبية ليس حدسياً طالما يمكن ملاحظة التشابه التام في العديد من الصفات. إنني لست عليما بأدب الشرق على نحو يمكنني من متابعة الموضوع متابعة أكبر، والملاحظات الوارد ذكرها أعلاه أقدمها على حياء. وقد تم تصوير هذه الكتابات وأرسلت إلى (جيسينيوس) في مدينة (هال) وفي الوقت الذي تشغل فيه كل اهتمامه، فإننا نستطيع أن نأمل بأن النتيجة ستكون تفسيراً ناجحاً.

إن (نقب الهجر) تقع في الجهة الشمالية الغربية على مسافة ثمانية وأربعين ميلاً في قرية (عين) التي تبدو مؤشرة على الخارطة عند خط العرض 14 درجة ودقيقتين شمالاً وخط الطول 46 درجة و30 دقيقة شرقاً تقريباً. وتتوسط واد عظيم يطلق عليه سكان المنطقة اسم (وادي ميفعة) الذي يعد بسبب خصوبته أو سكانه أو سعته أبرز الملامح الجغرافية التي تم لنا اكتشافها حتى الآن على ساحل الجزيرة العربية الجنوبي. ويبلغ طول الوادي من بدايته عند ساحل البحر وحتى بلدة (حبّان) خمسة وسبعين ميلاً أي ما يقارب مسيرة أربعة أيام.

(*) كيف يكون ذلك، فالخط الكوفي تطور على يد اليمنيين الذين سكنوا الكوفة لأن ذلك الخط كان يقسم بالتربيع المعروف في خط المسند اليمني المألوف لديهم كما أن لغة عرب الشمال كانت قد انتشرت في اليمن منذ القرن الثاني الميلادي وشاع استعمالها باستقرار قبائل كندة وقد حج والأزد وقضاعة ومراد وغيرها في كل أنحاء اليمن منذ نهاية القرن الثالث الميلادي.

أما فيما وراء هذا الحد، فإنني لم أتمكن من تحديد طوله. وتقول مختلف السلطات المحلية بأن المسافة كلها تستغرق خمسة إلى سبعة أيام إضافية أخرى. والمنطقة تكثر فيها القرى الصغيرة والأراضي الزراعية. وفي خلال سيرنا مسافة خمسة عشر ميلاً أحصينا ما يزيد عن ثلاثين قرية يضاف إلى ذلك العديد من البيوت المتفرقة المنفردة.

أما بساتين النخيل فتزداد عدداً كلما اقتربنا من ساحل البحر في حين تتناقص مساحات الأراضي الزراعية. وهناك بعض القرى التي تحتوي كل واحدة منها على ما يزيد عن مائة أو مائتي بيت، وهي بيوت متشابهة في شكلها ومشيدة بنفس مواد البناء (الآجر المشوي بالشمس) كما هو الحال مع البيوت الواقعة على ساحل البحر. ولم أشاهد أي أكواخ، كما لا توجد أي بيوت مشيدة بالحجارة على الرغم من أن العديد من القرى تحتوي على أكثر من مسجد وثلاثة أو أربعة أضرحة للأولياء.

ويبدو أن اهتماماً قد انصرف في هذه المنطقة إلى الحرف الزراعية أكثر مما هو عليه الحال في الأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية التي شاهدتها حتى الآن. الحقول محروثة على نحو منتظم ودقيق يرضي الفلاح الإنكليزي. ويقوم الفلاحون بتخليص التربة من الحجارة القليلة المنتشرة عليها ويسقونها صباحاً ومساءً على نحو كثيف من الآبار العديدة. ويتم سحب المياه باستخدام الإبل (وهذا شيء غير مألوف، لأنها قلما تستخدم كحيوانات للسحب في أي جزء من بلاد الشرق)، ويتم توزيعها على سطح الأرض على امتداد سداد مرتفعة. ويتم الاحتفاظ بكمية كافية من هذه المياه داخل السدود عندما يمتلئ جدول الماء ويغمر قعره. وعندئذٍ قد تكتسح هذه المياه الأشجار، بل وحتى البيوت في بعض الأحيان، لكن هذا الضرر يعوض عنه الطين المترسب الذي يمتاز بدرجة إنتاجيته العالية المقاربة لإنتاجية النيل في مصر على الرغم من أن ذلك الطين ذي لون فاتح وطبيعة أشد صلابة. أما فيما وراء ما شاهدته، فلا تزرع أي فواكه أو محاصيل زراعية.

بعد أن ذكرت كل الملاحظات الضرورية عن الآثار والمناطق المحيطة بها، بدأ البدو عند اقتراب المساء يطالبون متذمرين بالرحيل. وفي الساعة الرابعة عصراً، انتهينا في وضع الحمولة على الإبل، وبدأنا رحلتنا حتى غروب الشمس تقريباً حيث توقفنا عند إحدى القرى.

كان استقبالنا في تلك القرية مغايرا جداً للاستقبال الذي حظينا به في القرية الأولى في

رحلتنا من البئر. وعلى الرغم من تجمهر ما يقرب من خمسين رجل من حولنا، إلا أن فضولهم، الذي ازداد بسبب ما شاهدوه، ظل ضمن المقبول. وكانت الأسئلة التي وجهوها لنا بخصوص رحلتنا تنم عن كياسة أذهلتنا وأثارت إعجابنا. وقدموا لنا الحليب والماء والحطب دون أن نطلب ذلك ولم نستطع مكافئتهم إلا بعبارات الشكر. وقد ندمت أشد الندم لأنني في هذه المناسبة لم يكن معي أي هدايا كان من الممكن أن تكون تذكاراً لإقامة الرجل الإنكليزي الموقتة بين ظهرانيهم. إن انطباعاً مختلفاً كان ممكناً لنا أن نتصوره عن هؤلاء الناس لو أننا أخذنا فكرة عنهم من مرشدينا أو من زيارتنا الأولى.

السبت، الثاني من مايو / أيار: بعد وقت قليل من منتصف الليل بدأنا رحلتنا حتى الساعة الرابعة فجراً، وعندما أدركنا بأننا أضعنا معالم طريقنا توقفنا في انتظار ضوء النهار. في هذه الأثناء بدأ الندى يتساقط وكانت درجة الحرارة 58 فهرنهايت. كان الجو بارداً جداً وسررنا كثيراً ونحن نغطي أنفسنا بعباءاتنا.

في الساعة الثامنة توقفنا مرة أخرى عند البئر لملء قربنا قبل أن نجتاز الهضاب الرملية، ومن ثم واصلنا سيرنا. ومن الساعة التاسعة صباحاً وحتى الساعة الواحدة والنصف واجهتنا درجة حرارة لم يسبق لي أن عشتها. كان الهواء ساكناً تماماً وكان وهج الرمال الأبيض لا يطاق. وفي الساعة الثانية بلغ إعياء المرشدين اشده مما اضطرنا إلى التوقف في بساتين النخيل قرب (عين با معبد) حيث توجد قرية صغيرة وبعض ينابيع الماء الصافي، مساحتها خمسة عشر قدماً وعمقها ثلاثة أقدام.

في الساعة السابعة وصلنا إلى الشاطئ، وواصلنا سيرنا حتى أصبحنا قبالة السفينة. على أي حال، كان الأوان قد فات للتأشير إلى أولئك الموجودين على ظهرها لإرسال قارب لنا. علاوة على ذلك، كنت تواقاً، من خلال ما سمعته من البدو الذين كانوا معنا، إلى تأجيل رحيلنا حتى الصباح. وإذا ما حدث أي اضطراب فإن من الأفضل أن يحدث ذلك عند الصباح وليس في أثناء الليل. لهذا السبب حططنا رحالنا وسط تلال رملية حيث في وسعنا إضرام نار دون أن نخشى أن يراها أحد على سطح السفينة.

لو كنا نشعر بالإرهاق، فلذلك سببه. كنا على بعد سبعين ساعة من محطتنا في (بلحاف)، أمضينا أربعين ساعة منها على ظهور إبلنا. وكان في الإمكان قطع كل المسافة

البالغة مائة وعشرين ميلاً بنصف تلك المدة لو كانت لدينا جمال سريعة. إضافة إلى ذلك فإن سيرنا البطيء خلال حرارة الجو القائظ في هذا الفصل هو الذي شكل الجزء الأكثر إرهاقاً من رحلتنا.

الثالث من مايو / أيار: بعد أن اكتشفت السفينة أمرنا في ساعة مبكرة من هذا الصباح، أرسل إلينا قارب على الفور وبعد أن ازدادت قوتنا بوجود طاقمها، سوينا أمورنا مع البدو دون مطالب إضافية وفي غضون دقائق قليلة أصبحنا على ظهر السفينة حيث تلقينا التهاني بسبب عودتنا. وقد راودت طاقم السفينة الكثير من المخاوف على سلامتنا عندما عرفوا بأن (حمد) لم يرافقنا في رحلتنا.

ولم نقدر مدى المخاطرة الكبرى التي تعرضنا لها في رحلتنا إلا بعد فترة من ذلك. فبعد أن أدرك (بنو ذيب) أننا قد مررنا بأراضيهم، انتظروا عودتنا على أمل أن نسلك نفس الطريق. إلا أن السفينة توقفت في محطة ثانية على بعد عشرين ميل غربي المحطة الأولى، ولدى تلقي الأخبار عدنا إليها بطريق آخر مباشر. ويمكن تصور فكرة الاستقبال الذي قُدّر لنا من خلال هذه الحادثة بعد بضعة أيام، كان أحد قواربنا راسياً بالقرب من الشاطئ. وظهرت مجموعة من أبناء هذه القبيلة وسددت بنادقها عليه وأطلقت النار. فرد المسؤول على الفور إلاّ أن أحداً لم يصب.

إن النجاح الذي لقيته رحلتنا القصيرة إلى الداخل سيثبت أنه إغراء للآخرين كي يتابعوا أبحاثنا. ولو كنت في وضع مختلف لتوجهت إلى (حبّان) على الطريق الذي تقع فيه قرية (عزّان) وآثار تساوي في عظمتها آثار (نقب الهجر). ولكن بصرف النظر عن هذه النصب القديمة- التي تكفي في حد ذاتها للتعويض عن المغامرة- فإن طبيعة السكان وأوضاعهم وحرفهم وإنتاج البلاد ومصادرها الطبيعية وطبيعتها تشكل موضوعات مثيرة للاهتمام ومن شأنها بلا شك أن تشبع فضول كل أوروبي يريد زيارتها.

ولاستمرار البحث، لا أعتقد أن هناك ما هو أكثر ضرورة لأي فرد من رسالة موجهة من الحكومة البريطانية إلى شيخ (حبّان)، وهناك يمكن توفير أحد الحرس لمرافقته من ساحل البحر ومن هناك يستطيع الذهاب إلى الشيخ التالي برسالة مماثلة.

إن مثل هذا الشخص إذا ما انتحل صفة المسلم أو الطبيب وضحى بكل أنواع الراحة الأوروبية، فإنه يستطيع بلا أدنى ريب أن يتغلغل إلى أعماق هذه البلاد المدهشة.

ملحق الجزء الأول

مقتطفات من رسائل مرسلة من سعيد بن خلفان[1] سكرتير إمام مسقط

مسقط 26 ديسمبر / كانون الأول 1835

سيدي العزيز:

سررت لأنباء الاهتمام والمجاملة التي حظيتم بها في مقاطعات سموه، نرجو من الله أن تواصلوا رحلتكم وتنجحوا فيها. لقد عرضتُ رسالتكم المرسلة إلى سموه هذا اليوم. وأرجو أن تكونوا على ثقة تامة بأنه سُرّ كثيراً عندما سمع بأنكم كنتم راضين عن رعاياه.

هناك زعيم قبيلة مجاورة في مسقط وقد قبل لقاء خمسمائة دولار أن يصحبكم من (البريمي) إلى (الدرعية) وسيزودكم في أثناء الرحلة بكل ما تحتاجون إليه من إبل وحرس قوامه سبعون أو ثمانون رجلاً. وإنني الآن في انتظار ردكم. ولا يوجد طريق آخر لعبور الصحراء سوى هذا الطريق مع إحدى القوافل. وكما اقترحت علي، فإن من الأفضل أن تأخذ لفاعاً من الكشمير لفيصل[2]. وسوف أشتري هذا اللفاع وأرسله لك.

خادمكم المخلص

سعيد بن خلفان

(1) تلقى هذا الرجل العربي المهذب تعليمه في كلكتا وقد قدمت صورة حرفية من رسائله الانكليزية.

(2) فيصل هو إمام الوهابيين.

سيدي العزيز،

مسقط 9 فبراير / شباط

يسرني أن أعلمكم بوصول رسالتكم الكريمة في الرابع من فبراير / شباط، ويسعدني أن أجد أنكم في بلدة السيب وإنكم تستعيدون صحتكم. إن أعظم فائدة يا سيدي العزيز هي أن يستعيد المرء قوته وقد سمعت أنكم تستعيدون قوتكم. وإنني أشكر الله القدير في صلواتي اليومية. وقد أعلمت سموه بنبأ الحمى التي أصابتكم في (نزوى) وقال إن من الصعب تفاديها وأن ما يقدره الله لابد أن يحدث. إنني ارفق إليك رسالة من سموه إلى حاكم السيب وفي وسعك قراءتها لأنها غير مختومة. وقد فرح سموه لسماع نبأ وصولكم سالمين إلى ذلك المكان.

المخلص

سعيد بن خلفان



مسقط، 17 فبراير / شباط 1836

وصلتني رسالتكم هذا اليوم في الساعة الثامنة والدقيقة الثالثة صباحاً. وقد ذكرت لسموه الطريق الذي تنوون سلوكه وكان رده كالآتي: «إن الطريق من السويق إلى عبري آمن وكذلك الحال بالنسبة للطريق إلى الظاهرة». لا تغامروا بالرحلة. فسموه يعتبر الطريق غير مأمون. والسبب هو أن قبيلة الوهابيين وصلت من الدرعية، وقد هوجمت العديد من المناطق الواقعة فيما وراء (صحار) وأحرقت. وتسود الفوضى عموم السكان خاصة في المناطق المتصلة بعبري. وهم يسلبون ويقتلون بعضهم بعضاً ويقولون إن الوهابيين هم الجناة. وإذا ما رغبتم في المجيء إلى مسقط فمن الأفضل السفر على ظهر إحدى سفن البغلة العابرة لأن الطريق البري شديد الحرارة.

مسقط، الأحد، 22 فبراير / شباط 1836

وصلتني رسالتكم مساء أمس وفهمت جيداً محتوياتها. وقد أخبرت سموه بعزمكم على السفر إلى عبري ولهذا السبب اصدر أوامره هذا اليوم بأن يرافقك أحد ضباطه إلى عبري وفي هذا الطريق ستصادفكم أولاً بلدة السويق ثم إلى بلد الغيزين لقبيلة الحواسنة. وستأخذكم هذه القبيلة إلى بلاد قبيلة بني كلبان التي ستصحبكم إلى عبري. ومن هناك عليكم الحصول على أفراد من الـ Yacknali لمرافقتم إلى البريمي(*).

وسوف يقودكم شيخ البريمي سعد بن مطلق إلى الدرعية، وللحيلولة دون وقوع أي حادث مؤسف، فإن سموه سيكتب رسالة إلى البريمي وإلى إمام الدرعية بأن أي مبالغ مالية تقوم بسحبها منه يوافق عليها وسوف يسددها.

وقد أصدر الإمام أوامره بتجهيز الإبل لنقلك إلى السويق وهي آخر مقاطعة من مقاطعات سموه.

المخلص

سيد بن خلفان



سيدي العزيز

مسقط 6 إبريل / نيسان 1836

أعلمكم بوصول رسالتكم المؤرخة في الخامس من إبريل/ السيب.

لقد عاد القبطان هينل إلى مسقط وقد تلقيت رسائل عديدة موجهة إليكم، وإنني أرسلها إليكم دونما تأخير.

إنني لم أسمع أي شيء عن الرسولين اللذين أرسلهما الإمام لك لمرافقتك إلى عبري. وأعتقد أن الوهابيين قد قتلوهما.

المخلص

سعيد بن خلفان

(*) كذا في الأصل ولعله تصحيف لـ «ينقل» اسم بلدة معروف أو أنه يقصد قبيلة «اليعاقيب» حكام «عبري» آنذاك.

جدول الأنواء الجوية في عُمان

التاريخ	المكان	ميزان الحرارة		سطح البلاد	ملاحظات عن الطقس	خط العرض الذي
		5,30 فجراً	9 ليلاً		الساعة الثانية عشرة	تم رصده
28 نوفمبر	سوق صور	64	66	سهل مجاور لبستان نخيل	غائم جداً أمطار في الشمال الغربي. رياح جنوبية	22 درجة و83 دقيقة شمالاً
29	سوق صور	62	57	سهل مجاور لبستان نخيل	غيوم عابرة	–
30	سوق صور	63	66,50	سهل مجاور لبستان نخيل	غيوم عابرة	–
1 ديسمبر	–	–	–	–	–	–
2	باب الرفضة	63	66,50	واد ذو ماء عذب	–	–
3	كومل	56	59,50	واد ذو ماء عذب	رائق وصحو	–
4	بني بوحسن	56	59,50	جوار بستان نخيل	غائم، أمطار جزئية	22 درجة و9 دقائق
5	بني بوعلي	56	59,50	جوار بستان نخيل	غائم، أمطار جزئية	22 درجة و3 دقائق
6	قرب بديّه	56	59,50	جوار بستان نخيل	غائم، أمطار جزئية	–
7	صحراء	56	59,50	جوار بستان نخيل	رائق وصحو	–
8	صحراء	56	59,50	جوار بستان نخيل	رائق وصحو	–
9	بني بوعلي	56	59,50	جوار بستان نخيل	رائق وصحو/ندى في الليل	–
10	قرب بدية	60	59,50	على مشارف الصحراء	رائق وصحو	–
11	في بدية	58,50	55,50	قرب بستان نخيل -بلاد مكشوفة	رائق وصحو	22 درجة و27 دقائق
12	في بدية	58	56	–	–	–
13	في إبرا	57	60	في واد قرب ماء عذب	غائم	22 درجة و41 دقائق
14	قرب سمد	55	60,50	طريق مُلْغَل	رائق	–

جدول الأنواء الجوية في عُمان

التاريخ	المكان	ميزان الحرارة		سطح البلاد	ملاحظات عن الطقس	خط العرض الذي
		5,30 فجراً	9 ليلاً		الساعة الثانية عشرة	تم رصده
15	في سمد	60	63	طريق مُدْغَل	رائق	22 درجة و50 دقائق
16	في سمد	58	63	—	رائق/ رياح إلى الجنوب	—
17	في سمد	11,57	63	الساعة 2–3 —	—	—
18	في سمد	58	62,50	74 في الخيم —	غيوم عابرة	—
19	في سمد	59,50	64	70 في الوادي	غيوم عابرة مع زخات مطر خفيفة	—
20	كثرى	58,50	63,50	72 أرض مكشوفة قرب نخيل	غائم مع نسيم خفيف من الجنوب	—
21	ميول	57	63	أرض مكشوفة قرب نخيل	رائق غيوم عابرة	—
22	منح	58	62	أرض مكشوفة قرب بستان نخيل	رائق غيوم عابرة	—
23	نزوى	56	66	— أسفل الجبل الأخضر	رائق/ريح شمالية غربية/صافر	22 درجة و56 دقائق
24	نزوى	57,50	66	— —	الجزء الأول رائق وصاف — الساعة 4 مشابه	—
25	نزوى	60	66	— —	رائق	—
26	نزوى	64	53	— على الجبل الأخضر	رائق	—
27	شيرازي	53	53	— على الجبل الأخضر	رائق	23 درجة و3 دقائق
28	شيرازي	50	53	— على الجبل الأخضر	رائق	—
29	شيرازي	50	53,50	— على الجبل الأخضر	رائق	—
30	بركة الموز	54,50	52	الساعة 2 – 3 —	رائق	—
31	نزوى	50	59	— في البستان	رائق	—

جدول الأنواء الجوية في عُمان

التاريخ	المكان	ميزان الحرارة		سطح البلاد	ملاحظات عن الطقس	خط العرض الذي
		5,30 فجراً	9 ليلاً		الساعة الثانية عشرة	تم رصده
1 يناير	نزوى	52	57	– 60	رائق	–
2	نزوى	54	56	– 61	رائق	–
3	نزوى	54	55	– 61	رائق	–
4	نزوى	53,50	55,50	– 60	رائق	–
5	نزوى	52	54	– 61	رائق	–
6	نزوى	56	54	–	رائق	–
7	نزوى	54	55	– 61	رائق	–
8	نزوى	53	55	– 62	رائق	–
9	نزوى	53	55	– 62	رائق	–
10	نزوى	50,50	55	–	رائق	–

فهرس المحتويات